

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 القرآن

القرآنُ الكريم هو الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ، ليكون الآية الكبرى، والبيّنة الثابتة الدائمة على نبوّته ورسالته.

وهذا الكتاب هو مرجعُنا الأول، ومصدرُ إسلامنا، وينبوعُ حضارتنا، وهو الأصل الأول والمرجع الفيصل في استنباط الأحكام الشرعية، ولا يجوز أن يُعمل بغيره من الأصول إذا خالفه.

وقد أنعم الله على هذه الأمة بحفظه من التحريف: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، فَاتَّفَقَتْ على ألفاظه

ونصوصه، وإن اختلفت أحياناً في فهم بعض هذه النصوص.

وقد لَخَّصَ اللهُ سبحانه مهامَّ نبيِّه صلوات الله عليه - في غير ما آية - في ثلاث مهام :

﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم:

(1) يتلو عليهم آياته،

و(2) يزكِّيهم،

و(3) يعلمهم: (3-أ) الكتاب

و(3-ب) الحكمة﴾ [آل عمران: 164]؛

﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم (1) يتلو عليكم آياتنا، و(2) يزكِّيكم، و(3) يعلمكم:

(3-أ) الكتاب، و(3-ب) الحكمة ﴿البقرة: 151﴾.

﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ: (1) يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، و(2) يَزَكِّيهِمْ، و(3) يَعْلَمُهُمْ: (3-أ) الكتاب و(3-ب) الحكمة﴾ [الجمعة: 2]؛

وَاسْتُجِيبَتْ بِذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ: (1) يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، و(2) يَعْلَمُهُمْ: (2-أ) الكتاب، و(2-ب) الحكمة؛ و(3) يَزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129].

الوحي المتلّو والوحي غير المتلّو

فَأُولَى مَهْمَاتِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْنٌ: أَنْ يَتْلُوَ هَذَا الْقُرْآنَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾: [سورة النمل: 91-92].

ولنقف قليلاً عند الكتاب، وهو الوحي المَتْلُو في الصلوات، والمحفوظ بين دَفَّتَي القرآن الكريم؛ وعند الوحي غير المَتْلُو، وهو الذي يُقال له الحكمة في مصطلح القرآن الكريم، وقد تَعَارَفَ المسلمون على تسميته الحديث: حديث النبي ﷺ، والسُّنَّة: سُنَّة النبي ﷺ.

والذي نريد أن نوَكِّده أن أحاديث النبي ﷺ، وأن سُنَّتَه، وأن سلوكَه، وأن تشريعاته القولية والعملية.. كُلُّها تَنَدَرِجُ في عِداد الوحي غير المَتْلُو، وكُلُّها من الذِّكر الذي تعهَّد الله عزَّ وجلَّ بحفظه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: 9].

فالقرآن وهو الوحي المَتْلُو: ذِكر: ﴿وقد آتيناك من لَدُنَّا ذِكْراً﴾ [طه: 99]، ﴿ذلك نتلوهُ عليك من الآيات والذِّكر الحكيم﴾ [آل عمران: 58]، ﴿وإن يكادُ الذين

كفروا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا
الذِّكْرَ، ويقولون إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وما هو إِلَّا
ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿[القلم: 51-52]﴾، ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ
إِلَيْكُمْ ذِكْرًا: رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ
مُبَيِّنَاتٍ ﴿[الطلاق: 10-11]﴾، ﴿وَقَالُوا: يَا أَيُّهَا
الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿[الحجر: 6]﴾، ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴿[الأنبياء: 50]﴾، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ
مُبِينٌ ﴿[يس: 69]﴾، ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ
بَيْنِنَا؟ ﴿[ص: 8]﴾، ﴿أَلْقَى عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ
بَيْنِنَا؟ ﴿[القمر: 25]﴾، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِلْعَالَمِينَ ﴿[يوسف: 104، ص: 87، التكويد: 27]﴾.

وَالْوَحْيُ غَيْرُ الْمَثَلِ هُوَ كَذَلِكَ ذِكْرٌ،
أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الْوَحْيَ
الْمَثَلُ الَّذِي نُزِّلَ إِلَيْهِمْ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿[النحل:

[44] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: 17،
22، 25...]. وهذا الذِّكْرُ النبويُّ تابعٌ
للقرآن: ﴿ص؛ والقرآن ذي الذِّكْرِ﴾
[ص: 1]؛ وله حُجْبَةٌ كَحُجْبَةِ القرآن الكريم.

أوصاف القرآن

ولنقرأ أولاً ما يصفُ الله به كتابَهُ
الكريم، وهو أفضلُ وصفٍ وأصدقُه:
يقول سبحانه في الآية الأولى من سورة
الحجر: ﴿تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ﴾،
وفي الآية الأولى من سورة النمل: ﴿تلك آياتُ
القرآنِ وكتابٍ مبينٍ﴾. فهي آيات الكتابِ
وهي آيات القرآن؛ وهو قرآن مبين وهو
كتاب مبين. ويعني ذلك أولاً وقبل كل
شيء أن القرآن هو الكتاب وأن الكتاب هو

القرآن، فلا تَلْتَفِتْ إلى من يريد التفريق
بين الكتاب والقرآن.

ثم إن صفة القرآن التي ذُكرت هنا
هي أنه ﴿مُبِينٌ﴾، وقد ذُكرت هذه الصفة
كثيراً في كتاب الله، كما في قوله تعالى:
﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: 1،
الشعراء: 4، القصص: 2]، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69]، وقوله:
﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ، لَتَكُونَ
مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾
[الشعراء: 193-195]، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ
بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ، وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا
مُّبِينًا﴾ [النساء: 174].
وَمَعْنَى ﴿مُبِينٌ﴾:

(1) أنه: بَيِّنٌ، أي واضحٌ مفهوم للناس:
﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: 99]؛

﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات﴾
[الحديد: 9]؛

و (2) أنه: مُبَيَّن، أَي مُوَضَّحٌ مُفَسِّر:
﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لِتُبَيِّنَ لَهُم﴾
[النحل: 64]؛ ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات
مُبَيِّنَات﴾ [النور: 34]؛ ﴿قد أنزل الله إليكم
ذكراً: رسولاً يتلو عليكم آيات الله
مُبَيِّنَات﴾ [الطلاق: 10-11].

وقد قال عنه الله تعالى: ﴿هذا بيان
للناس﴾ [آل عمران: 138].

وما ذلك كُلُّه إلا من أجل أن يتعاش
الإنسان معه دون تفسيرات معقّدة. نَعَمْ،
نحتاج أحياناً إلى تفسير بعض الكلمات
التي أصبحت غريبة بالنسبة إلينا، لأننا

ابتعدنا عن عهد النبوة، وبعد هذا نعيش
نحن مع هذا القرآن ونتفاعل معه.

*

ومن الصفات الأخرى التي ذكرها الله
عز وجل لهذا القرآن (*):

• أنه رحمة: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم
وهدى ورحمة﴾ [الأنعام: 157]؛ ﴿وإنه لهدى
ورحمة للمؤمنين﴾ [النمل: 77]؛ ﴿أولم يكفهم
أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن في
ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾
[العنكبوت: 51].

• وأنه كريم: ﴿إنه لقرآن كريم﴾ [الواقعة:
77].

• وأنه عزيز: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾
[فصلت: 41].

(*) يُرَاجَع لتفصيل هذه الأوصاف كتاب ((البيان في روائع القرآن)) للاستاذ الجليل الدكتور تَمَام حَسَّان: ص 469 - 502.

• وأنه بَيِّنَةٌ وَبُرْهَانٌ: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 157]؛ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البَيِّنَةُ: 4]؛ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: 174].

• وأنه أَحْسَنُ الْحَدِيثِ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23]؛ ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ؟﴾ [النجم: 59]؛ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟﴾ [المرسلات: 50].

• وأنه مُحْكَمٌ وَحَكِيمٌ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ [هود: 1]؛ ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا

يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴿[الحج: 52]﴾؛ ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ [يس: 1، 2]؛ ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ [يونس: 1، لقمان: 2].

• وَأَنَّهُ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: 90]﴾؛ ﴿كتابٌ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرجٌ منه لنُذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2]؛ ﴿وإنه لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: 48]؛ ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرةً لمن يخشى﴾ [طه: 2-3].

• وَأَنَّهُ مَجِيدٌ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ [ق: 1].

• وَأَنَّهُ هُدًى يَدُلُّ عَلَىٰ طَرِيقِ الْخَيْرِ، وَنُورٌ يُضِيءُ الدَّرَجَاتِ لِسَالِكِيهِ وَيُبَصِّرُهُمْ بِهِ: ﴿هذا بصائر من ربكم

وهدى ورحمة ﴿[الأعراف: 203]﴾ ؛ ﴿أرسل
رسوله بالهدى﴾ [التوبة: 3، الفتح: 28، الصف:
9] ؛ ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء
وهدى ورحمة وبُشْرَى للمسلمين﴾ [النحل:
89] ؛ ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [النمل:
77] ؛ ﴿هذا هدى﴾ [الجاثية: 11] ؛ ﴿إنا سمعنا
كتاباً أنزل من بعد موسى، مصدّقاً لما بين
يديه، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾
[الأحقاف: 30] ؛ ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي
إلى الرُّشد﴾ [الجن: 1] ؛ ﴿إن هذا القرآن
يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: 9] ؛ ﴿ويرى
الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك
هو الحقّ ويهدي إلى صراط العزيز
الحميد﴾ [سبأ: 6] ؛ ﴿وأنزلنا إليكم نوراً
مُبِيناً﴾ [النساء: 174] ؛ ﴿ولكن جعلناه نوراً
نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى:
52] ؛ ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنُّور الذي

أنزلنا ﴿التغابن: 8﴾؛ ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها﴾ [الأنعام: 104]؛ ﴿هذا بصائر للناس﴾ [الجاثية: 20].

• وأنه عظيم: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر: 87].

• وأنه حق: ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ [البقرة: 119]؛ ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: 3]؛ ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ [النساء: 105]؛ ﴿وكذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: 66]؛ ﴿وبالحق أنزلناه، وبالحق نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105]؛ ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾ [فاطر: 31]؛ ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ [سبأ: 6]؛ ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق﴾ [الشورى:

[17]؛ ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: 2].

• وأنه ﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فُصِّلَتْ: 3].

• وقد قال عنه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ [الطارق: 13]، أي فاصلٌ يفصل بين الحق والباطل، وهو لا يكون كذلك إذا لم يكن إلى معرفة معناه سبيل. وقد ذمَّ الله الذين ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78] أي لا يعلمون القرآن إلا تلاوةً(*) لا يفهمون معناها.

(*) في « لسان العرب »: « تَمَنَّى الْكِتَابَ: قَرَأَهُ وفي التنزيل العزيز: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: 52]، أي: قَرَأَ وَتَلَا، فَأَلْقَى [الشَّيْطَانُ] فِي تِلَاوَتِهِ ما ليس فيه وَالتَّمَنَّى: التَّلَاوةُ ».

وذلك أن ما جاء به الرسول هو من علم الله، فقد قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: 166]،

وقال سبحانه: ﴿فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله﴾ [هود: 14]. أي أنزله وفيه علمه [والباء هنا للمصاحبة كما في قوله تعالى: ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله﴾ [القصص: 29] أي مستصحباً أهله].

كيف نفهم القرآن

كيف نستطيع أن نفهم هذا القرآن الكريم الذي هو نورٌ ينير لنا الطريق، والذي هو واضحٌ مبين، كما قال عزّ وجل عنه: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين﴾ [المائدة: 15]. وكما قال عنه النبي ﷺ: «كتابُ الله فيه الهدى والنور» [رواه مسلم عن زيد بن أرقم]؟

لقد نزل هذا الكتاب الكريم ﴿بلسان عربي مبين﴾ [النحل: 103، الشعراء: 195،

الأحقاف: 12] ، وقد وُصف بأنه قرآن عربي [يوسف: 2، طه: 113، الزمر: 28، فُصِّلَتْ: 3، الشورى: 7، الزخرف: 3]. وما دام القرآن قد نزل بلسان العرب، فلا بُدَّ حتى نفهمه من أن نتعرَّف على معاني الكلمات كما كان يفهمها العرب يومَ نزل القرآن. فلقد قال الله سبحانه وتعالى عن كتابه مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا يَسِّرْنَاهُ بِلسانِكَ﴾ [مريم: 97]. ويعني ذلك أمرين:

أولهما: أن القرآن مُيسَّر للفهم: ﴿ولقد يَسِّرْنَا القرآنَ للذكر﴾ [القمر: 17]؛

وثانيهما: أنه قد نَزَلَ بلسان الرسول الذي كان يتحدث به: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]، أي بِلُغَةِ العرب المتداوِلَةِ في ذلك الوقت، وهي لغة مُضَرّ، أي لغة قريش وَمَنْ جاورها من العرب. بُرْهان

ذلك توجيهُ سيدنا أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لكتّاب القرآن من المهاجرين: « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من عربية القرآن، فاكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ » [رواه البخاري عن أنس]. ولذلك قال العلامةُ ابن خلدون في « المقدمة » ص: 634: « وإنما وقعت العناية بلسان مُضَر... وكان القرآن مُنَزَّلًا به، والحديث النبوي منقولًا بِلُغَتِهِ ».

فكثيرةٌ هي الكلمات التي ابتعد عامّة الناس - بل حتى فقهاؤهم ومفسّروهم - بمعانيها عن المعاني التي نزل بها القرآن، أو جاء بها حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخذوا يَلُوْنُ أعناق النصوص القرآنية والنبوية لتتفق مع مصطلحات العصر الذي يعيشون فيه(*). وهو ما لَقَتَ النظر إليه شيخ الإسلام ابن

(*) وقد غالى بعض المنتسبين إلى الإسلام في هذا العصر وبالغوا في لَيّ أعناق النصوص القرآنية والنبوية، لتتفق مع بعض النظريات العلمية، وتسوّغ ما يزعّمونه من إعجاز قرآني ونبوي. وكلمة "الإعجاز" نفسها - بالمناسبة - لم تَرُدْ قطّ بهذا المعنى الذي يستعملونه، لا في القرآن ولا في السنّة، وإنما وَرَدَتْ كلمات: الآية، والبرهان، والبيّنة، والسلطان.

تيمية رحمه الله [في الرسائل والفتاوى:
101/3] فقال: «وَمِنْ أَعْظَمِ أسبابِ الغَلَطِ في فهم كلام الله ورسوله، أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث، فيريد أن يفسّر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمّله على تلك اللغة التي اعتادها». ولذلك كان لابدّ من العودة إلى المعاني الأصيلة لهذه الألفاظ، حتى نفهم القرآن حقّ فهمه، ونتلوّه حقّ تلاوته. وَمِنْ قَبْلُ قال العلامة ابن خلدون [في المقدّمة، ص: 638]: «ولغة أهل الجبل [أي جبل ابن خلدون] كلّهم مغايرةٌ للغة مُضَر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغةٌ أخرى».

بل قال أبو عمرو بن العلاء [المتوفى سنة 154 هـ] وهو من أعلم الناس بلسان العرب وكلامها وأساليبها: «اللسانُ الذي نزل به القرآن وتكلّمت به العرب على عهد النبي ﷺ، عَرَبِيَّةٌ أُخْرَى غَيْرُ كَلَامِنَا هَذَا!»

الخطاب القرآني

ومن أهم القضايا التي تنبغي الإشارة إليها في هذا الصدد، قضيةٌ يخطئ فيها الكثيرون في هذه الأيام، وهي قضية الخطاب القرآني. ففي القرآن الكريم واللغة العربية عموماً نوعان من الخطاب: أحدهما خطابٌ للإناث وَحَدَهُنَّ، والثاني خطابٌ مشترك للذكور والإناث معاً. فليس في اللغة العربية خطابٌ للذكور

وحدّهم. وأكثرُ ما يطالعا في القرآن الكريم هو هذا الخطاب المشترك. فقوله عز وجلّ مثلاً: ﴿أقيموا الصلاة﴾ [المزمل: 20]، ليس موجّهاً للرجال وحدهم. ولكنّ كثيراً من الناس يخطئون ويعطّلون بعض الآيات المحكمة من القرآن الكريم بسوء الفهم هذا، وهذا أمرٌ تحدّث عنه كبارُ العلماء منذ القدم.

قال الإمام الخطّابي [في معالم السنن: 161/1] معلّقاً على حديث «إنما النساء شقائق الرجال»: «إن الخطاب إذا ورد بلفظ الذكور كان خطاباً للنساء [كذلك]، إلا مواضع الخصوص التي قامت أدلّة التخصيص فيها».

وقال الإمام ابن القيم [في إعلام الموقعين: 92/1]: «وقد استقرّ في عُرف الشارع، أن

الأحكام المذكورة بصيغة المذكَّرين، إذا أُطلقت ولم تقترن بالمؤنث، فإنها تتناول الرجال والنساء».

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني [في فتح الباري]: « والنساء شقائق الرجال في الأحكام إلا ما خُصَّ ». كما نقل قول الكرّماني: « حكمُ الرجل والمرأة واحد في الأحكام الشرعية ».

ومن قَبْلُ قال الإمام ابنُ حزم [في الإحكام: 80/3]: « ولا خلاف بين أحد من العرب ولا من حاملي لغتهم، أولهم عن آخرهم، في أن الرجال والنساء، وأن الذكور والإناث، إذا اجتمعوا وخُوطِبوا أو أُخبر عنهم، أن الخطاب والخبر يردان بلفظ الخطاب والخبر عن الذكور إذا انفردوا، ولا فَرْق؛ وأن هذا أمرٌ مطَّردٌ أبداً على

حالة واحدة. فصَحَّ بذلك أنه ليس لخطاب الذكور - خاصة - لفظٌ مجردٌ في اللغة العربية غير اللفظ الجامع لهم وللإناث، إلا أن يأتي بيان زائد بأن المراد الذكور دون الإناث. فلما صحَّ ذلك، لم يَجْزُ حملُ الخطاب على بعض ما يقتضيه دون بعض، إلا بنصٍّ أو إجماع. فلما كانت لفظة افعَلُوا والجمعُ بالواو والنون وجمعُ التكسير يقع على الذكور والإناث معاً، وكان رسولُ الله ﷺ مبعوثاً إلى الرجال والنساء بعثاً مستوياً [أي سواءً بسواء]، وكان خطابُ الله تعالى وخطابُ نبيِّه ﷺ للرجال والنساء خطاباً واحداً، لم يَجْزُ أن يُخَصَّ بشيء من ذلك الرجالُ دون النساء، إلا بنصٍّ جليٍّ أو إجماع...».

إلى أن يقول بعد ذكر أزواج النبي ﷺ وعدد من كرائم الصحابيَّات رضي الله

عنهنَّ: «ولا خلاف بين أحد من المسلمين قاطبة، في أنهنَّ مخاطباتٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المزمل: 20]، و: ﴿مَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]، و: ﴿ذُرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 278]، و: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور: 33]، و: ﴿أَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282]، و: ﴿لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]، و: ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199]، و: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]، و: ﴿ابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: 6]، وسائر أوامر القرآن [الإحكام: 82/3].

قال أبو محمد [ابن حزم]: «وقد سأل عمرو ابن العاص رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ فقال «عائشة!»، قال:

ومن الرجال ؟ قال: « أبوها ! » [رواه مسلم].
ورسول الله ﷺ أعلم الناس باللغة التي
بُعِثَ بها، فَحَمَلَ اللفظ على عمومته في
دخول النساء مع الرجال « [الإحكام: 83/3].
ثم روى ابن حزم [بسنده عن مسلم] عن أمنا أم
سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: كنت أسمع
الناس يذكرون الحوض، ولم أسمع ذلك
من رسول الله ﷺ. فلما كان يوماً من ذلك
والجارية تمشطني، فسمعت رسول الله ﷺ
يقول: « أيها الناس ! »، فقلت للجارية:
استأخري عني؛ قالت: إنما دعا الرجال
ولم يدعُ النساء؛ فقلت: إني من الناس. ثم
ذكرت الحديث. قال علي [ابن حزم]: « في
هذا بيان دخول النساء مع الرجال، في
الخطاب الوارد بصيغة خطاب الذكور »
[الإحكام: 85/3]. إلى أن قال: « قد تَيَقَّنَّا أن
رسول الله ﷺ مبعوثٌ إليهن كما هو

[مبعوثٌ] إلى الرجال، وأن الشريعة التي هي الإسلام لازمةٌ لهنَّ كلزومها للرجال، وأيقنَّا أن الخطاب بالعبادات والأحكام متوجهٌ إليهن كتوجهه إلى الرجال، إلا ما خصَّهن أو خصَّ الرجال منهن دليل. وكلُّ هذا يوجب أن لا يُفَرَّد الرجال دونهنَّ بشيءٍ قد صحَّ اشتراكُ الجميع فيه إلا بنصٍّ أو إجماع؛ وبالله تعالى التوفيق « [الإحكام: 86/3].

وعندما توهَّمت إحدى الصحابيَّات وهي أم عمارة الأنصارية، أمراً من هذا القبيل، أتت النبيَّ ﷺ فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلا للرجال، وما أرى النساء يُذَكَّرْنَ بشيءٍ [رواه الترمذي بإسناد صحيح عن أم عمارة الأنصارية] ! فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ

والمؤمنات، والقانتين والقانتات،
والصادقين والصادقات، والصابرين
والصابرات، والخاشعين والخاشعات،
والمتصدِّقين والمتصدِّقات، والصائمين
والصائمات، والحافظين وفروجهم
والحافظات، والذاكرين الله كثيراً
والذاكرات... أعدّ الله لهم مغفرة وأجرًا
عظيمًا ﴿[الأحزاب: 35]﴾.

فبيّن سبحانه بقوله: ﴿أعدّ الله لهم﴾ [لا:
لهم ولهنّ] أن هذه الصيغة المشتركة «لهم»
تمثّل الرجال والنساء جميعاً، ولا فرق،
وذلك بعد أن طيّب خاطر هذه الصحابة
المجاهدة بإبراز صيغة التأنيث في صفات
المؤمنين (*).

*

بل إن مما يتفرّد به لسانُ العرب، أنه
يقرّر حقيقة التساوي الأصلي بين الرجل
والمرأة، فيُطلق على كلّ منهما لفظاً
واحداً وهو « الزوج »، فالرجل « زوجُ
المرأة وهي زوجةُ أيضاً: هذه هي اللغة
العالية وبها جاء القرآن » [كما ورد في
المصباح المنير وتاج العروس]. ولو أن لفظة «
الزوجة» قد استُعْمِلَتْ في ما بعد وأجيزَتْ.
كذلك يقال « عَرُوس »، و « بَعْل » لكلّ من
الرجل والمرأة!

ولعلّنا لذلك نجد لغة الخطاب في الغزل
والنسيب من شعر العرب بهذه الصيغة
المشتركة، حتى عندما يُراد

(*) لَفَتَ نظرنا إلى هذه اللطيفة من لطائف القرآن، أخونا
الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين.

بها المحبوبة الأنثى، دون أن يعني ذلك أبداً أنه تشبيهُ بالذكور، كما يظن بعض الدارسين السطحيين.

بل إن لفظة «الرَّجُل» نَفْسَهَا، إِنَّمَا تَرِدُ فِي كتاب الله وحديث رسوله ﷺ بمعنى «الإنسان»، أي الذكر والأنثى، ولا تعني الذكر إلا إذا وُجِدَتْ قرينة تدلُّ على ذلك، كَأَنَّ تَأْتِي لفظة «النساء» مع لفظة «الرجال» في نفس السِّيَاق. وإلا فهي تتناول الجنسين معاً، كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4]؛ وقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]؛ وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رِجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرِجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: 29]؛ وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ

يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿التوبة: 108﴾؛ وقوله: ﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]. بَلْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: « أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَصْحَابِهَا، فَمَا فَضَّلَ فَلأَوَّلَى رَجُلٍ ذَكَرَ » [رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس].

وللدكتورة إلهام منصور رأيٌ وجيهٌ وطريف، تُعرب فيه عن اعتزازها باللغة العربية بصفاتها امرأة، « لكون اللغة العربية هي الوحيدة [بين اللغات التي تعرفها] التي تسمِّي الكائن البشري بلفظ يحمل صيغة المثنى، وهو « إنسان » أي الجمع بين « إنسَيْن »(*) [اثْنَيْن]، وهو اعتراف واعٍ أو غير واعٍ بأن هذا الكائن البشري هو

اثنان مختلفان:.... ذكر وأنثى. وهذا يعني
أن العربية تُقَرَّرُ بكيانِيَّةِ المرأةِ كذاتٍ»(**).

*

(*) «الإنس» اسمٌ للنوع البشري بأكمله، كما أنه اسمٌ للواحد من البشر، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ [أي آدمي] وَلَا جَانٌّ﴾ [سورة الرحمن: 39].
(**) مَنْ هي المرأة؟: إلهام منصور؛ مجلة الفكر العربي المعاصر، صيف- خريف 2004، ص 130 - 131.
وأصل المقالة مداخلَةً في ندوة في معرض فرانكفورت للكتاب العربي (خريف 2004).

أخطاء في فهم القرآن

ولقد يحسن بنا أن نفتح قوسَيْنِ هنا،
لنُوضِّحَ في مثالين أو ثلاثة، ما نرمي إليه.

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ؛

والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش،
وإذا ما غضبوا هم يغفرون؛ والذين
استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم
شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون؛
والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴿٣٦﴾
[الشورى: 36-39].

كلُّ الأحكام كما نرى موجَّهةً للرجال
والنساء جميعاً، أما ﴿أمرهم شورى بينهم﴾
فمن الناس مَنْ يحاول أن يقصُرَها على
الرجال فقط ويستبعد النساء من عملية
الشورى كُلِّها، وهذا اجتراءٌ على كتاب
الله، وتعطيلٌ جزئي لنصٍّ مُحكم من
نصوصه.

ولا أدلَّ على ذلك من عمل الصحابة
والراشدين الذين قال النبي ﷺ عنهم: «
عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ» [رواه أبو داوود والترمذي عن العرياض ابن سارية بإسناد صحيح]. فعندما استشهد سيدنا عمر ابن الخطاب، جَعَلَ ترشيحَ الخليفة المقبل إلى ستة من الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ. أما سيدنا عبد الرحمن بن عوف فنزع نفسه من الخلافة، وذهب يستفتي الناس: سألهم جميعاً رجالاً ونساءً حتى البكر في خدرها. ثم اجتمع أهلُ الشورى في بيت سيِّدة هي فاطمة بنت قيس القرَشية [ابن الأثير: «أسد الغابة»] 526/5، ابن حجر: «الإصابة» 164/8، حيث قدَّم عبد الرحمن بن عوف ﷺ تقريره للصحابة وقال فيه: «وجدتهم لا يعدلون بعثمان أحداً». فهكذا دلَّ إجماع الصحابة على أن الشورى تعمُّ الرجال والنساء جميعاً، وهذا دليل على أن الآية لا بد أن

تُفهم كما يُفهم الخطاب القرآني كُلُّه، فكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من خطابٍ أو خَبَرٍ، فهو متعلِّقٌ بالرجال والنساء معاً، ما لم يَرِدْ دليلٌ واضحٌ صريحٌ على خلاف ذلك.

*

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿اعملوا ! فسَيَرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ [التوبة: 105]، وقوله تعالى: ﴿اعملوا صالحاً﴾ [سبأ: 11]، وقوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ [الكهف: 110]: هذه الآيات موجَّهة للجنسين معاً، وموجَّهة بصيغة الأمر، فالأصلُ فيها التَّوَجُّبُ: وجوبُ العمل على الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، إلا أن يصرفها صارف،

وهيئات. فكما أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، فإن العمل فريضة على كل مسلم ومسلمة، فلا يصح أن يقال إن المرأة لا يجوز أن تخرج للعمل ! المرأة مطالبة بالعمل، والعمل للجنسين كليهما مقصود به بالطبع العمل الصالح، ومعنى العمل الصالح: كل عمل هو في مصلحة المجتمع. وقد أورد الإمام أحمد عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنه قوله: «ألا إن سبيل الله: كل عمل صالح». ولذلك نجد في اثنتين وثمانين آية من كتاب الله قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [البقرة: 82، النساء: 57، 122..] ، ونلاحظ هذا الإصرار على الربط بين الإيمان والعمل الصالح. وأحياناً يشاء الله عز وجل أن يبرز الصورة أكثر، فيقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ

حياةً طيبة ﴿[النحل: 97]. ويقول عزّ من قائل:
﴿لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ: مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَى، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].
فوجوب العمل هو على الجنسين معاً،
وفي ما عدا ذلك يمكن الدخول في
التفاصيل، إذا وُجد سَبَبٌ يصرف عن هذا
النص المشترك.

*

المثال الثالث:

نحن نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر فريضةٌ مُحْكَمَةٌ على الرجال
والنساء على حد سواء: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة:

[71].

على أن الخلفاء الراشدين لم يكتفوا فقط بهذا الأمر العام بالمعروف أو النهي العام عن المنكر، وإنما أضفوا عليه الطابع المؤسسي. فأنشأ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه نظام الحسبة. والحسبة: هي أول نظام في التاريخ يمثل السلطة العليا الموكلة بضمان الجودة في جميع الأعمال التي تتم في الدولة، وبالرقابة على جميع الأنشطة الاقتصادية والعلمية والمهنية، وسائر الأنشطة التي تتعلق بمصالح الناس، للتأكد من أنها تتم بموجب الشريعة والقانون، وهذا يتمثل في جهاز يتمتع بسلطة رقابية وسلطة تنفيذية في الوقت نفسه (*).

وقد أنشأ الخليفة الراشد الثاني هذه السلطة وهذا الجهاز، وعيّن على رأسه

سيدة فاضلة هي الشِّفاء بنت عبد الله، وهي سيِّدةٌ كانت تنهض بمحو أُمِّية النساء، وكان عمر يقَدِّمها في الرأي ويرعاها ويفضِّلها: [ابن حجر: « الإصابة في تمييز الصحابة »، 333/4]. ومعنى ذلك أنها صارت لها ولاية عامة على كل مَنْ في السوق من الرجال والنساء. وهذا النظام المؤسَّسي في المدينة المنورة، واكْبَتْهُ مؤسسةٌ مماثلة ثانية في مكة المكرمة. وأوَّلُ محتسبة في مكة المكرمة هي أيضاً سيدة اسمها سمراء بنت نُهَيْك، يقول عنها راوي الحديث يحيى بن أبي سليم: « رأيت سمراء بنت نُهَيْك – وكانت قد أدركت

(*) أخذت الدول المتقدِّمة في السنوات الأخيرة تعتنق مفهوم الحِسْبَةِ هذا، وتضعه موضع التنفيذ باسم .stewardship

النبي ﷺ - وعليها درع [فستان] غليظة وخمارٌ غليظ، وببيدها سوطٌ تؤدب الناس وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر! « [أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » بسند جيد].
هكذا كانت الأمور في صدر الإسلام منذ ألف وأربعمئة عام، قبل أن يبدأ الانحراف والانحدار.

*

المثال الرابع:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ: الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ؛ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ! فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 178-179].

يخطئ كثيرون في فهم الآية، فيفهمون «
القصاص» على أنه «الْقَوْد»، أي قَتْلُ الحرِّ
بالحر والعبد بالعبد.. والحقُّ – كما يقول
شيخ الإسلام ابن تيمية – «أن القصاص
في القَتْلِ يكون بين الطائفتين الْمُقْتَتَلَتَيْنِ
قتال عصبية وجاهلية، فيُقتل من هؤلاء
ومن هؤلاء أحرارٌ وعبيدٌ ونساء، فأمر الله
تعالى بالعدل بين الطائفتين، بأن يُقاصَّ
دِيَةُ حرٍّ بدية حرٍّ، ودِيَةُ امرأة بدية امرأة،
وعبد بعبد؛ فإن فَضَلَ لإحدى الطائفتين
شيء بعد المُقاصَّة فلنتبع الأخرى
بمعروف، ولتؤدِّ الأخرى إليها بإحسان».
وهذا قولُ الشعبي وغيره، وقد ذكره محمد
بن جرير الطبري وغيره... وما ذكرناه
يظهر من وجوه: أحدهما؛ أنه قال: ﴿كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾، و«القصاص
» مصدر قاصَّه يُقاصُّه مُقاصَّةً وقصاصاً،

ومنه مُقَاصَّةُ الدَّيْنَيْنِ أحدهما بالآخر.
والقصاصُ في «القتلى» إنما يكون إذا كان
الجميع قَتْلَى، فيُقَاصُّ هؤلاء القتلَى بهؤلاء
القتلَى. وأيضاً فإنه قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِصَاصُ﴾ ... فلو أُريدَ به استيفاءُ القَوْدِ،
فذلك مباحٌ للوليِّ إن شاء اقتَصَّ وإن شاء
لم يقتَصْ، فلم يُكْتَبْ [أي: لم يُفَرَضْ] عليه
الاقتصاص...

أما قوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾
فمعناه أن يؤخذ العضو بنظيره، فهذا
قصاص لأنه مساواة، ولهذا كانت المكافأة
[أي: التكافؤ] في الأعضاء والجروح معتبرةً
باتِّفاق العلماء..

« [الوجه] الثاني: ... قوله: ﴿الحر بالحر
والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ إنّما يدل
على مقاصّة الحر بالحر ومعادلته به

ومقابلته به، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى. وهذا إنَّما يكون إذا كانا مقتولَيْن، فَيُقَابَلُ كل واحد بالآخر ويُنْظَرُ: أيتعادلان أم يَفْضَلُ لأحدهما على الآخر فَضْلٌ؟».

« [الوجه] الثالث: أنه قال: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: لفظ « عَفِيَ » هنا قد استعمل متعدِّياً، فإنه قال: عَفِيَ شَيْءٌ، ولم يقل: عَفَا شَيْئاً. وهذا إنَّما يُسْتَعْمَلُ فِي الْفَضْلِ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ: الْعَفْوَ﴾ [أي: الفاضل عن حاجاته الأصلية]، وأما الْعَفْوَ عَنْ الْقَتْلِ فَذَاكَ يُقَالُ فِيهِ: عَفَوْتُ عَنِ الْقَاتِلِ ... فَاَلْمُقَاصَّانِ إِذَا تَقَادَى الْقَتْلَى [أي: احْتُسِبَ كُلُّ قَتِيلٍ بِقَتِيلٍ مِثْلَهُ]، فَمَنْ عَفِيَ لَهُ أَيْ: فَضَّلَ لَهُ مِنْ مُقَاصَّةِ أَخِيهِ فَضْلٌ [أي: أُبْقِيَ لَهُ مِنْ جِهَةِ أَخِيهِ بَقِيَّةٌ] ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيْ إِنْ الْمُسْتَحَقُّ لِهَذَا الْفَضْلِ يَتَّبِعُ الْمُقَاصَّ الْآخَرَ بِالْمَعْرُوفِ،

وذلك يؤدّي إليه بإحسان ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ .. ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ فإنّهم إذا تفادوا القتل وتقاصوا وتعادلوا، لم يبق طائفة تطلب الأخرى بشيء، فحيّ هؤلاء وحيّ هؤلاء..

*

المثال الخامس:

قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء، بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم﴾ [النساء: 34]. فما معنى « قوامون على النساء »؟ وما معنى القوام في اللغة التي نزل بها القرآن والتي جاء بها الحديث؟

الأصل أن نفسّر القرآن بالقرآن أو بالحديث النبوي. فالله سبحانه وتعالى يقول
عن كتابه:

﴿كتاباً متشابهاً﴾ [الزمر: 23]، أي إنّ ثَمَّةَ تشابهاً بين الآيات، نستطيع بفضلُه أن نستفيدَ من آية في تفسير آية أخرى، أو من حديث في تفسير آية، لأن القرآن والحديث كليهما وحيٌّ من الله عز وجل. وفكرة «القوامة» أو «القيُومة» يوضحها حديث رسول الله ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتي قَوَّامة على أمر الله لا يضرُّها مَنْ خالفها، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» [رواه ابن ماجه عن أبي هريرة]. وحديثُه الآخر: «لاتزال من أمتي عَصَابَةُ قَوَّامة على أمر الله عزَّ وجل، لا يضرُّها مَنْ خالفها... تقاتل أعدائها ... حتى تأتيهم الساعة» [أخرجه البخاري في «التاريخ» وابن عساكر في «التاريخ» عن أبي هريرة بإسناد صحيح رجاله كلهم ثقات]. ومعنى قَوَّامة على أمر الله - بلا خلاف - أنها خادمةٌ لأمر الله، راعيةٌ

لأمر الله، ساهرةً على أمر الله. وهذا هو معنى أن الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ، أي إن عليهم وجوباً أن يعتنوا بهنَّ ويسهرنَّ على راحتهنَّ، ويكفُلوا لهنَّ كلّ ما يَحْتَجْنَ إليه ! لماذا ؟ لأن الله فضّل المرأة على الرجل بأنها تحمل وتلد، ولذلك فضّلها بأن جعل من واجب المجتمع أن يهيئ لها منذ أن تولد كل إمكانيات الصحة والعافية، من تغذية حسنة ورياضة حسنة وحياة طيّبة. وكلّ الأوضاع التي تخالف ذلك يجب أن تعتبر مرفوضة، ومن هذه الأوضاع المرفوضة أن يتم إكراهها ولو في وقت من أوقات حياتها على أن تعمل. فهي تعمل، بل من واجبها أن تعمل، حينما تجد أنها تستطيع أن تعمل.

فَاللَّهُ قَدْ شَرَّفَ الرِّجَالَ إِذَنْ، بَأَنْ جَعَلَهُمْ
قَوَّامِينَ عَلَى النِّسَاءِ، يَقُومُونَ بِرِعَايَتِهِنَّ
وِخْدَمَتِهِنَّ وَحِفْظَ حَقُوقِهِنَّ، وَيَكْفُونَهُنَّ
تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَشَاقِّهَا، كَمَا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ
ﷺ: «.. وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ..» [رواه مسلم عن جابر]. وَيَقُومُ
الرَّجُلُ عِنْدَ عَقْدِ الزَّوْاجِ بِتَقْدِيمِ بَادِرَةِ
رَمْزِيَّةٍ إِلَى الْمَرْأَةِ تَسْمَى «الْمَهْرَ»، تَعْبِيرًا
عَنْ تَعَهُدِهِ بِهَذِهِ الْقَوَامَةِ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾
[النساء: 4]، فَالْمَهْرُ: صَدُقَةٌ أَيْ مَصْدَاقٌ لِهَذَا
التَّعَهُدِ، وَهُوَ لِلْمَرْأَةِ خَالِصًا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ
الضَّمِيرُ « هِنَّ »، وَهُوَ نِحْلَةٌ، وَالنِّحْلَةُ:
الْعَطِيَّةُ بِلَا مَقَابِلٍ. وَلِلزَّوْجَةِ أَنْ تُتَاقَضَ هَذِهِ
الْبَادِرَةُ الرَّمْزِيَّةُ بِبَادِرَةِ رَمْزِيَّةٍ مُعَاكِسَةٍ إِذَا
كَرِهَتْ زَوْجَهَا فِي مَا بَعْدَ، فَتَرُدُّ عَلَيْهِ مَالَهُ
بِمَا يُسَمَّى «الْخُلْعَ»، تَعْبِيرًا عَنْ إِعْفَائِهَا إِيَّاهُ

من مسؤولية القوامة، وعُزُوفها عن قبول رعايته وقوامته. قال الإمام ابن رشد: «فإنه لما جُعِلَ الطلاق بيد الرجل إذا فَرِكَ [أبغض] المرأة، جُعِلَ الخُلْعُ بيد المرأة إذا فَرَكْتَ الرجل» [بداية المجتهد؛ ج: 2، ص: 50].

ثم إن ربنا لم يقل في الآية: ((الأزواج قَوَّامون على الزوجات))، بل قال: ﴿الرجال قَوَّامون على النساء﴾. فالمرأة إذا لم تكن ذات زوج، فأخرون من الرجال مسؤولون عنها: كالأخ.. والأب.. إلخ، أي هي مسؤولية، على الجنس المذكر في الأسرة أن ينهض بها، فإن لم يَكُنْ، فالجنس المذكر في المجتمع ككل، مسؤول عن تلبية احتياجاتها. فَمِنْ أَجْلِ أَنَّ الله سبحانه وتعالى فَضَّلَ المرأةَ خِلْفَةً بهذا الدور المهم وهو توليدُ الحياة وصناعة

المستقبل، في حين أن الرجل كثيراً ما يقوم بالقضاء

على الحياة بما يشئُه من حروب، وهو لا يصنع المستقبل وإنما يصنع الحاضر، وصناعةُ المستقبل في نظر الإسلام أهمُّ بكثير من صناعة الحاضر.. من أجل ذلك - والله أعلم - جعل الله سبحانه وتعالى الرجل مُرَاعِيّاً للمرأة قَوَّاماً عليها خادماً لها ساهراً على راحتها، حتى يضمن لها كلّ الظروف التي تمكّنها من صناعة المستقبل على أحسن وجهٍ وأكملِه.

*

المثال السادس:

من المقرّر في علم الأصول، أن الكلام إن دلَّ على معنى لا يحتمل غيره، فهو المسمّى «نصاً» كقوله تعالى: ﴿تلك عشرةٌ كاملةٌ﴾.

فإذا كان يحتمل مَعْنَيَيْنِ أو أكثر، فهو « الْمُتَشَابِه »، وهذا لا يخلو من حالتين: إما أن يكون أَظْهَرَ في أحد الاحتمالَيْنِ من الآخر، وإما أن يتساوى بينهما.

فإذا كان الاحتمال يتساوى بينهما فهذا الذي يسمّى في الاصطلاح « الْمُجْمَل »؛ كما لو قلت: « عَدَا اللصوص على عين زيد »، فإنه يَحْتَمِلُ أن تكون عينه الباصرة عَوَّرَوها [العين = عضو البصر]، أو عينه الجارية غَوَّرَوها [العين = يَنْبوع الماء]، أو عين ذهبه وفضّته سرقوها [العين = النقود]، فلا بُدَّ من دليلٍ واضحٍ يجعل اللفظ « مُحْكَمًا » لأن الإحكام هو التمييز والتحديد الذي به يتميّز عن غيره حتى لا يشتبه به، ورفُعَ ما يُتَوَهَّمُ فيه من المعنى الذي ليس بمرادٍ فيه.

أما إذا كان أظهرَ في أحد الاحتمالين فهو المسمّى « الظاهر » ومقابله يسمّى محتملاً مرجوحاً.

ونحن نتلو في سورة آل عمران [7]: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ: مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ! وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

ولفظه « التأويل » من المتشابه، إذ فيها اشتراك بين ما عناه القرآن، وبين ما كان يُطلقه طوائف من السلف، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين.

فالتأويل في عُرْف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثّة والمتصوّفة

ونحوهم هو: صَرَفُ اللفظ عن المعنى
الرَّاجِح إلى المعنى المرجوح لدليلٍ يقترن
به.

والتأويل في عُرْف بعض السَّلَف معناه
تفسيرُ الكلام وبيانُ معناه، والإمام الطبري
يقول دائماً في تفسيره: القولُ في تأويل
قوله تعالى... ومراؤه التفسير.

أما التأويل في لغة القرآن التي نزل
بها فهو «التحقيق». فقوله: ﴿بَنَيْنَا بَتَاوِيلَهُ﴾
[يوسف: 36] [أي: كيف سَيَتَحَقَّقُ أو يَقَع]؛ وقوله:
﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ [أي: تَحَقُّقُهَا]: قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100]؛ وقوله:
﴿هَلْ يَنْظُرُونَ [أي: يَنْتَظِرُونَ] إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ
يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [أي: يَوْمَ يَتَحَقَّقُ] [الأعراف: 53]؛
وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ
وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: 39] [أي: لَمَّا
يَتَحَقَّقُ] ... من قولهم: آلَ يُوُولُ إلى كذا أي

صار إليه، ومنه المآل وهو ما يؤول إليه
الشيء أي ما يصير إليه.

ولم تَرِدْ لفظة التأويل في القرآن الكريم
إلا بهذا المعنى، فلا يجوز استخدام معنى
التأويل المُبْتَدَع كما هو في عُرْف
المتأخرين، في تفسير كلام الله عز وجل،
وإلا كان ذلك افتراءً عليه.

*

المثال السابع:

قوله تعالى: ﴿وإن تُبْدُوا ما في أنفسكم
أو تُخْفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن
يشاء، ويعذب من يشاء، والله على كل
شيء قدير﴾ [البقرة: 284]. قد ثبت في
صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: لما
أنزل الله هذه الآية، اشتد ذلك على
أصحاب النبي ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم

بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، وقالوا: أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ
 ۞ ! كُفِّنا من العمل ما نطيق: الصلاة،
 والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد نزلت
 عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول
 الله ﷺ: « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل
 الكتابين من قبلكم: سمعنا وعَصَيْنَا؟ قولوا:
 سمعنا وأطعنا؛ غفرانَكَ رَبَّنَا وإِليك
 المصير » فَلَمَّا قرأها القوم وذَلَّتْ بها
 ألسنتهم أنزل الله في أثرها: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ
 بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ؛ كُلٌّ آمَنَ
 بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نَفَرَقَ بَيْنَ
 أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وقالوا: سمعنا وأطعنا؛
 غفرانَكَ رَبَّنَا وإِليك المصير﴾. فَلَمَّا فعلوا
 ذلك نَسَخَهَا اللهُ فَأَنْزَلَ: ﴿لَا يَكْفِي اللهُ نَفْساً
 إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
 اكْتَسَبَتْ. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ
 أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً [أي:

أمرأً يثقل علينا] كما حَمَلَتْهُ على الذين من قبلنا، ربَّنَا ولا تحمِلُنَا ما لا طاقة لنا به، واعفُ عَنَّا، واغفر لنا، وارحمنا .. أنتَ مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴿ .. فكلَّمَا قالوا ذلك قال الله عزَّ وجل: « قد فعلت ! قد فعلت ! ».

ولهذا قال كثير من السَّلَف والخَلَف: إِنَّ آية ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا﴾ منسوخة بقوله: ﴿لَا يَكْفِي اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. « وفصلُ الخطاب – كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – أن لفظ « النَّسْخ » مُجْمَل، فالسَّلَف كانوا يستعملونه في [نفي] ما يُظَنُّ دلالة الآية عليه .. فينسخ فهمه هذا كما ينسخ الله ما يُلقى الشيطان، ويُحْكَم الله آياته؛ وإن لم يكن نَسْخَ [أي: ألغى أو أبطل] ما أنزله، بل نَسْخَ ما ألقاه الشيطان، مِنْ فهم معنى لا تدلُّ الآية عليه ولكنه محتمل. وهذه الآية

من هذا الباب، فإن قوله: ﴿وإن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يُحاسبكم...﴾، إنما تدلُّ على أن الله يحاسب بما في النفوس لا على أنه يُعاقب على كل ما في النفوس. والصحابة إنّما خافوا مما توهموه من ذلك، فقالوا: لا طاقة لنا بهذا، فإنه إن كلفنا ما لا نطيق عدّنا. فنسخ الله هذا الظن، وبيّن أنّه لا يكلف نفساً إلا وسعها، فبيّن بذلك بطلان ظنّ هؤلاء الذين يقولون إنّهم يكلف العبد ما لا يطيقه، ويعدّبه عليه ... لأنّ الوسع هو ما دون الطاقة والمجهود، فهو ميسور له دون ضيق ولا حرج، وهو مقدور عليه مُستطاع (*) ... والطاقة هي ما يطيق المرء القيام به على تجشّم ومشقّة ولكنه في مقدوره على كل حال.

فالمُرَاد بالنسخ إدنّ إبطال الظن الخاطئ لا إلغاء حكم الآية. وبابُ النَّسخ هذا باب

واسع، دخل على الأمة منه حَرَجٌ كبير،
فلا تكاد تسمع إلا أنَّ هذه الآية منسوخة،
بل هذه الآيات الكثيرة نَسَخَتْهَا آية
مزعومة يُقال لها « آية السيف ». مع أن
لفظة « السيف » لم تَرِدْ في القرآن الكريم
قَطَّ !!

المثال الثامن:

ذهب قوم إلى تحريم أشياء على سبيل
الاحتياط، ومخافة أن يُتَذَرَعَ منها إلى
الحرام البحت، واحتجُّوا في ذلك بما رواه
مسلم عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول
الله ﷺ يقول: « إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَالْحَرَامِ
بَيْنَ،

(*) والاستطاعة هي ما لا يحصل معه للقاء به ضرر
راجح كاستطاعة الصيام والقيام، فإن حَصَلَ له ضرر
به لم يكن مستطيعاً، كَأَن يَزِيدَ المَرَضُ أو يُؤَخَّرَ البُرْءُ.

وبينهما مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ
النَّاسِ. فَمَنْ اتَّقَى الشَّبَهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ
وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي
يُرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ.
أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنْ حِمَى اللَّهِ
مَحَارِمُهُ».

وفي رواية للبخاري عن النعمان بن
بشير قال النبي ﷺ: « الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ
بَيْنٌ وَبَيْنُهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ [أي: مُتَلَبِّسَةٌ]،
فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ كَانَ لِمَا
اسْتَبَانَ أَثَرَكَ، وَمَنْ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشْكُ
فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ.
وَالْمَعَاصِي حِمَى اللَّهِ: مَنْ يَزْتَعِ حَوْلَ
الْحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ ». وفي رواية
عنه: « إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنٌ، وَإِنَّ
بَيْنَ ذَلِكَ أُمُوراً مُشْتَبِهَاتٌ ». وسأضرب

لكم في ذلك مثلاً: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ حَمَى
حِمَى، وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَا حَرَّمَ، وَإِنَّهُ مَنْ
يَزْعُ حَوْلَ الْحِمَى يوشك أن يَزْتَغَ فيه،
وَإِنَّهُ مَنْ يُخَالِطُ الرِّيَّةَ يوشك أن يَجْسُرَ
[يتجاسر]. وفي رواية أخرى عنه: « اجعلوا
بينكم وبين الحرام سترة من الحلال: مَنْ
فعل ذلك استبرأ لدينه وعرضه، ومن أَرْتَغَ
فيه كان كالمُرْتَغِ إِلَى جنب الحمى »
[أخرجه ابن حبان في « صحيحه » والديلمي عن
النعمان بن بشير بإسناد جيد].

فهذا نصٌ جَلِيٌّ - كما يقول الإمام ابن حزم -
على أَنَّ مَا حَوْلَ الْحِمَى ليس من الْحِمَى،
وَأَنَّ تِلْكَ الْمُشْتَبِهَاتُ ليست - بيقين - من
الحرام، وإذا لم تكن مما فُصِّلَ من الحرام
فهي على حكم الحلال لقوله تعالى: ﴿وقد
فُصِّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 119].
فَمَا لَمْ يُفَصَّلْ تَحْرِيمُهُ فهو حلال، لقوله

تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ [البقرة: 29]، وما خَلَقَهُ لَنَا فَقَدْ أَحَلَّهُ وَأَبَاحَهُ لَنَا. فدعوة النبي ﷺ إلى تَرْكِ الْمُشْتَبِهَاتِ، إِنَّمَا هو حَظٌّ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْوَرَعِ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، أَنَّ هَذَا الْوَرَعَ إِنَّمَا هو مُسْتَحَبٌّ لِلْمَرْءِ فِي مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ خَاصَّةً، وَأَنَّ حُكْمَ مَنْ اسْتَبَانَ لَهُ الْأَمْرَ إِنَّمَا هو بِخِلَافِ ذَلِكَ.

كَذَلِكَ بَيَّنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الْمَخُوفَ عَلَى مَنْ وَقَعَ الشُّبُهَاتُ، إِنَّمَا هو أَنَّ يَتَجَاسَرَ بَعْدَهَا عَلَى الْحَرَامِ، فَصَحَّ بِهَذَا الْبَيَانِ أَنَّ مَعْنَى «وَقَعَ فِي الْحَرَامِ»: هُوَ كُلُّ فِعْلٍ أَدَّى إِلَى أَنْ يَكُونَ فَاعِلُهُ مُتَيَقِّناً أَنَّهُ رَاكِبٌ حَرَامٍ فِي حَالَتِهِ تِلْكَ. وَأَمَّا مَا يُوقِنُ تَحْلِيلَهُ فَلَا يُزِيلُهُ الشُّكُّ عَنْ ذَلِكَ. وَلَفْظَةُ «أَوْشَكَ» فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ تَوْضِيحٌ

المُرَاد. فَالْحِمَى - كما يقول ابنُ حزم - هو الحرام، وما حَوْلَ الْحِمَى ليس من الْحِمَى، والمُشْتَبِهَاتُ ليست من الحرام، وما لم يكن حراماً فهو حلال، وهذا في غاية البيان، وهذا هو الْوَرَع الذي يُحْمَدُ فاعله وَيُؤَجَّرُ، ولا يُدَمَّ تاركه ولا يَأْثَمُ، ما لم يُوَاقِعِ الحرامَ الْبَيِّنَ.

ومن حَرَّمَ الْمُشْتَبِهَ وأَفْتَى بِذَلِكَ وحكم به على الناس، فقد زادَ في الدين ما لم يأذن به الله تعالى، وخالف النبي ﷺ، واستدرك على ربِّه تعالى بعقله أشياء من الشريعة. وقوله ﷺ إِذْ سَأَلَهُ أَصْحَابُهُ ﷺ، فقالوا: إِنَّ أَعْرَاباً حَدِيثِي عَهْدَ بِالْكَفْرِ يَأْتُونَنَا بِذَبَائِحَ لَا نَدْرِي أَسَمَّوْا اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا أَمْ لَا ؟ فقال عليه السلام: «سَمُّوا اللَّهَ أَنْتُمْ وَكُلُوا»، يرفع الإشكال جملةً في هذا الباب.

ولا يحلُّ لأحد أن يحتاط في الدين
 بتحريم ما لم يحرم الله تعالى، لأنَّه يكون
 حينئذ مفترياً في الدين، والله تعالى أخوَطُ
 علينا من بعضنا على بعض، فالفرضُ
 علينا أن لا نحرم إلا ما حرم الله تعالى
 ونصَّ على اسمه وصفته بتحريمه،
 وفرضُ علينا أن نبيح ما وراء ذلك، بنصِّه
 تعالى على إباحة ما في الأرض لنا إلا ما
 نصَّ على تحريمه، وأن لا نزيد في الدين
 شيئاً لم يأذن به الله تعالى، فمن فعل غير
 هذا فقد عصى الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ.

والفَيْصَلُ في ذلك كُلِّه قولُ الله تعالى:
 ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا
 حلال وهذا حرام لتفتروا على الله
 الكذب﴾ [النحل: 116]، وقوله تعالى: ﴿قل
 رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم
 منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على

الله تفترون﴾ [يونس: 59]. فصَحَّ بهاتَيْنِ
الآيتين أَنَّ كُلَّ مَنْ حَلَّلَ أَوْ حَرَّمَ مَا لَمْ يَأْتِ
إِذْنٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَحْرِيمِهِ أَوْ تَحْلِيلِهِ
فَقَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ
مَنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحَلَّ لَنَا كُلَّ مَا خَلَقَ
فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَا فَصَّلَ لَنَا تَحْرِيمَهُ
بِالنَّصِّ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ
فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾. فَبَطَلَ بِهِذَيْنِ
النَّصَّيْنِ الْجَائِيَيْنِ أَنَّ يَحَرِّمُ أَحَدٌ شَيْئاً
بِاحْتِيَاظٍ أَوْ خَوْفٍ تَذَرُّعٍ.

وَأَيْضاً فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ مَنْ تَوَهَّمَ
أَنَّهُ أَحْدَثَ، أَنْ لَا يَلْتَفِتَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَنْ
يَتِمَادَى فِي صَلَاتِهِ وَعَلَى حُكْمِ طَهَارَتِهِ،
حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتاً أَوْ يَشْمَ رائحةً، هَذَا فِي
الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَوْكَدُ الشَّرَائِعِ. فَلَوْ كَانَ
الْحُكْمُ بِالْإِحْتِيَاظِ حَقّاً، لَكَانَتِ الصَّلَاةُ أَوْلَى

ما احتيطَ لها؛ ولكنَّ الله تعالى لم يجعل
لغير اليقين حكماً.

يحبُّهم ويحبُّونه

وبعد، فما هي علاقة المسلم (ذكراً كان
أم أنثى) بالله عزَّ وجل، كما يبيِّنها القرآن؟

سنقول على الفور إن علاقتنا به سبحانه
هي علاقة العبادة. فنحن نتلو في كتاب الله
قوله عزَّ وجل: ﴿وما خلقت الجن
والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: 56]. ولكننا
في كثير من الأحيان لا نستوعب آفاق
العبادة الرحبة، ونمسخ هذه الصلة
العظمى إلى طائفة من الأعمال كثيراً ما
تكون فارغة من المعنى. وما هكذا ينبغي
أن يعامل الإنسانُ ربَّه الذي هو قريبٌ منه
دائماً غايةً القرب: ﴿ونحن أقرب إليه من

حبل الوريد ﴿ق: 16﴾، والذي يتابعه في كل خطوة من خطواته وفي كل حين من أحيانه بالرعاية والحفظ: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه: يحفظونه﴾ [الرعد: 11]، ﴿وَيُرْسَلْ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ﴾ [الأنعام: 61]، ﴿يَكَلُّوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنبياء: 42]، ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4].
 واقرأ إن شئت سورة النحل - وهي سورة النِّعَم - لتشهد بعض مشاهد رحمة الله بعبده وإنعامه عليه. فعلاقة العبادة كما يعرفها الإمام ابن تيمية رحمه الله [في «رسالة العبودية» وفي غيرها]، ينبغي أن تتضمن غاية الحب لله مع غاية التذلل له. وهذا ما تدل عليه مادة «ع ب د» في لسان العرب. تقول العرب: «طريق مُعَبَّد» إذا كان مذللاً، وتقول: «تَيْمُّ الله» أي عَبْدُ الله، لأن التَّيْمَ هو أعلى درجات الحب.

ويخطئ كثير من المسلمين حين يَغفُلون
عن جانب الحب هذا من جوانب العبادة،
ويكادون يحصرّون العبادة بالخضوع
وحده، مع أن المرء يمكن أن يخضع
لكثيرين دون أن يكون عابداً لهم. والحق
أن العبادة إذا خَلَّتْ من الحب الصادق
الخالص للمعبود جَلَّ جلاله، فإنها تفقد
روحها وقوامها.

*

وعلاقة الحب هذه، علاقةٌ متبادلة بين
الله وبين أحبّابه، وهو يُباهي بهم العالمين:
﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه﴾
[المائدة: 54]، ﴿رضي الله عنهم ورضوا
عنه﴾ [المجادلة: 22، البينة: 8] . وفي
الحديث [الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس]:
«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ
يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا،

وَأَنْ يَحِبَّ الْمَرْءَ لَا يَحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ يَكْرَهُ
 أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ،
 كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ». وَفِي الْحَدِيثِ
 [الَّذِي رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَغَوِيُّ فِي « شَرْحِ السَّنَةِ »]
 بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ بِمَجْمُوعِ طَرَقِهِ: « أَوْثَقُ عُرَى
 الْإِيمَانِ: الْمَوَالَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْمَعَادَاةُ فِي اللَّهِ،
 وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ ». وَفِي
 الْحَدِيثِ [الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ] «
 أَنْ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: «مَتَى السَّاعَةُ يَا
 رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَعَدَدْتُ لَهَا؟» قَالَ:
 «مَا أَعَدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرٍ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ
 وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أَحَبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ:
 «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ!». وَفِي الْحَدِيثِ
 [الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ]: «الْمَرْءُ
 مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَنْتَ مَعَ
 مَنْ أَحَبَبْتَ، وَلَكَ مَا اخْتَسَبْتَ» [رَوَاهُ عَبْدُ
 الرَّزَّاقِ فِي «الْمَصْنَفِ» وَعَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ

« بإسناد صحيح].. بل إنه سبحانه يُضفي على أحبائه هؤلاء حبَّ الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]، وفي الحديث [الذي رواه البخاري عن أبي هريرة]: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ ! فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي جَبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ ! فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ». وفي حديث آخر [رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري]: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ! فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟

فيقول: **أَحْلٌ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**». وفي حديث ثالث [رواه البخاري عن أبي هريرة]: «ما يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأَعِذَنَّهُ».

وعلاقة الحبِّ هذه التي لا يُؤْلِيها بعض الناس ما تستحقه من أولوية، فيحرمون أنفسهم من فضلٍ من الله كبير... هذه العلاقة محبوبة لله عزَّ وجلَّ، إذ بها يتجلى اسمٌ من أسمائه الحسنَى وهو **الْوَدُودُ**. والله سبحانه إنما علَّمنا هذه الأسماء الحسنَى لندعوه بها، و«الدعاء هو العبادة» [رواه أبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير بإسناد صحيح]، ولكنَّ لاسم **الْوَدُودُ** من بينها

ميزة خاصة، لأن هذا الاسم الكريم يتجلى
 في شبكة من الحب والمودة، تربط
 المؤمنين بعضهم ببعض، وتربط كلاً منهم
 بخالقه في الوقت نفسه، كما يُسبغ الله
 عليهم في مقابل ذلك من حبه ومودّته، ما
 يجعلهم رافلين دائماً في حُلّ هذا الحب
 العظيم. واقرأ إن شئت قول النبي ﷺ [في
 الحديث القدسي الذي رواه الإمام مالك في ((الموطأ))
 بإسناد صحيح]: «قال الله تعالى: وَجَبَتْ
 محبّتي للمتحابّين فيَّ»، وقوله [في الحديث
 القدسي الذي رواه الترمذي عن معاذ بإسناد
 صحيح]: «قال الله عزّ وجل: المتحابّون في
 جلالِي لهم منابر من نور، يَغْبِطُهم النّبِيُّونَ
 والشّهداء»؛ أو اقرأ قوله ﷺ [الذي رواه
 البخاري في ((الأدب المفرد)) بإسناد صحيح]: «ما
 تَحَابَّ رجلان في الله، إلّا كان أحبّهما إلى
 الله عزّ وجلّ أشدّهما حبّاً لصاحبه»؛
 وقوله [الذي رواه الإمام مسلم وغيره عن أبي

هريرة]: «والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا؛ أولاً أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم!». وفي اعتقادنا أن إفشاء السلام المذكور في الحديث، لا يقتصر على التسليم والتحيّة، وإن يكن ذلك عاملاً مهماً من عوامل التحابّ، حتى ورد في السنة الحضّ على إلقاء السلام على من يعرف المرء ومن لا يعرف [متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص]، ولكننا نعتقد أن الإفشاء في هذا الحديث ينسحب على السلام الاجتماعي بجميع وجوهه وصوره، وينطبق على كل ما يزيد في التحابّ والتوادّ بين أفراد المجتمع وينأى بهم عن البغضاء والشحناء. ومن ذلك [ما ورد في الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير]: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛

إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر
 الجسد بالسهر والحمى». ومن ذلك قول
 النبي ﷺ [في الحديث المتفق عليه عن أنس]: « لا
 يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب
 لنفسه ». ومثله: قوله [في الحديث الذي رواه
 الترمذي عن أبي هريرة]: « ... وأحب للناس
 ما تحب لنفسك تكن مسلماً ... »؛ وقوله: «
 وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى
 إليه » [رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو]. ومن
 ذلك في ما يزيد المحبة [حديث المقدم بن
 معدي كرب الذي أخرجه أبو داود والترمذي
 بإسناد صحيح]، أن رسول الله ﷺ قال: « إذا
 أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه ». ومن
 ذلك حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله
 يوم لا ظل إلا ظله ومنهم « رجال تحابوا
 في الله: اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه » [متفق
 عليه عن أبي هريرة]. ومن ذلك قوله ﷺ: « ما
 تحاب رجلان في الله، إلا كان أحبهما إلى

الله عزَّ وجلَّ أشدُّهما حبًّا لصاحبه » [أخرجه
 البخاري في «الأدب المفرد» والحاكم وصححه،
 ووافقه الذهبي]. ومن ذلك في ما ينأى عن
 البغضاء والشحناء، الحديث الجامع [الذي
 رواه مسلم عن أبي هريرة] أن رسول الله ﷺ
 قال: «إياكم والظن فإن الظنَّ أكذب
 الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا
 تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا
 تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما
 أمركم! المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا
 يخذله، ولا يحقره! التقوى هاهنا، التقوى
 هاهنا - ويشير إلى صدره - بحسب امرئ
 من الشر أن يحقر أخاه المسلم! كلُّ المسلم
 على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله!
 إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى
 صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم
 ». ومن ذلك الحديث المتفق عليه [عن ابن
 عمر]: «من كان في حاجة أخيه كان الله في

حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كُرْبَةً من
كُرْب الدنيا، فرَّج الله عنه بها كُرْبَةً من
كُرْب يوم القيامة، ومن سَتَرَ مسلماً سَتْرَهُ
الله يوم القيامة».

*

وخيرُ ما نختم به هذا الفصل، ما وَصَفَ
به النبي ﷺ القرآن الكريم [في ما رواه
الترمذي]: «فيه نَبَأُ ما كان قبلكُم، وخَبَرُ ما
بَعْدَكُم، وحُكْمُ ما بينكُم. هو الفَصْلُ ليس
بالهَزْل، مَنْ تركه مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ،
ومَنْ ابتغى العدل في غيره أضلَّه اللهُ.
وهو حَبْلُ اللهِ المتين، وهو الذِّكْرُ الحكيم،
وهو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيع
به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا
يشبع منه العلماء، ولا يَخْلُق [أي: لا يَبْلَى]
على كثرة الردّ [= التَّرداد]، ولا تنقضي [أي:
لا تنتهي] عجائبه.. هو الذي لم تَنْتَهِ الجنُّ

إِذْ سَمِعْتَهُ حَتَّى قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قِرْآنًا عَجَبًا
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ! مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ
عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَّمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ
دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «.
وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

*

2 النبي

ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن مهام النبي ﷺ [في سورة آل عمران: 164] بقوله: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم: (1) يتلو عليهم آياته، و(2) يزكيهم، و(3) يعلمهم: (3-أ) الكتاب و(3-ب) الحكمة﴾. [ومثل ذلك في سورة الجمعة: 2]. كما بيّنها في سورة الأحزاب [46] بقوله: ﴿يا أيها النبيّ إنّنا أرسلناك: (1) شاهداً، و (2) مبشّراً، و (3) نذيراً، و (4) داعياً إلى الله بإذنه، و (5) سراجاً منيراً [أي مصدر إشعاع]﴾.

ولو شاء الله لأنزل كُتُبَهُ على الناس
دونَ ما واسطة، لو كانت غايةً ما في
الأمر أن يَصِلَ مضمونها إلى الناس.
ولكنه سبحانه - وله الحمدُ والمِنَّةُ -
شاء أن يكون تبليغُها على رُسُل، لا
يقتصرُ عملُهم على تلاوة آيات الله،
ولكنهم فوق ذلك يَعْلَمُونَ الناسَ الكتابَ،
وهو الصُّحُف المنزلة بحرفيّتها من عنده،
ويعْلَمُونَ الناسَ الحكمةَ، وهي الوحي
الذي يعبرُ عنه الرُّسُل بعباراتهم هم،
استكمالاً لتعليم الكتاب وشرحاً لتعاليمه،
وَيُزَكُّونَ الناسَ، أي يَعْلَمُونَهُم الخُلُقَ
العظيم، بأن يصير كلُّ من هؤلاء الرُّسُل
كتاباً يُعَاشُ، وآياتٍ تنبعث فيها الحياة،
وسلوكةً يُقْتَدَى به ويُؤْتَسَى ويُؤْتَمَّ، وبذلك
يكون الرُّسُل شُهَدَاءَ على الناس، لأن أهمَّ
معاني الشَّاهد في لسان العرب أنه «العالمُ

الذي يبيّن ما علّمه ويظهره بقوله وفعله»،
فهو النموذج أو المعيار الذي يُسعى إلى
بلوغه ويُقاس على صفاته. ثم يكون أتباع
الرُّسل شُهَدَاء على سائر البشر، ﴿بما
استُخْفِظُوا

من كتاب الله﴾ من جهة، ﴿و[بأنهم] كانوا
عليه شهداء﴾ [المائدة: 44] يطبّقونه التطبيق
العمليّ الأمثل من جهة أخرى: ﴿هو [أي:
الله عزّ وجلّ] سمّاكم المسلمين من قَبْلُ [في
كُتُبِه السابقة] وفي هذا [القرآن]، ليكون
الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على
الناس﴾ [الحج: 78].

وما كان محمّدٌ عليه صلوات الله
وسلامه بدّعاً [أي: غير مسبوق] من الرُّسل،
بل كانت التزكية والتعليم – أو كما نقول
اليوم التربية والتعليم – مَعْلَمَيْنِ بارزَيْنِ
في كل مناحي حياته الشريفة، وهو لا

يَضِنَّ بهما على أحد، ولا يستثنى من عباد الله أحداً، ولا يقصُرهما على فئة معيّنة أو عمر معيّن، ولكنه ينتظم بهما حياة المسلمين كلّها منذ طفولتهم. وكثيراً ما نسمع في حديثه صلوات الله وسلامه عليه عبارات تبدأ بقوله: «عَلِّمُوا أولادكم» أو بقوله: «يا بُنَيَّ»، أو بقوله: «يا غلام»، أو بقوله: «يا معشر الشباب». ثم نسمعه ﷺ يحمّل أصحابه وسائر المسلمين أمانة القيام بتعليم العالمين حتى يَرِثَ الله الأرضَ وَمَنْ عَلَيْها، فيقول: «عَلِّمُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا» [رواه البخاري في «الأدب المفرد»]، وأحمد، عن ابن عباس؛ ويقول، كأنما يَرِثُوا ببصره الثاقب إلى أجيال الإنسانية كلها، يخاطبها من خلال جيل المؤمنين المحتشدين بين يديه: «نَضَرَ الله أَمْرَاءَ

سمع منا شيئاً، فبلغه كما سمعه، فربّ مبلغ أوعى من سامع» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح]، ويقول: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت، ليصلّون على معلّمي الناس الخير» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن]. بل لقد وصّى ﷺ أصحابه بقوله: «سيأتيكم ناسٌ من أقطار الأرض يتفقّهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً، وعلموهم مما علّمكم الله عزّ وجلّ» [رواه ابن ماجه والطيالسي وصحّحه الحاكم والذهبي].

حُجِّيَّةُ الْوَحْيِ غَيْرِ الْمَتْلُوِّ

ذكرنا أن للوحي غير المتلوّ [أي: السُّنَّة] حُجِّيَّةً كَحُجِّيَّةِ الْقُرْآنِ، وسوف نستدلّ على ذلك بعدة أدلّة من القرآن الكريم، أورد بعضها أخونا العلامة الشيخ تقي العثماني،

في كتاب له نفيس عن حجية السنة. ولقد يلفت النظر أن هذه الأدلة التي سنأتي بها، كلّها في السُّور المدنية، إذ في السور المكية كان التركيز كله على القرآن الكريم، أما أهمية الوحي غير المثلّوّ فقد بدأ التركيز عليها في المدينة.

الدليل الأول:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: 143]: كان المسلمون يصلُّون باتجاه بيت المقدس، وهاجروا إلى المدينة وهم يصلُّون باتجاه بيت المقدس. ويبدو أن النبي ﷺ كان يشترك إلى أن يصليَ إلى الكعبة، التي كان يصلي إليها أبوه إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ ومن أجل ذلك كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس حينما كان في

مكة، فيجمع بذلك بين الحُسْنَيْنِ. وفي المدينة وفي شهر شعبان بالذات، أنزل الله سبحانه وتعالى أمره بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة البيت الحرام، ولَبَّى بذلك أشواق سيدنا رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144]. ففي الآية الأولى يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا [يعني القبلة إلى بيت المقدس] إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾. وهنا نلاحظ ملاحظتين؛ الأولى: أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾، أي ينسب الجعلَ إلى ذاته الكريمة. ولكننا لا نجد في القرآن أن الله سبحانه وتعالى قد جعل

القبلة إلى بيت المقدس. ومع ذلك ينسب الله سبحانه وتعالى هذا الوحيَ غيرَ المَتلوّ إلى نفسه فيقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾، ويجعل له حُجَّةَ الوحي المَتلوّ نفسه. أما الملاحظة الثانية فتلفت نظرنا أيضاً في نهاية الآية: ﴿جَعَلْنَا القبلة التي كنت عليها﴾ لماذا؟.. ﴿لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرسولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾. يعني حينما تغيرت هذه القبلة بـ «مرسوم» إلهي إن صحَّ التعبير، هو جزءٌ من الوحي المَتلوّ، تعديلاً لـ «مرسوم» إلهي سابق هو جزء من الوحي غير المَتلوّ.. كان هذا اختباراً ليعلم الله من يتَّبِعَ الرسولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ. وهذا دليلٌ آخر على أهمية الوحي غير المَتلوّ ومكانته. لأن الله سبحانه وتعالى قد عدَّ اتِّبَاعَ الرسول دليلاً على كَوْنِ الإنسان مستمسكاً

بإسلامه، وَعَدَمَ اتِّبَاعِهِ دَلِيلًا عَلَى انْقِلَابِهِ
عَلَى عَقْبِيهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

*

الدليل الثاني:

يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الصوم
في رمضان فيقول: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ
الرَّفَقْتُ﴾ [أي: العلاقة الجنسية] إِلَى نِسَائِكُمْ: هُنَّ
لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ! عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ
كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنْكُمْ؛ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وَقَدْ كَانَ الْحُكْمُ أَوَّلَ مَا
فُرضَ الصِّيَامُ، أَنَّهُ إِذَا نَامَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ
الْإِفْطَارِ وَلَوْ فَتْرَةً قَصِيرَةً، لَا يَجُوزُ لَهُ
بَعْدَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ أَنْ يَجَامَعَ زَوْجَهُ حَتَّى
إِفْطَارِ الْغَدِ. وَقَدْ اسْتَصْعَبَ النَّاسُ ذَلِكَ،
وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ يَخَالِفُونَ هَذَا الْأَمْرَ بِالرَّغْمِ
مِنْهُمْ، وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

وتعالى: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ
 أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾. فالتوبة
 والعفو إنما يكونان عند المعصية، ويعني
 ذلك أن هؤلاء الصحابة ارتكبوا معصية
 عندما اختانوا أنفسهم وخالفوا أمر الله.
 فأين نجد أَمَرَ الله بالامتناع عن المقاربة
 الجنسية بعد أن ينام الإنسان نوماً قليلاً؟
 إِنَّا لَا نَجِدُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ومع ذلك
 عَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الْأَمْرَ غَيْرَ الْمَثْلِيِّ أَمْرًا
 مِنْهُ عِزٌّ وَجَلٌّ، وَجَعَلَ لَهُ حُجَّةً كَحُجَّةِ
 الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لِأَنَّهُ جَعَلَ عَصِيَانَهُ أَمْرًا
 يَنْبَغِي أَنْ يُتَابَ مِنْهُ وَأَنْ يُسْتَغْفَرَ عَلَيْهِ.
 وَلِذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَوَّلِ
 الْآيَةِ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى
 نِسَائِكُمْ﴾ وفي آخرها: ﴿فَالآنَ
 بَاشِرُوهُمْ﴾، وهما عبارتان تمثِّلان نصَّ «
 الْقَرَارِ» الإلهي الجديد الذي صَدَرَ

بتغيير « القرار » الإلهي السابق، غير المتلَوِّ في القرآن، وكِلَا « القرارَيْن » من عند الله عز وجل، لكنَّ أحدهما متلَوٌّ وهو هذا « القرار » الجديد، في حين أنَّ « القرارَ » السابق غير متلَوٍّ لكنه واجبُ التنفيذ، وقد نفَّذه جميع المسلمين، لأنهم عَدُّوا ما قاله النبي ﷺ وحيّاً من الله عز وجل ولو لم يصبح قرآناً يُتلى. وقوله عز وجل: ﴿تَخْتَانُونَ﴾ يدلُّ بوضوح على نوع من المخالفة لأمر ربّاني صدرَ من قبل.

*

الدليل الثالث:

في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ؛ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالاً﴾ [أي: ماشين على أرجلكم] أو رُكباناً [أي: راكبين]؛ أي إن

الإنسان يصلي على هذا الشكل [أي ماشياً أو راكباً] إذا كان في حالة خوف... ﴿فإذا أمِنتُمْ فاذكروا الله كما علَّمكم﴾ [البقرة: 238-239]. هذه الآية أيضاً آية مهمة جداً، ونجد فيها عدداً من المعاني بمجرد أن نحاول التعرف على لغة القرآن الكريم.

فأولاً يؤكد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ما ذكره النبي ﷺ لأصحابه من أن هنالك عدة صلوات، في حين أننا نجد في غير هذا الموضع من القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿أقيموا الصلاة﴾ [البقرة: 43]، و﴿المقيمي الصلاة﴾ [الحج: 35] وهكذا... تُذَكَّرُ الصلاة دائماً بصيغة المفرد. ولكنّها وردت هنا بصيغة الجمع: ﴿حافظوا على الصلوات﴾، تأكيداً لما

ذكره النبي ﷺ من قَبْلُ في الوحي غير
المتلّو، من أن هنالك عدة صلوات.

الملاحظة الثانية:

ما هي الصلاة الوسطى؟ النبي ﷺ هو
الذي سبّغَها لنا، لأن الله سبحانه وتعالى
لم يُبَيِّنْها لنا في ما نَزَّلَه إلينا في القرآن
الكريم، وقد قال الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ:
﴿لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44].

المَلَحَظُ الثالثُ قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا
أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾. ومن
الواضح أن ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ هنا معناها:
صَلُّوا، لأن الصلاة هي ذكرُ الله الواردُ
في هذه الآية؛ و﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾ تعني: «
كما علّمكم الله» لأنه أقرب مذكور. فأين علّمنا
الله سبحانه وتعالى – في القرآن الكريم -

كيف نصلي؟ إنّه عزّ وجلّ لم يعلمنا إياه في وحي متلّو، ولكنّه علّمنا إياه في وحي غير متلّو، هو ذلك الذي أتى به النبي ﷺ وبينَ للناس كيف يُصلُّون بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» [رواه البخاري عن مالك بن الحويرث]. وقد نَسَبَ الله سبحانه وتعالى هذا التعليم بالوحي غير المَتَلُّو إلى نفسه. وهو - سبحانه - إذا كان لم يعلمنا في الوحي المَتَلُّو الذي هو القرآن الكريم كيف نصلي، فإنّما علّمنا ذلك في الوحي غير المَتَلُّو الذي هو حديث رسول الله ﷺ بسنّته عليه الصلاة والسلام.

*

الدليل الرابع:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمَخْلَفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: 15]. فحينما ذهب النبي ﷺ

إلى الحديدية، هذا الذهب الذي أطلق الله سبحانه وتعالى عليه اسم الفتح، والذي جاءت به سورة الفتح [1]: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾، تخلف بعض الناس عن مرافقة النبي ﷺ، وهم عددٌ من المنافقين وأشباه المنافقين. ثم توجه النبي ﷺ بعد الفتح إلى خيبر، فاعتقد هؤلاء المتخلفون أن في خيبر مغانم كثيرة، فقرروا أن يتبعوا النبي ﷺ ليكون لهم نصيب منها. فمنعهم الله عز وجل بقوله: ﴿يريدون أن يبدّلوا كلام الله، قل: لن تتبعونا! كذلك قال الله من قبل﴾ [الفتح: 15]. فأين قال الله من قبل إنهم لن يتبعوا المؤمنين؟ إنه عز وجل لم يقله في الوحي المتلو إذ ليس في القرآن نصٌ بذلك، وإنما قاله في الوحي غير المتلو، الذي أوحى به سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ، وبلغه النبي ﷺ للمسلمين؛

ولذلك عَدَّ الله سبحانه محاولتهم التحايلَ
على هذا الحَظَرِ محاولةً لتبديل كلام الله،
والمُرَادُ به كلام الله غيرُ المتلَوِّ.

*

الدليل الخامس:

من غزوة بني النَّضِيرِ. وقد كان بنو
النَّضِيرِ يتمرّدون دائماً كلما سَنَحَتْ لهم
الفرصة، وظنّوا أنهم يستطيعون أن
ينتقموا من النبي ﷺ والمسلمين. ففي
غزوة بني النَّضِيرِ كان من جملة الضغوط
التي مُورِسَتْ عليهم أن قُطِعَ نخْلهم. ومن
المعلوم أنه لا يجوز في الإسلام قَطْعُ
الأشجار ولا قَتْلُ الحيوانات دون مبرّر.
ولكن، في هذه الحالة بالذات، كان
المسلمون هم الذين قطعوا النخل، وهذا
طبعاً يحتاج إلى استثناء، لأن القاعدة

الرِّبَّانِيَّةُ تَنْصُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِهْلَاكُ
 الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ؛ فَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مَنْ
 ﴿إِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا
 وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [أي: النبات
 والحيوان] [البقرة: 205]. وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى يَقُولُ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ مُتَحَدِّثًا عَنْ
 هَذِهِ الْغَزْوَةِ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ [وَاللِّينَةُ
 هِيَ شَجَرَةُ النَّخْلِ] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى
 أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 5]. فَأَيْنَ إِذْنُ اللَّهِ
 فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَقْطَعِ هَذَا النَّخْلِ وَقَطْعِهِ
 الْمُسْلِمُونَ بِنَاءً عَلَيْهِ؟ إِنَّا لَا نَجِدُهُ فِي
 الْوَحْيِ الْمَتْلُوءِ، بَلْ هُوَ إِذْنٌ جَاءَ عَلَى لِسَانِ
 النَّبِيِّ ﷺ فِي الْوَحْيِ غَيْرِ الْمَتْلُوءِ، وَنَفَّذَهُ
 الْمُسْلِمُونَ لِأَنَّهُمْ عَدُوهُ - بِحَقِّ - أَمْرًا مِنْ
 اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَجَاءَ الْقُرْآنُ مَذْكَرًا بِذَلِكَ
 وَمُؤَكِّدًا لَهُ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا

قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى
أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ.

*

الدليل السادس:

ما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة
الأنفال متحدّثاً عن معركة بدر. ونحن
نعرف أن المسلمين كانوا قد قرّروا أن
يُغِيرُوا على قافلة قريش، لأن قريشاً سَبَقَ
لها أن صادَرتْ معظم أموالهم، فلم يجدوا
حَرَجاً في الإغارة على هذه القافلة
ليستَرِدُّوا ما يكافئ أموالهم التي اغتصَبَتْها
قريشٌ من قبل. هذه كانت الغاية في
الأصل، لكن بعد ذلك تغيّر الموضوع،
لأن القضية تحوّلت من مصادرة قافلة إلى
معركة. فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة
الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ
أَنهَا لَكُمْ [أَيْ] إِمَّا الْقَافِلَةُ، وَإِمَّا الْحَمْلَةُ الَّتِي جَاءَتْ

لحماية القافلة]، وتوَدُّون أن غيرَ ذات الشوكة [أي: أنَّ القافلة] تكون لكم ، ويريد الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماته ويقطَعَ دابرَ الكافرين ﴿ [الأنفال: 7] . فأين نجد في القرآن أن الله سبحانه وتعالى وَعَدَ المؤمنين قبل المعركة بأن إحدى الطائفتين لهم ؟ لا نجد ذلك في الوحي المتلَوَّ أبداً، وإنما جاء هذا الوعد في وحي غير مَنلَوٍّ، أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ، فبلَّغ النبي ﷺ المسلمين بأن إحدى الطائفتين لهم.

*

الدليل السابع:

في بدر أيضاً: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [أي: قليلون] ﴿ [آل عمران: 123] ، وهذا ما يَمُنُّ الله سبحانه وتعالى به على عباده المؤمنين. وفي هذه الآيات: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ: أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ

بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين؟ بلى إن
 تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا
 يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة
 مسومين ... وما جعله الله إلا بُشْرَى لَكُمْ ﴿
 [آل عمران: 124-126]. وهذا نصٌّ على أن
 الله سبحانه وتعالى قد بشر المؤمنين
 بالنصر بإمدادهم بهذه الملائكة. فأين نجد
 في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد
 بشر المؤمنين قبل المعركة بأنه سيُمدُّهم
 بالملائكة نصراً لهم؟ إنه - عز وجل -
 لم يبشِّرهم به في وحي متلوٍّ ولكنه بشرهم
 به في وحي غير متلوٍّ، نزل على النبي ﷺ
 وصدّقه المسلمون، ثم أعاد الله سبحانه
 وتعالى التذكير به وتأكيده في هذه الآيات:
 ﴿وما جعله الله إلا بُشْرَى لَكُمْ﴾. فهذه
 البُشْرَى هي بُشْرَى من الله عز وجل لهم،
 وإن لم ترُد في الوحي المتلوّ.

الدليل الثامن:

من سورة التحريم. ففي إحدى المناسبات كان للنبي ﷺ حديثٌ خاص بينه وبين إحدى نسائه من أمهاتنا عليهن رضوان الله، فلم تستطع أن تحفظ هذا السر وإنما أفشته لغيرها: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا؛ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ [أَي: أذاعته] وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ [أَي: أَطْلَعَهُ عَلَى إِفْشَائِهِ] عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ؛ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا؟ قَالَ: نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3]. ولكن، أين أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وأَيْنَ نَبَّأَهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ به في القرآن الكريم؟ إِنَّا لَا نَجِدُ أَثْرًا لِهَذَا الْإِظْهَارِ أَوْ الْإِنْبَاءِ فِي الْوَحْيِ الْمَتْلُو وَإِنَّمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَنَبَّأَهُ بِهِ فِي وَحْيٍ غَيْرِ مَتْلُو.

*

الدليل التاسع:

في سورة الأحزاب؛ قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، التي زوّجها النبي ﷺ من مولاه زيد بن حارثة، ولكن كان لله إرادة أخرى، وهي أن يطلقها زيدٌ ﷺ فيتزوّجها النبي ﷺ، حتى يستأصل عادة جاهلية كانت تُعدُّ المتنبّي كالولد تماماً، ومن أجل ذلك لا يجوز لمولاه أن يتزوّج زوجته بعد أن يطلقها. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يستأصل هذه العادة بمثال عملي على يد رسوله ﷺ، لأنَّ فِعْلَ النبي صلوات الله وسلامه عليه، هو وحده الذي يمكن أن يُفلح في استئصال هذه الأعراف المتجذّرة (*).

فالقرارات الحرجة المصيرية تحتاج إلى أن يفعلها النبي ﷺ بنفسه ليقْتدي به

الناس. ومن هذه القرارات هذا القرار المتعلّق بالتبني. فالله سبحانه وتعالى بعد أن طلق زيد بن حارثة السيدة زينب، أطلع نبيه ﷺ على أنّه سيزوّجه إياها. فتحرّج النبي ﷺ من ذلك وتردّد كثيراً، وكان يتمنى أن لا يحدث ذلك، وهذا معنى قول الله سبحانه وتعالى لنبيّه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾

(*) مثلما حدّث في الحديبية بعد توقيع الاتفاقية بين النبي ﷺ وبين قريش، إذ أمر النبي ﷺ الناس أن ينحروا ويحلّقوا ويحلّوا من إحرامهم. ولكن الناس لم تطاوعهم أنفسهم. فعاد النبي ﷺ إلى خيمته منزعجاً، فسألته أمّنا السيدة أم سلمة رضي الله عنها عن ما حصل، فذكر لها ما لقِيَ من الناس، فقالت: يا رسول الله اذهب إلى هذيك فانحره، وادعُ حالك فليخلق لك، ففعل. فلما رأوا ذلك قاموا فاحرقوا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً [رواه النسائي عن المسور بن مخرمة بسند صحيح].

[الأحزاب: 37]، أي تُخفي في نفسك أنك لا تريد أن تتزوجها تَحْرُجاً من المجتمع، ولكن الله سبحانه وتعالى قرّر أن يُبدي ذلك الذي أصرّ النبي ﷺ على إخفائه. ولنقرأ الآيات التي نزلت في هذا الشأن. يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ [يعني سيدنا زيد بن حارثة ﷺ]: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ [أي: راجع زوجتك] وَاتَّقِ اللَّهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى النَّاسَ [أي: تخشى ما سوف يقول الناس] وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ.. فلما قضى زيدٌ منها وطراً **زَوَّجْنَاكَهَا**﴾، فأين نجد في القرآن قبل هذه الآيات أن الله عز وجل زوّجه إياها؟ وأين نجد في القرآن قبل هذه الآيات أن الله قال له أو أعلمه بأنه سوف يزوّجه إياها؟ هذا كله كان في الوحي غير المتلو ﴿لكي لا يكون على

المؤمنين حرجٌ في أزواج أَدْعِيائِهِمْ ﴿
[الأحزاب: 37].

*

الدليل العاشر:

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ: (1) الْكِتَابَ وَ(2) الْحِكْمَةَ﴾ [سورة النساء: 113]. ويقول سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ (1) الْكِتَابِ، وَ (2) الْحِكْمَةِ، يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: 231]. فالله سبحانه وتعالى إذن يذكر لنا أنه قد أنزل على النبي ﷺ شيئين، فَصَلَ بينهما بواو العطف، التي تميّز دائماً بين شيئين مستقلّين؛ فالمعنى: أنزل الله عليك الكتاب، وأنزل الله عليك الحكمة. فما هي هذه الحكمة التي أنزلها الله عز وجل وهي شيءٌ غير الكتاب؟ هذا نجد بيانه في قول الله عز وجل لنساء النبي ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ

ما يُتلى في بيوتكن من (1) آيات الله و(2) **الحكمة** [الأحزاب: 34]. فما الذي كان يُتلى في بيوت النبي ﷺ إلى جانب آيات الله؟ إنه ما كان يتحدث به النبي ﷺ ولا شيء غيره. فحديث النبي ﷺ إذن هو بنص القرآن هذه الحكمة التي أنزلها الله: ﴿وأنزل الله عليك: (1) الكتاب و(2) الحكمة﴾. وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل هذا الوحي غير المتلّو في القرآن على نبيه ﷺ كما أنزل القرآن، وأن هذا الحديث النبوي هو - كالقرآن الكريم - من عند الله عز وجل، وله حُجّة كحُجّة الوحي المتلّو، وله نفس السلطان على قلوب المسلمين. وهذا - بالمناسبة - ليس خاصاً بسيدنا محمد وحده، فقد ﴿أخذ الله ميثاق النبيين: لَمَا

آتيتكم من (1) كتاب و (2) حكمة ... ﴿آل عمران: 81﴾.

*

الدليل الحادي عشر:

نجده في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 222]، أي في المكان الذي أمركم الله أن تأتوهن فيه. فأين نجد في القرآن الكريم أمر الله بتحديد مكان الجماعة؟ إننا لا نجد! ولكن الله سبحانه يذكر في هذه الآية أنه حدّد هذا المكان. ويعني ذلك أنه حدّد وأمر به في وحي غير متلوّ، وأشار إليه الله عزّ وجل هنا على أنه أمرٌ منه سبحانه.

*

الدليل الثاني عشر:

في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا! لَنْ
نُؤْمِنَ لَكُمْ! قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾
[التوبة: 94]، ولكننا لا نجد في القرآن الكريم
ذكراً لأخبار هؤلاء المنافقين قبل نزول
هذه الآيات، مما يدل على أن الله سبحانه
قد نبأ المؤمنين بطرف من أخبارهم في
الوحي غير المتلّو، على لسان نبيه عليه
الصلاة والسلام.

*

الدليل الثالث عشر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: 103]، فأين
بيّن الله سبحانه مواقيت الصلاة في القرآن
الكريم؟ إنه عزّ وجلّ لم يفعل ذلك في
وحي متلّو، وإنما في وحي غير متلّو،
بلّغه جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، ولقّنه

النبي صلوات الله عليه لأصحابه قولاً
وعملاً.

*

وبعد، فقد بدأنا بهذه الأدلة وغيرها كثير
في القرآن الكريم، ولم نبدأ بما هو
معروف ومشهور من أن الله سبحانه
وتعالى يأمر في كثير من آياته بطاعة الله
والرسول واتباع الله والرسول، وإنما
أردنا بذلك أن نلفت النظر إلى أن الله عزَّ
وجلَّ قد نصَّ نصاً صريحاً في كثير من
آيات القرآن على وجود هذا الوحي غير
المتلوّ، وإلى أن الله تعالى ينسب هذا
الوحي غير المتلوّ إلى ذاته العليّة
سبحانه، ويجعل له حجّة كحجّة الوحي
القرآني سواء بسواء.

*

طاعة الرسول

قضية التلازم في الطاعة والاتباع بين الله والرسول قضية مهمة جداً، نلحظها في كثير من آيات الله عز وجل. إذ نجد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ [آل عمران: 32 و132]، وفي خمسة مواضع: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ [النساء: 59، المائدة: 92، النور: 54، محمد: 33، التغابن: 12]، وفي أربعة مواضع: ﴿أطيعوا الله ورسوله﴾ [الأنفال: 1، 20، 46 المجادلة: 13]، وفي أربعة مواضع: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ [النساء: 13، النور: 52، الأحزاب: 71، الفتح: 17]، وفي موضع واحد: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ [النساء: 69]، ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.. ويطيعون الله ورسوله﴾ [التوبة: 71]،

﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم﴾ [أي لا ينقصكم] من أعمالكم شيئاً﴾ [الحجرات: 14]،
﴿يا لَيْتَنَا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرُّسُولَا﴾ [الأحزاب: 66]، ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول﴾ [الأنفال: 24]، ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ [آل عمران: 172].

ويبين ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾ [النساء: 64]. فكلُّ رسول أرسله الله سبحانه وتعالى إذنٌ لكي يُطاع: لا من قبل هؤلاء الذين كانوا معاصرين له فَحَسَبَ، وإنما يجب أن يُطاع من قبل جميع البشر الذين تبلغهم رسالته حتى تأتي رسالة أخرى. ولما كانت رسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخاتمة، فإنها باقية إلى أبد الدهر؛ ولما كان صلوات الله وسلامه عليه قد أرسل إلى الناس كافةً: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً

للناس ﴿[سبأ: 28]، فَإِنَّ طَاعَتَهُ وَاجِبَةٌ عَلَى
النَّاسِ كَافَّةً، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ حَتَّى
يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، بَلْ عَلَى
الْعَالَمِينَ كَافَّةً فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، لِأَنَّ
اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا قَالَ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي نَزَّلَهُ
وَتَعَاهَدَ بِحِفْظِهِ، مَثَلُوهَا كَانَ أَمْ غَيْرَ مَثَلُوهَا:
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: 104،
ص: 87، التكويد: 27]؛ ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 52].

ثم إن الله سبحانه وتعالى لم يُرسل
رسولاً إلا لِيُطَاعَ، لِأَنَّهُ: ﴿مَنْ يُطِعِ
الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]،
وهذه نتيجة منطقية. وفي مقابل ذلك: ﴿مَنْ
يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: 14]،
والمعصية لله والرسول معاً تُذكر في
ثلاثة مواضع من القرآن [النساء: 14،

الأحزاب: 36، الجن: 23]، ومثلها: ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: 63].

ويلفتُ نظرنا دائماً هذا التلازم بين ذكر الله وذكر الرسول. ولو أننا نلاحظ في بعض المواضع أن الله سبحانه وتعالى قد أفرَدَ الرسول، كما في قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 56]. إذ لم يقل هنا أطيعوا الله والرسول. فنحن لا نجد في القرآن « أَطِيعُوا اللَّهَ » وحدها، بل دائماً أَطِيعُوا اللَّهَ مَعَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ. ولكن في هذه الآية نجد: أَطِيعُوا الرَّسُولَ وفي آية أخرى: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: 54] (أي: إن تطيعوا الرسول تهتدوا). وبالمقابل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء: 24].

[42]، وكذلك: ﴿ومن يُشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ [النساء: 115].

فقد وردت إِذَنْ بعضُ الآيات التي تُفردُ الرسول ﷺ بقضية الطاعة، ونفهم من ذلك منزلةَ هذا الوحي غير المتلوّ الذي نزل على النبي ﷺ، ونفهم من ذلك أن أوامر الرسول ﷺ يجب أن تُطاع في كل زمان ومكان. فحينما يقول الرسول: « صَلُّوا كما رأيتموني أصلي » [رواه البخاري عن مالك ابن الحويرث] ، أو « خذوا عني مناسككم » [رواه مسلم وأبو داود عن جابر]، فهذه أوامر يجب أن تُطاع، وتفصيل هذه الأوامر ينبغي أن تبقى محفوظة من جيل إلى جيل، لأنها تلزم جميع الناس إلى يوم القيامة.

وحين يحذّر الله عزّ وجل من مَغَبَّةٍ عدم الامتثال للرسول: ﴿يا أيها الذين آمنوا

أطيعوا الله ورسوله، ولا تَوَلَّوْا عنه [أي عن الرسول] وأنتم تسمعون ﴿[الأنفال: 20]، فإنه يوضح هذه المغبّة في موضع آخر من كتابه فيقول: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً! قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لؤاذاً [أي: مختلة]؛ فليحذر الذين يخالفون عن أمره [أي: عن أمر الرسول] أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذابٌ أليم﴾ [النور: 63].

أما حُكْمُ هذا الفعل المخالف لأمره عليه السلام فهو البُطلان، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»؛ وفي رواية للإمام أحمد عنها بإسناد صحيح على شرط الشيخين: «مَنْ صَنَعَ أَمْرًا عَلَى غَيْرِ أَمْرِنَا [أي على خلاف أمرنا] فهو مردود». وفي مثل ذلك يقول ﷺ: «من أطاعني دخل

الجنة ومن عصاني فقد أبى ! » [رواه البخاري عن أبي هريرة].

اتِّبَاعُ الرِّسُولِ

يَتَضَحُّ مِنَ الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ السَّابِقَةِ، أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِنَّمَا هِيَ مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ لَا تَرْكُ مُحَاكَاةِ الْفِعْلِ [كما يقول الإمام ابن حزم في الإحكام: 45/4]. فقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]. ليس معناه: « فافعلوا ما أفعل » وإنما معناه امتثال أمره فقط. أما ما فعله النبي ﷺ دون أن يأمر به، فإنما هو للاقتداء والتأسي فحسب، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، فإن فعله المسلم اقتداءً برسول الله ﷺ فقد أحسن، وإن لم يفعله – غير راغب عنه – فلا حرج عليه إن شاء الله، لأنه لو كان

التأسي واجباً لقال سبحانه: «لقد كان عليكم في رسول الله أسوة حسنة»، فلما قال: «لقد كان لكم»، دلّ على عدم الوجوب [الشوكاني في إرشاد الفحول: ص 37]. إذ لا يختلف أحد في أن أفعال النبي ﷺ ليست فرضاً عليه بمجردّها، ومن المُحال أن لا تكون فرضاً عليه وتكون فرضاً علينا [كما يقول الإمام ابن حزم].

ولكن، إذا كانت محبة الله عزّ وجلّ تتجلّى في اتّباع الرسول ﷺ. فكيف نتّبع الرسول إن لم تكن بين أيدينا الأحاديث الصحيحة التي تروي لنا ماذا كان يقول وماذا كان يفعل؟

إن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا يعني بذلك الذين آمنوا في المدينة في العهد النبوي فَحَسْبُ، وإنما

يعني الذين آمنوا في كل زمان وفي كل مكان حتى تقوم الساعة. فهو لاء الذين آمنوا بعد النبي ﷺ، كيف لهم أن يعرفوا ما أمرهم به النبي ﷺ حتى يطيعوه ويتبعوا أمره؟ لا بُدَّ أن تكون هذه السنّة موجودة بين أيديهم.

ثم إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن ﴿الذين يتَّبِعُونَ الرِّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ: يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157]. فالأشياء التي نصَّ القرآن الكريم، أي الوحي المتلو، على أنها حلال أو حرام، يُشير إليها قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

المنكر)، والمعروف هنا يدل على ما أحلّه الله عز وجل في كتابه أو أمر به، والمنكر هنا يدل على ما حرّمه الله عز وجل في كتابه أو نهى عنه(*) .

لكن الآية تصف النبيّ بعد ذلك بأنه ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، وذلك يعني أن النبي ﷺ له دور تشريعي، فهو ﷺ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وهو ﷺ يَحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ. وما كان صلوات الله عليه بالذي يُحِلُّ أو يَحَرِّمُ من تلقاء نفسه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءَ

(*) فإذا فعل أصحاب النبي ﷺ شيئاً، وبلغه فلم يستنكروه أو لم ينه عنه، فهذا دليل على أنه حلال، لأن الله وصفه بأنه ينهاهم عن المنكر.

نفسه) [يونس: 15]، وإنما تحليله وتحريمه نابع من وحي غير مثلّ، ينتمي كذلك إلى

كلمات الله بمعناها الشامل. ولذلك قال الله عز وجل بعد ذلك: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأَمِيّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ [أي اتَّبِعُوا هَذَا النَّبِيَّ] لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. والمهم في هذا السِّيَاق أمرُه سبحانه للناس بأن يؤمنوا بالله ورسوله، وأن يَتَّبِعُوا هَذَا النَّبِيَّ حتّى يكونوا مهتدين. فالتشريع تحليلاً وتحريماً هو إِذَنْ صفة من صفات النبي ﷺ وجزء من صلاحياته. وقد وَرَدَ أن عديّ بن حاتم سمع النبي ﷺ يقرأ الآية: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، فقال: يا رسول الله ما عبدناهم! قال: «أليس قد أحلُّوا لكم الحرام وحرَّموا عليكم الحلال فاتَّبِعْتُمُوهُمْ؟ قال: بلى، قال: فذلك عبادتكم لهم» [رواه الترمذي والطبراني في الكبير]. فالإِطاعةُ في التحريم والتحليل هي نوعٌ من العبادة، لأن

التحريم والتحليل هما من صلاحيات الله عز وجل. لكن نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فَوَّضَ النبي ﷺ بأن يُحِلَّ الطَّيِّبَاتِ ويَحَرِّمَ الْخَبَائِثَ، فأعطاه بذلك هذه الصفة التشريعية التي لم تُعْطَ لغيره من البشر. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36]. وقد وَضَّحَ ذلك النبي ﷺ [في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم عن المقدام بن معدي كرب، والدارمي في المقدمة]: «أَلَا وَإِنْ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ كَمَا [= كالذي] حَرَّمَ اللَّهُ».

تفصيل في الاتِّبَاعِ

وَاتَّبَاعُ النَّبِيِّ مذكور في مواضع كثيرة
من القرآن الكريم، كقوله سبحانه: ﴿لقد
تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار
الذين اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:
117]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ
و[حَسْبُ] مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:
64]، وقوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا
الرَّسُولَ فَاصْكُتْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:
53]. وهذا الكلام الأخير قاله الحواريون،
والرسول هنا هو سيدنا عيسى ﷺ. ويدلنا
ذلك على أنه في كل دين أنزل الله عز
وجل كان هناك وحي متلوّ وكان هنالك
اتِّباع للرسول. ففي قوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا
أَنزَلْتَ﴾: ما أنزل هو الوحي المتلوّ الذي
هو الإنجيل؛ وفي قوله: ﴿اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾
دليلٌ على أن اتِّباع الرسول أمرٌ مستقل

عن الإيمان بالوحي المتلو، ولكنه متمم ومكمل له.

ولهؤلاء الذين يتبعون الرُّسُل شأن كبير كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾ [آل عمران: 68]، وقوله عزّ وجل عن سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِي اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27]، وقوله سبحانه: ﴿نُجِبْ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرِّسْلَ﴾ [إبراهيم: 44]، وقوله: ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: 143] وقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي: أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، وقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ: اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: 20، 21]، وقوله رواية عن سيدنا هارون عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمْ

الرحمن فاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿طه: 90﴾. ولذلك فَإِنْ عَرَبَ الجاهلية قالوا مستكرين: ﴿أَبْشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ؟﴾ [القمر: 24]. فهؤلاء العرب لأنهم يعرفون هذه اللغة التي يتحدث بها النبي ﷺ، فهموا مباشرة أن النبي ﷺ حينما يدعوهم للإسلام فمعنى ذلك أنهم يجب أن يتَّبِعُوهُ، فقالوا: أَبْشَرًا.. مِنَّا.. وَاحِدًا.. نَتَّبِعُهُ!*

على أن بعض الناس يظنُّون أن النبي ﷺ إنما كان يفعل ويأمر بصفته رئيساً للدولة، وأن كل تعاليمه وأوامره كانت بهذه الصفة، أي إن كل هذه الأحاديث والسُّنَن ... كانت اجتهادات أو قرارات من رئيس الدولة، وهذه تتغيَّر بالطبع مع تغيُّر رئيس الدولة، لتغيُّر الزمان والمكان والإنسان والإمكان. لكنَّ الله سبحانه

وتعالى لا يترك مجالاً للالتباس، فهو بعد أن يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾، يقول: ﴿وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. ففي هذه الآية إذن طاعتان لسيدنا محمد ﷺ: طاعةٌ بصفته رسولاً، وطاعةٌ بصفته أولي الأمر(*) منكم. في حين وردت الأوامر والتعاليم المتعلقة بالتشريع كلها بصفة الرسول: «أطيعوا الله ورسوله»، «وعصوا الرسول»، «يشاقق الرسول».

(*) يشيع في كتب الفقه مصطلح «أولياء الأمر» أو «أولياء الأمور» ومفردُها «وليُّ الأمر». وهذا مصطلح مُبتَدَع لا نصادفه في نصوص القرآن أو السنَّة، وإنَّما نصادف «أولي الأمر» ومفردُها «ذو الأمر»، كما في الحديث الحسن الصحيح الذي أخرجه الترمذي وغيره عن أبي أمامة: «اتقوا الله ربَّكم، وصلُّوا حَمْسَكُم، وصوموا شهرَكم، وأثُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جَنَّةَ ربِّكم!».

فلم يُذكر صلوات الله عليه في مقام التشريع باسم محمد أو النبي، ولم يُذكر باسم رئيس الدولة أو أولي الأمر، وإنما أشير إليه دائماً باسم الرسول، بمعنى أنه مبلِّغ الرسالة، وهذه الرسالة مُرسَلَةٌ إلى العالمين من الله عز وجل، فكلُّ ما يبلِّغه الرسول عن ربِّه نفسُ الحُجِّيَّة، سواء كان متلوّاً بين دَفَّتَي القرآن الكريم أم لم يكن.

حِفْظُ الْوَحْيَيْنِ

خلاصة القول أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل على رسوله ﷺ نَوْعَيْنِ من الوحي: وحيّاً مَتْلُوّاً في القرآن، ووحياً غير مَتْلُوّ في القرآن الكريم، ولكنه وحيٌّ منه عز وجل، عبَّرَ عنه النبي ﷺ بألفاظه هو، وله نفس الحُجِّيَّة التي للوحي المتلوّ، لأن الله

سبحانه وتعالى كما رأينا في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قد نَسَبَ هذا الوحي غير المتلوِّ إلى نفسه، وعَاتَبَ أو عاقَبَ على مخالفته، فجعل له بذلك نفس الحِجَّة أو السلطان الذي هو للوحي المتلوِّ؛ ولأن الله سبحانه وتعالى قد أمر بطاعة الرسول واتباع الرسول. وهذا يستلزم أن يكون بين أيدينا كلُّ ما قاله النبي ﷺ، وكلُّ ما فعله حتى نتَّبِعَهُ، وهو يستلزم بالضرورة أن يكون هنالك حديثٌ وسُنَّةٌ محفوظان بحفظ الله، حتى يُطِيعَهُمَا المسلمون ويتَّبِعُوهُمَا إلى قيام الساعة، وكلُّ منهما جزءٌ لا يتجزأ من الذكر الذي أنزله الله جلَّ جلاله وتعهَّد بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

أما القرآن الكريم فقد قَيَّضَ الله له الحفظ
في السطور وفي الصدور: صدور
الملايين من البشر، يتلقَّونه ويحفظونه
جيلاً عن جيل، بلا زيادة ولا نقصان(*)
وأما حديث النبي ﷺ وسُنَّتُهُ، فقد

(*) يذكر بعض العوامَّ ((مُصَنَّفَ فاطمة)) رضي الله عنها
ويظنونه قرآناً آخر مخالفاً للكتاب العزيز. ولفظة ((
مُصَنَّف)) في اللسان الذي نزل به القرآن تعني جماعة
الصحف المضمومة أي الملفَّ أو الإضبارة، وقد
أطلقت على المصحف الشريف عندما جُمِعَتْ =

قَيَّضَ الله له من أجيال الحُقَاط وعلماء
الحديث مَنْ يُمَحِّصُونَ رُؤَاةَهُ ورواياته،
وَيَسْتَبْعِدُونَ منها كُلَّ حديث عُرِفَ عن أحد
رُؤَاة الكذب، أو التساهل في الرواية عن
غيره، أو إصابته بالنسيان أو ضعف
الذاكرة، أو عُرِفَ عنه التَّدْلِيس [أي إيهام
الناس بصحة حديثٍ ما وما هو بصحيح]، أو
عُوقِبَ بِدِّ الْقَدْفِ لَأَنَّهُ اتَّهَمَ أَحَدًا بِالزَّيْنِ

دون بَيِّنَةٍ كافية، ولم يَتُبْ بعد ذلك، لقوله تعالى عن أمثاله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: 4،5]. كما يستبعدون كلَّ حديث فُقِدَتْ حلقة من سلسلة رَوَاتِهِ فانقطع اتِّصاله بالنبي ﷺ.

= الصحف التي كُتِبَ عليها القرآن في كتاب ((ملف واحد.)) وليس عند الشيعة من يعتقد أن هناك قرآناً آخر يسمّى مصحف فاطمة. والروايات التي وردت عن مصحف فاطمة [أي ((الملف)) الذي يضم مجموعة الصُّحُف التي تركَّهها السيدة فاطمة]، تذكر أن في هذا المَلَف: وصية فاطمة رضي الله عنها، وبعض الأحكام الشرعية ... » [عن آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله في حوار خاص مع مجلة الأهرام العربي: العدد 520 - آذار/مارس 2007].

ومن الناس من يظنُّ أنَّ أحاديث رسول الله ﷺ لم يُكْتَبْ منها شيء في حياته صلوات الله عليه. ويردُّ هذا الظنَّ الحديث الذي رواه الدارمي والحاكم عن عبد الله بن عمرو،

قال: كنت أكتب كلَّ شيء سمعته من رسول الله ﷺ وأريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أكتب كلَّ شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بَشَر، يتكلم في الرِّضَى والغضب؟ قال: فأمسكت عن الكتاب [ة]؛ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: « اكتبْ! فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقٌّ؛ وأشار بيده إلى فمه ».

ومثله ما رواه أحمد والدرامي وابن أبي شيبة والحاكم، وصحَّحه، عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو ابن العاص، وسُئِلَ أيّ المدينتَين تُفَتِّح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حَلَق، قال: فأخرج منه كتاباً؛ قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سُئِلَ رسول الله ﷺ: أيّ المدينتَين تُفَتِّح أولاً؟ أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول

الله ﷺ: «مدينة هرقل تُفتح أولاً». يعني
قسطنطينية!

السُّنَّة

السُّنَّة في لسان العرب الذي نزل به
القرآن، تعني أول ما تعني: «التبيين». يقال: سنَّ الأمر سنّاً إذا بيّنه؛ وسنَّ الله أحكامه للناس: بيّنها؛ وسنَّ الله سُنَّةً: بيّن طريقاً قوياً [تاج العروس للزبيدي: مادة س ن ن]. وهذا هو الأصل في سُنَّة النبي ﷺ، فقد قال له ربُّه عزَّ وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: 44]، وقال له: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه﴾ [النحل: 64].

والسُّنَّة ثانياً تعني: القانون، كما في قوله تعالى - عن قوانينه الثابتة في الكون

والتاريخ -: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر: 43]؛ ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الفتح: 23]؛ ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ [الإسراء: 77].

والسُّنَّةُ ثالثاً هي: الطريقة؛ تقول العرب: سَنَّ الطريقة يسُنُّها سَنّاً: سارها، كما في قول خالد ابن عتبة الهذلي: * فأولُّ راضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُها *. وقال الأزهري: السُّنَّةُ: «الطريقة المحمودة المستقيمة».

والسُّنَّةُ من الله إذا أُطلقت في الشرع، فإنما يُراد بها حكمه وأمره ونهيه ممّا أَمَرَ به النبي ﷺ أو نهى عنه أو ندبَ إليه قولاً وفعلًا، مما لا ينطق به الكتاب العزيز [تاج العروس: س ن ن]. أو كما قال العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي في «الحديقة النَّدِيَّة شرح الطريقة المحمّدية»: «وسُنَّتُهُ ﷺ اسمٌ لأقواله وأفعاله واعتقاداته وأخلاقه،

وسكوته عند قول الغير أو [عند] فعله». فلفظ «السُّنَّة» يُطلق إذن على ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ مما لم يُنصَّ عليه في القرآن، سواء كان بياناً لما في القرآن أو لم يكن، أو قُل: هي ما دَلَّ عليه دليل من قوله ﷺ، أو فعله، أو تقريره. ولهذا جُعِلَتْ (السُّنَّة) مُقَابِلَةً للقرآن؛ وهي بهذا الاعتبار تُطْلَقُ على الواجب، كما تُطْلَقُ على المندوب [أي المُسْتَحَبَّ] [قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ص 146]، بل تُطْلَقُ على المشروعات على اختلاف أحكامها، من فرض أو واجب أو مندوب أو مباح.

أما (السُّنَّةُ) بالمعنى الاصطلاحي عند الفقهاء، بمعنى ما يُقَابِلُ الفرض أو الواجب فهو اصطلاحٌ فقهي حادث، ظهر وانتشر في القرن الثاني الهجري وما بعده، بعدَ عهدِ التابعين.

بُرْهَانُ ذَلِكَ: الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ ابْنُ نَصْرِ
فِي قِيَامِ اللَّيْلِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ
الْمَزْنِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرَبِ
رَكَعَتَيْنِ». ثُمَّ قَالَ فِي [الْمَرَّةِ] الثَّالِثَةِ: «لِمَنْ
شَاءَ» خَافَ أَنْ يَحْسِبَهَا النَّاسُ سُنَّةً (أَي: **وَاجِبًا**).

وَمِثْلُهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ
وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
صَلَّى بِمَنْىَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ [أَي: الْيَوْمَ الثَّامِنَ مِنْ
ذِي الْحِجَّةِ]: الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ
وَالْعِشَاءَ وَالْفَجَرَ، ثُمَّ غَدَا إِلَى عَرَفَةَ». **وَلَكِنْ ذَلِكَ لَيْسَ وَاجِبًا، لِلْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ**
مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «نُزُولُ الْأَبْطَحِ [وَهُوَ
الْمَوْضِعُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ بِمَنْىَ] لَيْسَ بِسُنَّةٍ
[أَي: لَيْسَ وَاجِبًا]، إِنَّمَا نَزَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
لَأَنَّهُ كَانَ أَسْمَحَ [أَي: أَسْهَلَ] لَخُرُوجِهِ إِذَا
خَرَجَ».

ولحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رجلان في سَفَرٍ، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيَمَّما صعيداً طيباً، فصلَّيا، ثم وَجَدَا الماء في الوقت؛ فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء، ولم يُعِد الآخر. ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يُعِد: «أَصَبْتَ السُّنَّةَ [أي الطريقة الشرعية] وأَجَزَأْتُكَ صَلَاتُكَ» وقال للذي توضأ وأعاد: «لَكَ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ» [رواه أبو داود والنسائي].

ولقوله ﷺ: «النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [رواه ابن ماجه عن عائشة وله شاهد صحيح]. وقوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...» [رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن جرير ابن عبد الله البجلي]. وقوله ﷺ: «إِنْ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيباً

ويرجع غريباً فطوبى للغرباء: الذين
يُصلحون ما أفسد الناس من بعدي من
سنّتي » [رواه الترمذي عن عمرو بن عوف وقال
حديث حسن صحيح].

ولحديث أبي موسى الأشعري قال: « إن
رسول الله ﷺ خطبنا، فبين لنا سنّتنا
وعلمنا صلاتنا ... » [رواه مسلم].

وقد قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري،
في (باب وجوب الصّفا والمروة)، تعليقاً
على قول أم المؤمنين عائشة: « سنّ رسول
الله ﷺ الطّواف [أي: السعي] بينهما [أي: بين
الصّفا والمروة] » [رواه البخاري] أي: قرّضه
بالسنّة .. ويؤيد ذلك قولها في صحيح مسلم:
« ولعمري ما أتمّ الله حجّ أحدكم ولا عمّرتّه
ما لم يطّف بينهما ». وقال الحافظ ابن
حجر بعد ذلك عقب حديث أنس في الرّهط
الثلاثة الذين قال لهم رسول الله ﷺ: « فَمَنْ

رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [رواه البخاري
ومسلم والنسائي عن أنس] قال: المُراد
بالسُّنة: الطريقة، لا التي تقابل الفرض.

الحديث النبوي

تَنَصَّرَفْ لَفْظَةَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ إِلَى مَا
حُدِّثَ بِهِ عَنْهُ ﷺ بَعْدَ النَّبُوءَةِ: مِنْ قَوْلِهِ
وَفَعَلِهِ وَإِقْرَارِهِ:

• (1) فما قاله: إِنْ كَانَ خَبِراً وَجَبَ
تَصْدِيقُهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ تَشْرِيعاً: إِجَاباً أَوْ
تَحْرِيماً أَوْ إِبَاحَةً وَجَبَ اتِّبَاعُهُ فِيهِ، لِقَوْلِهِ
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ
إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4]. وهذا هو
معنى النبوة: أَنَّ اللَّهَ يَنْبِئُهُ بِالْغَيْبِ، فَيَنْبِئُ
هُوَ ﷺ النَّاسَ بِهَذَا الْغَيْبِ، وَالرَّسُولُ مَأْمُورٌ

بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربّه [فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

• (2) وما فعله وأقرّه الله عليه: حُجَّة، لا سيّما إذا أمرنا أن نتّبعه كقوله ﷺ: «صَلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي» [رواه البخاري عن مالك ابن الحُوَيْرِث]، وقوله: «لتأخذوا عني مناسككم» [رواه مسلم عن جابر]. فقد صحّ عنه ﷺ مثلاً أنه: «كان يذكر الله على كلّ أحيانه» [رواه مسلم عن عائشة]، ففي هذا الحديث دلالة على جواز قراءة القرآن للجُنُب، لأن القرآن ذكّر: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ...﴾ [النحل: 44]، فيدخل في عموم قولها: «يذكرُ الله»، وفعله عليه الصلاة والسلام حُجَّة وسُنَّة تُتَّبَع.

• (3) وما أحلّه الله لنبيّه: حلالٌ للأمة، ما لم يَقم دليلٌ على التخصيص، كما في قول الله عزّ وجل: ﴿فلما قضَى زيدٌ منها

وطراً زَوْجَنَّاكها، لكي لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنَّ وطراً ﴿[الأحزاب: 37]﴾؛ في حين أن الله لما أحلَّ له الموهوبة قال: ﴿وامرأة مؤمنةٌ إِنْ وَهَبْتُ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50].

ولهذا كان النبي ﷺ إذا سُئِلَ عن الفعل يذكر للسائل أحياناً أنه يفعله ليبين أنه مباح. وكان إذا قيل له: قد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، قال: «إني أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»، أي: ما دمتُ فعلته دون قيدٍ ولا شرطٍ فافعلوه إن شئتم، لأنني ما كنت لأفعله لو لم يكن مباحاً لي ولكم. ومن ذلك مثلاً ما ذكره من منافع بعض الأدوية، إذ يُفهم منه

إباحة ذلك الدواء، لا إيجابه ولا استحبابه
ولا حتى النصح بالتداوي به.

• (4) ومما يدخل في مسمى حديثه
وسنّته كذلك: ما كان يُقرُّهم عليه مما
فعلوه بحضرة ﷺ أو ذكروه له. ومثاله ما
رواه البخاري في (باب مَنْ رَكَعَ رَكَعَيْنِ عِنْدَ
الْقَتْلِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، مِنْ قِصَّةِ قَتْلِ
الْمُشْرِكِينَ لِلصَّاحِبِ الْجَلِيلِ خُبَيْبِ بْنِ
عَدِيِّ الْأَوْسِيِّ، وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «
فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ [مَنْ] سَنَّ الرُّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ
أَمْرٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا [أَي: قُتِلَ وَهُوَ مُقَيَّدٌ]».
قَالَ الْعَلَامَةُ الْقَسْطَلَانِيُّ فِي "إِرْشَادِ السَّارِي": «
وَإِنَّمَا صَارَ فِعْلُ خُبَيْبٍ سُنَّةً، لِأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ
فِي حَيَاةِ الشَّارِعِ ﷺ وَاسْتَحْسَنَهُ».

أفعال النبي

قسّم الأصوليون فعل النبي ﷺ إلى ستة أقسام:

(1) ما هو جَبَلِيّ؛ أي ما فَعَلَهُ بحكم فِطْرَتِهِ وَجَبَلَتَهُ وطبيعته، كالقيام والقعود والأكل والشرب. ولا خلاف في كونه على الإباحة بالنسبة إليه ﷺ، وبالنسبة إلى أمته كذلك [كما قال الأمدى].

(2) ما ليس جَبَلِيًّا وَلَكِنَّهُ من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد، كوجوب كلٍّ من صلاة الضحى والوتر والتهجّد بالليل عليه ﷺ، وكإباحة الوصال له في الصوم [أي مواصلة الصيام دون إفطار]، ونحو ذلك؛ وهذا لا اشتراك فيه بينه وبين أحدٍ من أمته.

(3) ما ليس جَبَلِيًّا وليس من خصائصه وَلَكِنَّهُ بيانٌ لَأَمَّتِهِ بصريح المقال؛ كما صَلَّى الظهر أربعاً، والمغرب ثلاثاً،

والصبح ركعتين، وقال: « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي » [رواه البخاري عن مالك بن الحويرث] بياناً لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 11].

(4) ما ليس جبلياً وليس من خصائصه ﷺ ولكنه بيانٌ لأُمَّته بِقَرَائِنِ الأحوال؛ كَتَيْمَمِهِ إِلَى الرُّسُغَيْنِ بياناً لليد المذكورة في قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: 43]. في حين أنها في الوضوء إلى المَرَافِقِ.

(5) ما ليس جبلياً وليس من خصائصه وليس بياناً لأُمَّته وَلَكِنَّهُ لِلتَّأْسِي والاقْتِدَاءِ؛ فَحُكْمُ أُمَّتِهِ كَحُكْمِهِ مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: 37]. ولولا أَنَّهُ مُتَأَسَّى بِهِ فِي فَعْلِهِ لَمَا أَدَّى تَرْوِيجَهُ ﷺ

إلى مثل ذلك في حق المؤمنين، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم مجمعين على التأسّي بأفعاله ﷺ، كتأسيهم به في تقبيل الحجر الأسود، وتقبيله امرأته وهو صائم.

(6) ما ليس جلياً، وليس من خصائصه ﷺ وليس بياناً لأُمَّته، ولم يُقصد به التأسّي والاقتداء. فمن المعلوم أن فعله عليه الصلاة والسلام لا يكون حراماً ولا مكروهاً، بل يكون واجباً أو مُستحباً أو مباحاً. والأصلُ عدم الوجوب والاستحباب، لأن رفع الحرج عن الفعل والتّرك ثابت، وزيادة الوجوب والندب لا تثبت إلا بدليل، فيبقى الفعل على الإباحة. اللهم إلا إذا ظهر في فعله ﷺ قصدُ التقرب إلى الله عزّ وجل، فيُحمَل على الاستحباب، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:

[21]. فقد وَصَفَ الْأُسُوةَ بِالْحَسَنَةِ، وهذا يدلُّ على الرُّجْحَانِ، والوجوبُ غيرُ وارد لقوله ﴿لَكُمْ﴾ لا (عليكم) فتعيَّن الاستحباب.

دَرَجَاتُ الْحَدِيثِ

ذكرنا أن الله سبحانه قد قيَّضَ لحديث النبي ﷺ وسُنَّتَهُ، من أَجْيَالِ الْحُقَّاطِ وعلماء الحديث مَنْ يُمَحِّصُونَ رُؤَاةَ وروايَاتِهِ، فكيف يتمُّ ذلك؟

إنَّ أَوَّلَ مَا يَنْظُرُ فِيهِ عَالِمُ الْحَدِيثِ هُوَ السَّنَدُ، ونعني بالسَّنَدِ: سِلْسِلَةُ الرُّؤَاةِ، من آخِرِ رَاوٍ إِلَى الصَّحَابِيِّ الَّذِي رَوَى الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ هُوَ الْحَدِيثُ الْمُسْنَدُ الَّذِي اتَّصَلَ إِسْنَادُهُ [أي: سِلْسِلَةُ رُؤَاةِهِ] بِنَقْلِ الْعَدْلِ الضَّابِطِ عَنِ الْعَدْلِ الضَّابِطِ، حَتَّى

ينتهي إلى رسول الله ﷺ أو إلى منتهاه [أي: أعلى مروياً عنه] من صحابي أو مَنْ دونه، وسَلِمَ من أي شذوذ أو علة.

1- فالحديث الصحيح «مُسْنَدٌ» - وهو ما اتَّصَلَ إِسْنَادُهُ من راويه إلى مُنْتَهَاهُ - ولذلك يقال في وصفه أيضاً: إنه متصل أو موصول.

2- والحديث الصحيح سالم من الشذوذ والمُرَاد بالشذوذ: أن يروي الراوي الثِّقَّةَ حديثاً يخالف فيه مَنْ هو أوثق منه.

3- والحديث الصحيح سالم من العلة، والعلة: أَمْرٌ خَفِيٌّ، قد يكون في مَتْنِ الحديث أو في سنده، يقدر في صحة الحديث، وإن كان يبدو في الظاهر سليماً من العلل، ولا يكشفه إلا أهل البصيرة من نُقَّاد الحديث، كما يكشف الطبيبُ الحاذق

العلة الكامنة في بدنٍ ظاهره الصحة والسلامة.

4- رجال السند في الحديث الصحيح كلهم عُدُول ضابطون. فَإِنْ فُقِدَتْ فِي أَحَدِهِمْ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْعَدَالَةِ أَوْ الضَّبْطِ ضَعُفَ الْحَدِيثُ وَلَمْ يُصَحَّحْ.

والمقصودُ بضَبْطِ الراوي: سماعُهُ للرواية كما يجب، وفهمُهُ لها فهماً دقيقاً، وحفظُهُ لها حفظاً كاملاً لا تَرُدُّ فِيهِ، وثباتُهُ على هذا كله من وقت السماع إلى وقت الأداء. فيُلاحَظُ في شرط الضبط إذن قوة الذاكرة ودقة الملاحظة.

والمقصودُ بعدالة الراوي استقامتُهُ التامة في شؤون الدين، وسلامتُهُ من الفسق كله، وسلامتُهُ من خَوَارِمِ المروءة، وهي ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «مَنْ

عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلَمْهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ
يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ، فَهُوَ مَنْ
كَمُلَتْ مَرْوَعَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجَبَتْ
أُخُوَّتُهُ، وَحَرُمَتْ غَيْبَتُهُ».

أما صحابة رسول الله، فَهُمْ - في نظر
أهل السنة وجمهور المسلمين - كُلُّهُمْ
عُدُول، فقد عَدَلَ اللهُ تعالى الصحابة جميعاً
وزَكَاهُمْ وبَشَّرَهُم بِالْحُسْنَى [أي الجنة]، في
آيات كريمة مَتْلُوَّة إلى ما شاء الله، كقوله
تعالى مخاطباً إياهم: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ
أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ [أي فتح مكة] وَقَاتَلَ؛
أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ
وَقَاتَلُوا؛ وَكُلًّا [أي كل واحد من الصحابة] وَعَدَ
اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: 10]. كما عَدَّلَهُم
رسول الله ﷺ في أحاديث صحيحة

موفورة ومشهورة. ولعلماء الحديث
كتب جائلة في «معرفة الصحابة».

فإذا ثبتت الصحبة فلا كلام في
الصحابي(*)، إنما البحث عمّن دونه من
الرّواة، فلا بُدّ من معرفة كلّ واحدٍ منهم:
معرفة شخصه وعيّنه، ومعرفة حياته
وسيرته، وشيوخه وتلاميذه، وميلاده
ووفاته...

(*) إلا إذا كان قد حدّد حدّ القُنف [أي اتهم أحداً بالزّنى ولم
يأت بأربعة شهداء] ثم لم يثبت بعد ذلك، لقوله تعالى
عن أمثاله: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم
الفاسقون * إلا الذين تابوا﴾ [النور: 4 - 5].

وضعفُ حلقة واحدة من سلسلة
السّند، يجعل الحديث كلّهُ مردوداً، سواءً
كان هذا الضعف من جهة عدالة الرّاوي
أو أمانته، أم من ناحية حفظه وضبطه.

ولكي يكون الحديث في مرتبة
 (الصحيح) لابد أن يكون حفظ الراوي في
 درجة (ممتاز) أو (جيد جداً) بتعبير
 عصرنا.. فإذا نزل إلى درجة (جيد) أو
 (مقبول) فالحديث (حسن) فقط، والحديث
 الحسن معتبر لدى العلماء، ولكنه دون
 الصحيح، وهذا له أهمية عند التعارض
 [فتاوى معاصرة للدكتور يوسف القرضاوي:
 38/2].

ولابد أن يكون السند متصلاً (*) من مبدئه
 إلى منتهاه، أي أن يكون كل واحد من
 رواته قد سمع الحديث ممن فوقه حتى
 يصل إلى النبي ﷺ. فلو كان هناك حلقة
 مفقودة أو منقطعة في أول

(*) ويُقال له الموصول أيضاً.

السلسلة أو وسطها أو آخرها، فإن الحديث ينزل إلى درجة الضعف، فإذا كان هناك أكثر من حلقة مفقودة فإن الضعف يزداد.

ويُطلق اسمُ «المرفوع» على ما روي عن النبي ﷺ خاصةً، من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير، سواءً رواه عنه صحابي أم تابعي أم مَنْ دونه، وسواءً اتّصل إسناده أم لا. فإذا اتّصل إسناده من راويه إلى منتهاه مرفوعاً إلى النبي ﷺ خاصةً فهو «مُسْنَدٌ». وإذا رواه التابعي عن النبي ﷺ مباشرةً دون ذكر اسم الصحابي فهو «المُرْسَلُ» أي مرفوعٌ التابعي؛ وإنما سُمِّيَ مُرْسَلاً لأن راويه أرسله أي أطلقه فلم يقيده بالصحابي الذي تلقاه من رسول الله ﷺ. أما إذا سَقَطَ من إسناده الحديث أحد رَوَاتِهِ،

أو ذكر فيه راوٍ مُبهم، فهو «المنقطع». ولو أن الغالب استعماله في رواية مَنْ دون التابعي عن الصحابي. ويُطلق اسم «المُعْضَل» على الحديث الذي سقط من إسناده راويان فأكثر، بشرط التَّوَالِي. كما يُطلق اسمُ «المَقْطُوع» على ما جاء عن التابعي أو مَنْ دونه، مِنْ قولٍ أو فعل.

ويُطلق اسم «الموقوف» على المَرْوِي عن الصحابة من قول أو فعل أو تقرير، سواءً كان إسناده متَّصلاً إلى الصحابي أو منقطعاً.

والحديثُ الصحيح إما صحيحٌ لذاته، وهو ما اشتمل من صفات القَبُول على أعلاها [درجة جيد جداً أو ممتاز]، وإما صحيحٌ لغيره، وهو الذي لم يشتمل من صفات القَبُول على أعلاها [درجة جيد أو مقبول]

ولكنه ارتقى إلى مرتبة الصحيح بفضل أمرٍ خارج عنه، كأن يكون له شاهدٌ من درجته أو أكثر، أو يُروى من أكثر من وجه، فيرتقي بما أيَّده من درجة «الحسن» إلى درجة «الصحيح». وقُلْ مثل ذلك إذا وافق آيةٌ من كتاب الله تعالى أو تلقَّاه العلماء بالقبُول.

والصحيح لذاته أنواع. فمنه: «المتواتر» وهو ما رَوَاهُ جَمْعٌ من الرُّوَاةِ [أربعة فأكثر]، يُؤمِّنُ تَوَاطُؤُهُمْ على الكذب، عن جَمْعٍ مثلهم، في أول السند ووسطه وآخره. وينقسم المتواتر إلى لفظي ومعنوي، فالمتواتر اللفظي هو الذي رواه الجَمْعُ المذكور في أول السند ووسطه وآخره بلفظٍ واحد، وصورةٍ واحدة وهو نادرٌ جداً، بل لا يكاد يوجد.

أما المتواترُ المعنوي فمن الواضح أنه لا يُشترَط في روايته المطابقة اللفظية، وإنما يُكتفى فيه بأداء المعنى (ولو اختلف لفظ روايته)، عن الجَمْع الذين يُؤْمَنُ تَوَاطُؤُهُمْ على الكذب؛ وهو كثير جداً.

والحديثُ الصحيح يُسمَّى مشهوراً إذا اشتركت جماعة [اثنان فأكثر] في روايته عن الشيخ الثَّقة، ويُسمَّى غريباً إذا تفرّد بروايته واحدٌ ثَقَّة. وتكون غرابته في المتن تارةً وفي الإسناد أخرى.

مَتْنُ الْحَدِيثِ

ولقد يبدو من مَسْأَلِكِ علماء الحديث، أنهم رَكَّزُوا على السَّنَدِ [أي رُوَاةِ الحديث] أكثر من تركيزهم على المتن [أي نَصِّ الحديث]. وهذا غيرُ صحيح؛ فكثيراً ما تكلموا عن

المُتُون ورفضوها لمخالفتها لقَوَاطِعِ
القرآن، أو السنّة، أو العقل، أو الحس، أو
التاريخ، أو غير ذلك. وقد اعتبروا من
علامات وَضْع الحديث [أي كذبه أو اختلاقه]،
أَمْوَرًا تَتَعَلَّقُ بالراوي، وأَمْوَرًا تَتَعَلَّقُ
بالمَرْوِيّ، أي بنص الحديث.

فَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بالراوي: أن يعترف
الواضعُ نفسه باختلاق الحديث؛ أو أن
يكون واضعُ الخبر مشهوراً بالكذب،
رقيق الدين، لا يتورّع عن اختلاق
الأحاديث والأسانيد انتصاراً لهوى
شخصي.

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بالمَرْوِيّ [أي بمَنْ الحديث]:
أن يكون ركيك اللفظ، غير جَارٍ على
أساليب العربية وقواعدها؛ أو يكون ركيك
المعنى، لا يليق أن يصدر مثله من مشكاة

النبوة؛ أو يكون مناقضاً لصريح العقل؛ أو يكون مناقضاً للواقع المحسوس والمشاهدة؛ أو يكون مناقضاً لحقائق الدين الثابتة بالقرآن أو الثابتة بالسنة المتواترة؛ أو يكون منافياً لحقائق التاريخ الثابتة؛ أو يكون مشتملاً على مجازفات فاحشة؛ أو يتضمن وعيداً شديداً على أمر صغير، أو وعداً عظيماً على أمر حقير.

قال ابن الجوزي: «ما أحسن قول القائل: إذا رأيت الحديث يُباين المعقول، أو يخالف المنقول، أو يُناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع [أي: مُخْتَلَقٌ مَكْنُوبٌ]» [انظر: تدريب الراوي للسيوطي 274/1].

وفي الحديث الصحيح: «إذا سَمِعْتُمُ الحديثَ عَنِّي تعرفه قلوبُكم، وتَلِينُ له أشعارُكم وأبشارُكم [جلودكم]، وتَرَوْنَ أنه

منكم قريبٌ، فأنا أُولَاكُمْ به؛ وإذا سمعْتُم
الحديثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ
أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ،
فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ» [أخرجه الإمام أحمد عن أبي
حميد وأبي أسيد بسند حَسَنٍ على شرط مسلم،
وصَحَّحه ابن القُطان].

*

وهناك أنواعٌ من الحديث الضعيف،
يكون سبب ضعفها مشتركاً بين المتن
والسَّند، مثل: المضطرب، والمقلوب،
والمُعَلَّل، والشاذ، والمنكر، والمصحَّف،
والمحرَّف.

على أن الأمر المهم هنا، هو: مَنْ ذا
الذي ينظر في متن الحديث ليعرف مدى
قبوله من عدمه؟ وَمَنْ ذا الذي يقول: إن
هذا الحديث يرفضه العقل، فهو ضعيف؟

إن إعطاء هذا الحق لكل من هبّ ودبّ
من الناس، غير مقبول شرعاً ولا عقلاً،
وإنما يجب أن يُعطى هذا للثقات من أهل
الاختصاص، وهم أولو الأمر
التشريعيون، الذين جاء في أمثالهم قوله
تعالى: ﴿ولو رُدُّوه إلى الرسول وإلى أولى
الأمر منهم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾
[النساء: 83].

الحديث الموضوع

وقد ذكر الإمام المحقق ابن القيم في كتابه «المنار
المنيف في الصحيح والضعيف» (*) أنه سئل: هل
يمكن معرفة «الحديث الموضوع» بضابطٍ، من غير
أن يُنظر في سنَّده ؟

وأجاب رحمه الله عن هذا السؤال إجابةً مفصّلة فقال: «... والأحاديثُ الموضوعة عليها ظُلْمَةٌ وركاكة، ومجازفاتٌ باردة تُنادي على وَضْعِها واختلاقِها على رسول الله ﷺ، مثل حديث: «من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أُعطي ثواب سبعين

(*) بتحقيق وتخريج وتعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله. نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بطلب.

نبياً». وكأنَّ هذا الكذاب الخبيث لم يَعْلَمْ أن غير النبي لو صلى عُمَرَ نوح عليه السلام لم يُعْطَ ثوابَ نبي واحد...

ثم قال: «.. ونحن نُنبِّه على أمورٍ كَلِيَّةٍ، يُعْرَفُ بها كونُ الحديثِ موضوعاً: فمنها:

1- اشتماله على أمثال هذه المجازفات التي لا يقول مثلاً رسول الله ﷺ وهي كثيرة جداً. كقوله في الحديث المكذوب: «

مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا أُعْطِيَ فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ
أَلْفَ مَدِينَةٍ، فِي كُلِّ مَدِينَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ
قَصْرٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ سَبْعُونَ أَلْفَ حُورَاءَ.».
وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَجَازِفَاتِ الْبَارِدَةِ الَّتِي لَا
يَخْلُو حَالٌ وَاضِعُهَا مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ
يَكُونَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالْحُمْقِ، وَإِمَّا أَنْ
يَكُونَ زَنْدِيقاً قَصَدَ التَّنْقِيسَ بِالرَّسُولِ ﷺ
بِإِضَافَةِ مِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ إِلَيْهِ.

ومنها: 2- **تَكْذِيبُ الْحَسَنِ لَهُ،**
كحديث: «الباذنجانُ لما أَكَلَ لَهُ». و«
الباذنجان شفاءٌ من كلِّ داءٍ». قَبَّحَ اللَّهُ
وَاضِعَهُمَا. فَإِنْ هَذَا لَوْ قَالَ «يُوحَنَسُ» أَمْهَرُ
الْأَطْبَاءِ لَسَخَّرَ النَّاسَ مِنْهُ.

ومنها: 3- **سَمَاجَةُ الْحَدِيثِ،** وَكَوْنُهُ مِمَّا
يُسَخَّرُ مِنْهُ، كحديث: «بُئِستَ الْبَقْلَةُ
الْجَرَجِيرُ، مَنْ أَكَلَ مِنْهَا لَيْلًا بَاتَ وَنَفْسُهُ

تتازعه، ويضربُ عِرْقَ الجُذامِ في أنفه.
كُلُّوها نهاراً، وكُفُّوا عنها ليلاً».

ومنها: 4- مناقضةُ الحديث لما جاءت
به السنّة الصريحة مناقضةً بيّنة، فكل
حديث يشتمل على فساد، أو ظلم، أو
عَبَث، أو مدح باطل، أو ذَمّ حق، أو نحو
ذلك: فرسول الله ﷺ منه بريء.

ومنها: 5- أن يُدعى على النبي ﷺ أنه
فَعَلَ أمراً ظاهراً بمحضر من الصحابة
كلهم، وأنهم اتفقوا على كتمانهِ ولم ينقلوه.

ومنها: 6- أن يكون الحديث باطلاً في
نفسه، فيدَلّ بطلانه على أنه ليس من كلام
الرسول ﷺ. كحديث: «المَجَرَّةُ التي في
السماء من عَرَقِ الأفعى التي تحت العرش
».

ومنها: 7- أن يكون كلامه لا يُشبه كلام
الأنبياء، فضلاً عن كلام رسول الله ﷺ،
الذي هو وحيٌ يُوحَى. كما قال الله تعالى:
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
يُوحَى﴾ [النجم: 3-4]. أي وما نُطْقُهُ إِلَّا
وحي يُوحَى. فيكون الحديث مما لا يُشبه
الوحي، كحديث: «عليكم بالوجوه الملاح،
والحدق السود، فإن الله يستحي أن يُعذَّب
مليحاً بالنار».

ومنها: 8- أن يكون في الحديث تاريخٌ
كذا وكذا، مثلُ قوله: «إِذَا كَانَ سَنَةُ كَذَا
وكذا وقع كَيْتٌ وكَيْتٌ، وَإِذَا كَانَ شَهْرُ كَذَا
وكذا وقع كَيْتٌ وكَيْتٌ».

ومنها: 9- أن يكون الحديث بوصف
الأطباء والطَّرِيقَةِ أَشْبَهَ وَأَلْيَقَ. كحديث: «
الهريسة تشدُّ الظهر». وحديث «الذي شكا

إلى النبي ﷺ قِلَّةَ الْوَلَدِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْكُلَ
الْبَيْضَ وَالْبَصْلَ».

ومنها: 10- أَحَادِيثُ الْعَقْلِ، كُلُّهَا كَذِبٌ،
كقوله: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ
فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: مَا
خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، بَكَ آخِذٌ وَبَكَ
أُعْطِي».

ومنها: 11- الْأَحَادِيثُ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا
الْخَضِرُ وَحَيَاتِهِ، كُلُّهَا كَذِبٌ، وَلَا يَصِحُّ فِي
حَيَاتِهِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ.

ومنها: 12- أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ مِمَّا تَقُومُ
الشُّوَاهِدُ الصَّحِيحَةُ عَلَى بُطْلَانِهِ. كحديث
عُوجِ ابْنِ عُوقِ الطَّوِيلِ، الَّذِي قَصَدَ
وَاضِعُهُ الطَّعْنَ فِي أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنْ فِي
هَذَا الْحَدِيثِ أَنْ طَوَّلَهُ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ

ذراع ... وأنه كان يأخذ الحوت من قرار
البحر فيشويه في عين الشمس!

ومنها: 13- مخالفة الحديث صريح
القرآن: كحديث مقدار الدنيا: «وأنها سبعة
آلاف سنة ونحن في الألف السابعة». والله تعالى يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مَرْسَاهَا ؟ قُلْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي،
لَا يُجَلِّيهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: 187].

ومنها: 14- أحاديث صلوات الأيام
والليالي، كل أحاديثها كذب. وكذلك
أحاديث صلاة الرغائب ليلة أول جمعة
من رجب، كلها كذب مختلق على رسول
الله ﷺ.

ومنها: 15- أحاديث صلاة ليلة النصف
من شعبان، كحديث: «من صلى ليلة
النصف من شعبان مئة ركعة بألف (قل

هو الله أحد) قضى الله له كل حاجة طلبها
تلك الليلة.. وساقَ جُزافاتٍ كثيرة.. وأُعطيَ
سبعين ألفَ حوراء، لكلِّ حوراء سبعون
ألفَ غلام ...».

ومنها: 16- ركاةُ ألفاظِ الحديثِ
وسماجتُها، بحيثُ يمجُّها السمع، ويدفعُها
الطَّبْعُ، ويسمُّجُ معنَاها لِلْفطن، كحديث: «
إنَّ لله مَلَكاً من حجارة، يُقالُ له: عُمارة،
يُنزلُ على حِمَارٍ من حِجارةٍ كلَّ يوم،
فيُسعِّرُ الأسعارَ ثم يَعرُجُ».

ومنها: 17- أحاديثُ ذمِّ الحَبَشَةِ
والسُّودان.

ومنها: 18- أحاديثُ ذمِّ التُّركِ،
وأحاديثُ ذمِّ الخُصَيان، وأحاديثُ ذمِّ
المماليك، كُلُّها كذب..».

تصرفات الرسول

ذكر الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله في مقالة له في مجلة الرسالة سنة 1936، عنوانها «الهجرة وشخصيات الرسول»، أن النبي ﷺ كان يتصرف في بعض الأمور بصفته رسولاً، وفي بعض الأمور بصفته رئيس دولة، وفي بعض الأمور بصفته مفتياً، وفي بعض الأمور بصفته قاضياً. فاجتهأه في القضاء مثلاً شيء، وما أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغه شيء آخر.

وقبل الشيخ شلتوت تكلم كثيرون في هذا الشأن وربما كان الإمام ابن قتيبة الدينوري أول من تحدّث عنه بشكل تفصيلي في كتابه: «تأويل مختلف الحديث».

ثم جاء الإمام شهاب الدين القرافي
فَقَسَمَ تصرُّفات الرسول ﷺ إلى أربعة
أنواع: تصرفات بالرسالة حيث يكون
ناقلًا عن الحق عز وجل للخلق؛ وأخرى
بالفتيا حيث يكون مخبراً عن الله تعالى
بما يجد في الأدلة أنه حُكَم الله عز وجل؛
وثالثة بالحُكْم (يعني القضاء) (*) حيث ينشئ
الحُكْم على المتخاصمين بناءً على ما ظهر
له من البيّنات؛ ورابعة بالإمامة وهي
تصرُّفه في شؤون السياسة

(*) لم تَرُدْ لفظة « الحُكْم » في القرآن والسنة أبداً إلا بمعنى
« القضاء ». أما المعنى الشائع اليوم للفظ « الحُكْم »
ومشتقاتها، فهو معنى مُستحدث لا يجوز الاتكاء عليه
في فهم كلام الله ورسوله.

العامة للدولة بما تقتضيه المصلحة [القرافي
في « الفروق » وفي « الإحكام في تمييز الفتاوى عن
الأحكام »].

ويقسم الإمام ابن القيم تصرفات النبي ﷺ إلى الأنواع الأربعة نفسها التي ذكرها القرافي؛ فيذكر «أن النبي ﷺ كان هو الإمام، والحاكم (القاضي) والمفتي، وهو الرسول. فقد يقول الحُكْمَ بمنصب الرسالة، فيكون شرعاً عاماً إلى يوم القيامة... وقد يقوله بمنصب الفتوى.. وقد يقوله بمنصب الإمامة فيكون مصلحة للأمة في ذلك الوقت، وذلك المكان، وعلى تلك الحال..

ومن أطف التقسيمات وأخصرها ما ذكره الإمام ولي الله الدهلوي [في كتابه «حجة الله البالغة»]: «اعلم أن ما رُوي عن النبي ﷺ، ودُونَ في كتب الحديث، على قسمين؛ أحدهما: ما سبيله سبيلُ تبليغ الرسالة(*)... وثانيهما: ما ليس من باب

(*) وهو الوحي المتلّو والوحي غير المتلّو.

تبليغ الرسالة، وفيه قوله ﷺ: «إنما أنا بشر! إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» وقوله صلوات الله عليه: «إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله». وذلك أنه مرّ على قوم يؤبّرون النخل [أي يتسلّقون النخلة المذكّرة ليقطعوا منها الطلع المذكّر، ثم يتسلّقون الشجرة المؤنّثة ليضعوا الطلع المذكّر في الجزء المؤنّث منها]، فقال لهم: «لو تركتموه لصلّح»، فتركوه ففسّد، فذكروا لرسول الله ﷺ ذلك فقال: «إنما أنا بشر» وروى الإمام أحمد هذا الحديث في مسنده بلفظ «ما كان من أمر دينكم فإلّئ، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به». وفي رواية لمسلم أيضاً «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

*

وقد تحدّث عن ما هو من السنّة للتشريع وما ليس كذلك، من علماء عصرنا: الإمام الشيخ رشيد رضا رحمه الله، ثم الإمام الشيخ شلتوت - كما أسلفنا -، ثم الشيخ محمد مصطفى شلبي رحمه الله [في كتابه النفيس: الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية]، ثم تلميذه أخونا العلامة المحقق النّقة الدكتور محمد سليم العوّا في بحثه الجامع عن « السنة التشريعية والسنة غير التشريعية » في العدد الافتتاحي لمجلة المسلم المعاصر؛ وقد أفدنا في هذا الفصل مما كتبوا جميعاً، جزاهم الله خيراً وأحسن ثوابهم.

لكن أوّل مَنْ تحدّث عن هذا الشأن - في ما نعلم - هو سيدنا الحُبّاب بن المنذر رضي الله عنه في موقعة بدر، عندما أنزل النبي صلّى الله عليه وآله

المسلمين منازلهم في بدر، فسأله الحُباب
 بن المنذر: «أَمْزَلًا أَنْزَلَكُهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ
 نَتَقَدَّمَهُ وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الْحَرْبُ
 وَالرَّأْيُ وَالْمَكِيدَةُ؟». فَقَدْ عَرَفَ هَذَا
 الصَّحَابِيُّ الْكَرِيمُ إِذَنْ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُمْكِنُ
 أَنْ يَأْمُرَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَأْمُرَ
 بِاجْتِهَادِهِ الْخَاصِّ بِوَصْفِهِ قَائِدِ الْجَيْشِ.
 فَأَجَابَهُ ﷺ: «بَلْ هُوَ الْحَرْبُ وَالرَّأْيُ
 وَالْمَكِيدَةُ»، أَيِ إِنَّهُ لَيْسَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ،
 وَإِنَّمَا هُوَ اجْتِهَادُ شَخْصٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي
 أَمْرٍ مِنَ أُمُورِ الدُّنْيَا. وَعِنْدُنَا قَالَ
 الْحُبابُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِنْ هَذَا لَيْسَ
 بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى
 مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ فَنَنْزِلْهُ، ثُمَّ نَغْوِّرْ مَا وَرَاءَهُ
 مِنَ الْقُلُوبِ [الْأَبَارِ] ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا
 فَنَمْلَأُهُ مَاءً، ثُمَّ نَقَاتِلُ الْقَوْمَ، فَنَشْرِبُ وَلَا
 يَشْرِبُونَ!» فَقَالَ لَهُ ﷺ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ

«، وفَعَلَ كما قال [« السيرة النبوية » لابن هشام،
وعليها «الروض الأثف» للسهيلي: 97/5].

فقد كان معروفاً إذن منذ عهد الصحابة،
أن النبي ﷺ في معظم أحواله يكون
مستهدياً بالوحي، لكنه في بعض الأحيان
يجتهد رآيه بوصفه رئيسَ دولة، أو قائداً
للجيش، أو قاضياً، أو مفتياً، أو غير ذلك،
ولهذا جازت مخالفته ﷺ حينما كان يتحدثُ
بهذه الصفة أو تلك، كما خالفه الحُباب في
بدر، وكما خالفه السَّعدان [سعدُ بن معاذ وسعدُ
بن عباد] في إعطاء ثلث ثمار المدينة
لغَطَفَان في غزوة الخندق، كما روى ابن
كثير [في تاريخه ج 4 ص 104] عن ابن
إسحاق: لما اشتد البلاء على الناس
بالحصار الذي مَكَّتْ نحو شهر [في غزوة
الخندق]، بعث ﷺ إلى عُيَيْنَةَ ابن حصن
والحارث بن عوف المري وهما قائدا

غطفان، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على
 أن يرجعا بمنّ معهما عنه وعن أصحابه،
 فجرى بينه وبينهم الصلح، حتى كتبوا
 الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة
 الصلح [أي: إمضاء الشرط وتوقيعه]. فلما أراد
 ﷺ أن يفعل ذلك، بعث إلى السَّعْدَيْنِ [سعد
 بن معاذ وسعد بن عُبادة وهما زعيما الأنصار]،
 فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه. فقالا: يا
 رسول الله! أمراً تحبّه فنصنعه، أم شيئاً
 أمَرَكَ الله به لا بُدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً
 تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: «بل شيءٌ أصنعه
 لكم، والله ما أصنعُ ذلك إلا لأنّي رأيت
 العرب رَمَتْكُمْ عن قوس واحدة وكالْبُوكُم
 [أي: أظهرُوا عداوتهم لكم] من كلّ جانب،
 فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى
 أمرٍ ما». فقال سعد ابن معاذ: يا رسول الله
 ! قد كنا وهؤلاء على الشراك بالله وعبادة

الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرةً واحدةً إلا قِرَى [ضيافة] أو بيعاً ! أفحينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنَا بك وبه.. نُعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! فقال ﷺ: «أنتَ وذاك». فتناول سعدُ الصحيفةَ فَمَحَا ما فيها من الكتاب [أي: الكتابة] ثم قال: ليجهدوا أنفسهم ! ... وكما خالفته بريرة بعد عتقها، حين شفع ﷺ عندها أن ترجع إلى مغيث زوجها في حال الرِّق، وكان شديد التعلُّق بها، وكانت هي تبغضه. ولما كلمها النبي ﷺ في الرجوع إليه فقال لها: «لو راجعتِه»، قالت: يا رسول الله ! تأمرُني؟ قال: «إنما أشفع»، قالت: لا حاجة لي فيه. [رواه البخاري عن ابن عباس].

*

**خلاصة القول أن تصرفات النبي ﷺ -
حديثاً وسنةً - على ستة أشكال:**

**(1) فإذا كان تصرفُ النبي ﷺ بوصفه
رسولاً مبلِّغاً عن الله، كان ذلك شرعاً عاماً
إلى يوم القيامة. وفي ذلك وَرَدَ قوله ﷺ: «
إذا حدَّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإنِّي لن
أكْذِبَ على الله عزَّ وجلَّ» [رواه مسلم عن
موسى بن طلحة عن أبيه]. وفي رواية
[لمسلم]: «فما حدَّثتكم عن الله فهو حقٌّ».**

*

**(2) وإذا كان تصرفه ﷺ بوصفه إماماً
أي رئيسَ دولة، فهو تصرفٌ في شؤون
السياسة العامة للدولة بما تقتضيه مصالح
الأمة ومنافعها. وهذا يختلف باختلاف
الزمان والمكان والإنسان والإمكان. وفيه
وَرَدَ قوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء من رأيي**

فإنما أنا بشر» [رواه مسلم عن رافع بن خديج] «
 أخطئ وأصيب» [في رواية عن مسلم]؛ «
 أنسى كما تنسون» [رواه البخاري عن ابن
 مسعود]؛ «أرضى كما يرضى البشر،
 وأغضب كما يغضب البشر» [رواه مسلم عن
 أنس ابن مالك].

*

(3) وإذا كان تصرُّفه ﷺ بوصفه قاضياً،
 فهو قاصرٌ على محلِّ وُروده، لترتُّبه على
 ما ظهرَ له من البيِّنات التي نصَّ ﷺ على
 أنه يقضي بها، في قوله: «إنكم
 تختصمون إليَّ، وإنما أنا بشر، ولعلَّ
 بعضكم ألحنُ بحجته [أي: أبرغُ بعرض حُجته]
 من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي
 له، فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع»
 [رواه البخاري ومسلم].

*

(4) وإذا كان تصرفه ﷺ إرشاداً لنا وتأديباً فنحن بالخيار: إن نحن فعَلناه، كانت الفضيلة في ذلك، وإن لم نفعله فلا جُنَاحَ علينا إن شاء الله ... والمقصود بكونه للإرشاد أنه للدلالة على ما هو أنفع للمرء في الدنيا. وقد وَرَدَ مِثْلُ ذلك حتى في القرآن الكريم، كقوله تعالى في آية المُذَابِنَةِ: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282]، وقوله عزّ وجل: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: 101]. ومثال ذلك في الحديث قوله ﷺ: «إن اليهود لا يصبغون [الشيب] فخالفوهم» [رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة]، فوُجِدَ من الصحابة من لم يصبغ، كأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ علي ابن أبي طالب، وأَبِيّ بن كعب، وسَلَمَةُ بن الأَكْوَع، وأنس بن مالك [ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ج

[355/1]. ومن ذلك حديث: « لا تُسَمِّ غلامَكَ رَباحاً ولا يَسَراً ولا أَفلَحَ ولا نافعاً » [رواه مسلم عن سمرة]. ومع ذلك سَمَّى المسلمون منذ عهد الصحابة بهذه الأسماء، ولو كان في ذلك كراهةٌ دينيةٌ ما سَمَّوا بها.

وقد وَرَدَ عن النبي ﷺ جملةٌ أحاديث، تَصِفُ بعض الأدوية لبعض الأمراض. واهتمَّ بها بعض العلماء، ظانِّين أنها جزء من الدين والوحي الإلهي. ولكن الواقع أن منها ما هو مما عَرَفَتْهُ العرب من خبرات البيئة وتجاربها، كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: « إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ — أَوْ قَالَ شِفَاءً — فَفِي شَرْطَةِ مُحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ أَوْ لَذْعَةِ بَنَارٍ تَوَافَقَ الدَّاءُ؛ وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتُوِي ». وهذا نصٌّ صريحٌ منه ﷺ على أنها أدويةٌ قومه: « أَدْوِيَتُكُمْ » وليست

"أَدْوِيَّتَه" عليه الصلاة والسلام، فإطلاق اسم "الطب النبوي" عليها يُعَدُّ تطاولاً على مقام النبوة، لأنه ﷺ نفى أن تكون منسوبة إليه، بقوله «مِنْ أَدْوِيَّتِكُمْ». لاسيّما وأن منها ما يليق ببيئة معينة في حرارتها ومناخها وظروفها، كالبينة الصحراوية العربية، ولا يمكن أن يُحمَل على العموم لكل الناس «ورسول الله ﷺ - كما يقول الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» - إنما بُعث هادياً، وداعياً إلى الله وجنته، ومعرّفاً بالله، ومبيناً للأمة مواقع رضاه وأمرأ لهم بها، ومواقع سَخَطه وناهياً لهم عنها ... وأما طبُّ الأبدان فجاء من تكميل شريعته، ومقصوداً لغيره ...».

يوضح ذلك ما رواه هشام بن عروة، أن عروة ابن الزبير كان يقول لعائشة رضي الله عنها: «يا أمّاه، لا أعجَبُ من فهمك، أقول: زوجة رسول الله ﷺ وبنتُ أبي بكر.

ولا أعجبُ من عِلْمِك بالشعر وأيام الناس،
أقول ابنةُ أبي بكر، وكان أعلمَ الناس أو
من أعلم الناس. ولكن أعجبُ من عِلْمِك
بالطب، كيف هو ومن أين هو؟ قال:
فَضَرَبْتُ عَلَى مَنْكِبِهِ، وَقَالَتْ: أَيُّ عُرْيَةٍ
[تَصْغِيرُ عُرْوَةٍ]! إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْقُمُ
عِنْدَ آخِرِ عَمْرِهِ. فَكَانَتْ تَقْدُمُ عَلَيْهِ وَفُودُ
الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَيَنْعُتُونَ لَهُ الْأَنْعَاتِ
[يَصِفُونَ لَهُ الْوَصَفَاتِ]، وَكَانَتْ أَعَالِجُهَا لَهُ،
فَمِنْ ثَمَّ « [رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « الْمَسْنَدِ »]:

[67/6].

قال العلامة ابن خلدون: الطبُّ المنقول
في الشرعيات من هذا القبيل [يعني طب
البادية المبني على تجارب قاصرة] وليس من
الوحي في شيء، وإنما هو أمرٌ كان عادياً
[أي: مُعْتَاداً] للعرب، وَوَقَعَ فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ
النبي ﷺ، من نوع ذِكْرِ أَحْوَالِهِ الَّتِي هِيَ

عادةً وَحِيلَةً، لا من جهة أن ذلك مشروعٌ على ذلك النحو من العمل، فَإِنَّهُ ﷺ إنما بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا الشرائعَ، ولم يُبْعَثْ لتعريف الطب ولا غيره من العاديّات ... فلا ينبغي أن يُحْمَلَ شيءٌ من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إلا إذا استُعمل على جهة التبرُّك وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثرٌ عظيم النفع..

[مقدمة ابن خلدون: 493].

*

(5) وإذا كان تصرفُهُ ﷺ بوصفه مُفْتِيًّا، فذلك وإن كان اجتهداً منه ﷺ في حدود ما أراه الله، وَسُنَّةً أَباحَ اللهُ لِنَبِيِّهِ أَنْ يَسُنَّهَا، وَأَمَرَهُ بِاسْتِعْمَالِ رَأْيِهِ فِيهَا، إِلَّا أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَحْيِ، لِأَنَّ اللَّهَ عَصَمَهُ مِنْ أَنْ يُتْرَكَ أَوْ يُقَرَّرَ رَأْيُهُ عَلَى الْخَطَأِ [حجة الله البالغة]. وفي

ذلك وَرَدَ قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ» [رواه مسلم عن رافع بن خَدِيج] وفي رواية [عن أحمد]: «مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَالْيَّيَّ».

ولقد كان رسول الله ﷺ مع رسالته وقبل رسالته، بشراً اكتملت فيه جميع معاني البشرية الفاضلة. وقد عُنِيَ القرآن الكريم بأن يؤكّد هذا المعنى في كثير من آياته: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 93]؛ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]. وقد اكتسب ﷺ بذلك شخصية الفقيه المجتهد، كما مُنِحَ شخصية الرسول المبلّغ عن الله. وهو (أولُ الفقهاء) كما أنه (خاتمُ الأنبياء). [اجتهاد الرسول للشيخ عبد الجليل عيسى].

وقد قام محمدُ النبيُّ بحق رسالته فبلَّغَ
وَحْيَ اللَّهِ كما أَمَرَهُ رَبُّهُ بتبليغه. وقام محمدُ
الفقيهُ الأول بحق بشرِيَّته: رَسَمَ طريقةَ
الاجتهاد، وعُنِيَ بالتطبيق العملي عليها،
حَتَّى يُعَبِّدَهَا لِمَن يَجِيءُ بَعْدَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ
وَالْمُسْتَنْبِطِينَ. فأفتى المرأة التي سألته، عن
حَجِّهَا عَنْ أَمِّهَا بقوله: «أُرِيتِ لَوْ كَانَ
عَلَى أَمِّكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَّتَهُ؟» [رواه
البخاري عن ابن عباس] وأفتى السائلَ عن
قُبْلَةِ الصَّائِمِ بقوله: «أُرِيتِ لَوْ
مَضْمَضْتَ مِنَ الْمَاءِ وَأَنْتِ صَائِمٌ؟» [رواه
أبو داود عن عمر بإسناد صحيح] . وأفتى
السائلَ عَمَّنْ لَامَسَ امْرَأَتَهُ أَيُكْتَبُ لَهُ
أَجْرٌ وَهُوَ يَقْضِي شَهْوَتَهُ؟ فقال له: «
أُرِيتِ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَيْكُونُ عَلَيْهِ
وِزْرٌ؟» [رواه البخاري عن أبي ذر].

ولكنَّه ﷺ نزل على اجتهاد غيره
أحياناً، فاستثنى «الإذخر» (*) في تحريم
شجر مكة حين استثناه العباس [رواه
البخاري عن أبي هريرة]؛ ودعا للمقصرين كما
دعا للمحلّقين [رواه مسلم عن أم حصين
الأحمية]؛ وبَعَثَ أبا بكر ﷺ يُنادي: «من
قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، فوجده عمر
فردّه، وقال: «إِذَنْ يَتَكَلَّمُوا» [رواه أبو يعلى
الموصلي في مُسنّده]،

(*) الإذخر: نَبْتُ معروف في مكة، طيّب الرائحة وقُضْبائُه
دِقَاق، كان أهل مكة يَسْقُفُون به البيوت، ويستعملونه
في الوقود.

وكذلك ردَّ عمر ﷺ أبا هريرة عن مثل
ذلك في حديث صحيح؛ ونَزَلَ المنزلَ
الذي أشار عليه أصحابه بأن ينزل فيه
[السيرة النبوية لابن هشام، وعليها «الروض الأُنْف
للسهيلي: 97/5].

وكان ﷺ يجتهد أحياناً ثم ينزل الوحي بخلاف اجتهاده، لئلا يصير شرعاً واجب الاتِّباع لا تجوز مخالفتُه: عَاتَبَهُ اللهُ عَلَى الْإِذْنِ لِلْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ، لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43]، وعلى أخذ الفداء من أسرى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 67]، وعلى إعراضه عن الأعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: 2]، فكان ذلك إيداناً من الله بتخطئته ﷺ في اجتهاده.

ورجع ﷺ عن اجتهاد باجتهاد، بمجرد النظر والتجربة فقال: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة(*)»

(*) الغيلة: هي أن ترضع المرأة ولدها وهي حامل.

فنظرتُ في الروم وفارس فإذا هم يغيلون
 أولادهم فلا يضرُّ ذلك أولادهم شيئاً»
 [رواه مسلم عن جدامة بنت وهب]. وقال: «لو
 استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لَمَّا
 سَقْتُ الهَذي» [رواه البخاري عن جابر بن عبد
 الله]. وقال: «كنتُ نَهَيْتُكُمْ عن زيارة
 القبور، فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً؛
 وكنتُ نَهَيْتُكُمْ عن لحوم الأضاحي بعد
 ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم؛ وكنتُ
 نَهَيْتُكُمْ عن الأشرية في الأوعية،
 فاشربوا في أيِّ وعاء شئتم، ولا تشربوا
 مُسْكراً» [رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي
 عن بُريدة]. وقال: «لولا أن أشقَّ على أمتي
 لأمرتهم بالسِّواك مع كل صلاة» [رواه
 البخاري ومسلم عن أبي هريرة]. وفي رواية: «
 لولا أن أشقَّ على أمتي لفرضتُ عليهم
 السِّواك مع كل وضوء» [أخرجه النسائي في

السنن الكبرى عن أبي هريرة، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين]. وقال لعائشة أم المؤمنين: «لولا [أن] قومك حديثو عهدٍ بشرِّك، لَهَدَمْتُ الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم» [رواه البخاري ومسلم].

وكان يُسارع أحياناً إلى الجواب عمّا يُسأل عنه من غير أن يتربّص لِوَحْيٍ، وأحياناً ينتظر أمر الله ويقول لم ينزل عليّ فيه شيء، كما في حادثة المرأة التي جادلتها في زوجها [المجادلة: 1]، وكما في حادثة الرجل الذي قَذَفَ زوجته [أي اتَّهمها بالنزوى] [النور: 6]، فقد نزل القرآن بتشريع كفارة الظهار وشهادات اللّعان.

*

(6) وإذا كان تصرفه ﷺ على سبيل العادة دون العبادة، فهذا ليس تشريعاً ولا يوجبُ الاقتداء به فيه. ومن أشهر ما

جاء في ذلك حديثٌ أُكِلَ الضَّبُّ [وهو حيوان من الزواحف] حيث قال فيه رسول الله ﷺ: «لم يكن بأرض قومي فأجِدُنِي أعافه». ولم يَقُلْ أحد بناءً على ذلك: إن من السنَّة عدم أكل الضب!

وحديثٌ حَبَّه ﷺ للكتف من الشاة أو للذراع معروفٌ مشهور.. ولكن لم يَقُلْ أحد إن من السنَّة أن يأكل الإنسان كتف الشاة كُلِّمَا استطاع، لأن رسول الله كان يفضلها! فهذه أمور تتعلَّق بالعادات. وقد يحب رجلٌ أكل الضَّب ولا حَرَجَ عليه.. وقد يكره آخر لحم الكتف ولا جُنَاحَ في كراهيته له [حجة الله البالغة: 272/1].

ولعلَّ من أمثلة هذه السُّنَن التي بُنِيَتْ على المصلحة القائمة في زمن الرسول ﷺ قوله في شأن الرِّزْي: «خالفوا المشركين: وِقِّروا اللَّحَى وأحفوا الشوارب

« ففي صيغة النص ما يفيد ارتباط الحكم أو الأمر بزي المشركين وعاداتهم في توفير اللحية والشارب معاً. وأزياء الناس وزينتهم أمورٌ لا استقرارَ لها، فهو لذلك تشريعٌ زمني، رُوعِيّاتٍ فيه البيئة التي كان يعيش فيها الرسول ﷺ [عن مصادر التشريع الإسلامي في ما لا نص فيه للشيخ عبد الوهاب خلاّف ص 163]. ولا يبعد هنا أن يقال إن الأمر في توفير اللحية للاستحباب يُثابُّ فاعله، ولا يُلامُّ فضلاً عن أن يُعاقب] تاركه. ومثله ما ذكرناه من قوله ﷺ: « إن اليهود لا يصبغون [الشَّيْبَ] فخالفوهم»، فذلك أيضاً مرتبطٌ بعادات اليهود، أفنخالفُهم إن تغيرت العادة لديهم إدارةً منا للحكم مع علته وسببه؟ أم نُبقي على تنفيذ الأمر الوارد في هذا الحديث حتى ولو فات بذلك تحقيق

مقصوده؟ لا شك أن الأول أولى بنا وأوفق
 [عن « السنة التشريعية والسنة غير التشريعية »
 للدكتور محمد سليم العوا]. والله دَرُّ سلطان
 العلماء عزّ الدين ابن عبد السلام حين
 قال: « كل تصرف تقاعد عن تحصيل
 مقصوده، فهو باطل » [قواعد الأحكام 121/2]،
 وتبعه تلميذه القرافي فقال: « إن كل تصرف
 لا يترتب عليه مقصوده لا يُشرع »
 [الفروق: 135/3].

*

3 القَدَر

يتردد في القرآن الكريم ذكرُ عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعالى. ولكن لم يرد في القرآن ولا الحديث الشريف في ما نعلم ذكر عالم الغيب وعالم الشهادة. ولو أنه لا جُنَاحَ علينا – إن شاء الله – أن نستعمل هذين اللفظين لإيضاح بعض ما قد يَخْفَى في هذا الصدد، ونرجو الله أن نكون مصيبين.

نُطلق اسم عالم الشهادة على العالم الذي يستطيع مَنْ فيه شُهُودَ [أو مشاهدة] مَنْ فيه وما فيه. ونعني بالشُّهُود أقصى ما تستطيع الحواس تحصيله، وأقصى ما

يستطيع العقل تخيُّله، مع أخذ تفاؤُت الحواس وتفاؤُت العقول بعين الاعتبار. المهم أنه عالمٌ محدودٌ محصور، وأنَّ مَنْ فيه لا يستطيعون شهودَ أي شيء من خارجه. أما هذا الخارجُ عنه فلنطلق عليه اسم عالم الغيب. وعالمُ الغيب هذا بالنسبة إلى كلِّ عالمٍ من عوالم الشهادة، يمكن أن يشتمل على عدد لانهائي من عوالم الشهادة الأخرى؛ بالإضافة إلى ما هو خارج [أو ما وراء] عوالم الشهادة جميعاً.

لنستعِنْ بعلم الفيزياء مثلاً. ثَمَّة طيفٌ متواصل من الأمواج، فيها الأمواج الصوتية، والأمواج الضوئية، وما تحت الحمراء، وما فوق البنفسجية، وما قبل هذه وما بعد تلك، بعضها تستطيع الحواسُّ الإحساسَ بها مباشرة، وبعضها تستطيع ذلك إذا استعانت بمكبرات أو مضخمات

أو مسجّلات. ولكن طَرَفِي هذا الطيف المتواصل من الأمواج يَقَعَان كلاهما على حدود عالم الشهادة، إذ تتماذى من أول الطيف وآخره، أو قل أعلاه وأسفله.. أمواجٌ أخرى في عالم الغيب، تقفُ مقدرةُ سكان عالم الشهادة دون الإحساس بها بأيّ وسيلة كانت.

في كلِّ من عالم الغيب وعوالم الشهادة قوانينٌ كونيةٌ ناظمةٌ لجميع الأحداث التي تحدث. وهي قوانين ثابتة يطلق عليها القرآن اسم السُّنَنِ: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾. [فاطر: 43]. ولكننا في عالم الشهادة، لا نرى من هذه القوانين أو السنن إلا ما نقدر على مشاهدته أو تصوّره، بما أُعطينا من حواس وما وُهبنا من عقل، فالله سبحانه قد قَدَّرَ الإنسان (أي جعله قادراً) على اكتشاف

أو استتباط هذه القوانين. وقدره على
التصرف في حدود هذه القوانين بكل
حرية، بما في ذلك محاولة الاستفادة من
هذه القوانين لتحويل بعض ما هو ضائع
ليصبح مفيداً، وما هو مخرب ليصبح
معمراً، بما يبدو وكأنه تحدٍ لهذه القوانين.
وذلك كالوقوف في وجه السيل المتحدر
ببناء سد. فلدينا إذن:

(1) تقدير من الله سبحانه لنا على
التعريف على هذه القوانين؛ و

(2) تقدير من الله سبحانه لنا على
التصرف ضمن هذه القوانين.

ولعل هذا هو ما تشير إليه آيات سورة
الأعلى وسورة طه:

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى:

﴿الذي خلق.. فَسَوَّى،

﴿والذي قَدَّر.. فَهَدَى﴾ [الأعلى: 1-3].

﴿رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثم
هَدَى﴾ [طه: 50].

ولكن هذه القوانين النافذة أو السارية
المفعول في عالم الشهادة، ليست بمفصلة
عن القوانين النافذة في عالم الغيب، بل إن
قوانين عالم الغيب نفسها، لَتَتَجَلَّى بين
حين وآخر في عالم الشهادة بما يبدو
وكأنه تحويل لقوانين عالم الشهادة. وأقول
يبدو، لأننا في عالم الشهادة لا ندري شيئاً
عن هذه القوانين الأخرى ولا نملك حتى
القدرة على تصوُّرها. فالله الذي قَدَّر هذه
القوانين التي نتعرَّفها في عالم الشهادة، أي
جَعَلَهَا قَادِرَةً أي نافذة سارية المفعول، هو
الذي قَدَّر قوانين عالم الغيب كذلك. ونحن

نشهد في عالم الشهادة نتائج التقدير الأول واضحة مفصلة، ونشهد بين حين وآخر ظاهرة من ظواهر التقدير الذي لا نستطيع تفسيره بمقتضى قوانين عالم الشهادة، فنرده إلى عالم الغيب.

ولكن الله سبحانه إلى جانب تقدير هذه القوانين أي تمكينها من العمل، قدّر الإنسان أيضاً، فجعله قادراً على اتخاذ القرار، قادراً على التصرف، قادراً على التسخير لهذه القوى الطبيعية التي قدرها الله على الاستجابة لهذا الإنسان وإطاعته، إذا عرف كيف يستطيع تطويعها وتسخيرها، في إطار القوانين أو السنن التي تحكم عالم الشهادة.

وشتان بين تقدير وتقدير. فتقدير القوانين تقدير صارم، لا يدع لها حرية

التبديل والتحويل: ﴿ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾ [الإسراء: 77].. في حين أن تقدير الإنسان تقدير مَرْن، تُرَكَّتْ له فيه حرية الإرادة والاختيار ! وهذا مظهر من مظاهر التكريم لهذا المخلوق العجيب، هو بعض ما يتضمّنه قول الله عز وجل: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البرّ والبحر، ورزقناهم من الطيّبات، وفضلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾ [الإسراء: 7].

ولكن التقدير الذي يتضمّن حرية الإرادة، يستتبع ضرورة وجود المسؤولية، فالذي يتصدّى لحمل المسؤولية، مسؤولية الاختيار، لابدّ أن يتحمّل كذلك تبعات هذه المسؤولية ويستعدّ للمساءلة وتقديم الحساب: ﴿إنّا عرّضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال،

فَأَبَيَّنَ أَن يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا؛ وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ: إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ! ﴿٧٢﴾
[الأحزاب: 72].

وهي مُسَاءَلَةٌ مزدوجة: مُسَاءَلَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ
يَقْدِّمُ الْإِنْسَانُ كَشْفَ حَسَابِهِ فِيهَا وَفَقًّا
لِلْقَوَانِينِ التَّشْرِيعِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَمُسَاءَلَةٌ
آخِرَوِيَّةٌ يَقْدِّمُ كَشْفَ حَسَابِهِ فِيهَا إِلَى مَالِكِ
يَوْمِ الدِّينِ.

الحياةُ في عالم الشهادة إذن مزيجٌ من
هذه التقادير. ولكنه مزيجٌ ينبغي أن يكون
متوازنًا لتستقر الحياة وتُسْتَتَبَ. أما إذا
طَرَأَ الاختلال على هذه الموازين، فإن
ذلك يؤدي إلى اضطراب الحياة
واختلالها.. وما أكثرَ ما يحدث ذلك من
جَرَاءِ طُغْيَانِ الْإِنْسَانِ وَبَغْيِهِ، وَظُلْمِهِ
وَجَهْلِهِ، وَتَعَدِّيهِ عَلَى حَقُوقِ غَيْرِهِ: إِنْسَانًا

كان هذا الغير أو حيواناً أو طبيعة أو قانوناً من القوانين:

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ.. أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ!﴾ [الرحمن: 7، 8]؛

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ.. وَإِنَّا لَصَادِقُونَ!﴾ [الأنعام: 146].

ما الذي يتعرّض إليه الإنسان المعتدي في هذه الحالة؟ إنه المساءلة في الدنيا – وهذه يمكن أن يفرّ منها إذا كان له من السلطان والمكر والتزوير ما يستطيع به أن يفر - .. وإنه بعض الأضرار المادية، التي قد تلحق به أحياناً رغم كل الاحتياطات التي يتخذها، لأن القوانين الكونية النافذة لا يمكن التهرب منها بشكل كامل ولا دائم... ثم إنه المساءلة والحساب في الآخرة؛ وهذه ضمانة العدالة الحقّة.

وما الذي يتعرّض إليه الإنسان المعتدى عليه ؟ إنه ضررٌ في جسمه أو ماله أو سمعته أو أسرته، أو أكثر من ضرر. وهو قد يستطيع أخذ حقه في المحكمة الدنيوية وقد لا يستطيع.. بل قد لا تستطيع المحكمة الدنيوية – على إنصافها – أن تعوّضه عن الأضرار التي أصابته إلا بمقدار ضئيل.. فما الذي يفعله؟

هل تقضي هذه المَضَرَّة أو الكارثة على إنسانيّته؟ هل تُحطِّم نفسه فيتحوّل إلى مخلوق منهار محطّم لا يملك من أمره شيئاً؟ هل يتحوّل إلى إنسان سلبي ينتظر مزيداً من العدوان والتحطيم؟

هنا تتدخل عقيدة التقدير لتحلّ له هذه المشكلة بأروع ما يكون الحل!

لنضرب على ذلك مثلاً سيارة حافلة (أوتوبيس)، تنصّ القوانين الكونية على ضرورة فحص مَكابِجها (فراملها) فحصاً دورياً للتأكد من صلاحيتها للعمل. أهمل سائقها أو صاحبها إجراء هذا الفحص، وأركبَ مجموعة من الركاب في حافلته وسافر بهم، ثم تعرّض إلى موقف لا تُنجيه منه إلا المكابح، فَضَغَطَ عليها فإذا بها عاطلة عن العمل، فتدهورت الحافلة ومات عدد من ركابها.

المسؤولُ ظاهرياً اثنان: سائقُ السيارة الذي لم يَقم بإجراء فحص المكابح. والقوانينُ الكونية التي تقضي بأن المكابح الفاسدة لا تلبّي عند الحاجة.

ولكن **المسؤولُ الحقيقي** هو سائق السيارة وحده، لأنه تصرّف وفَقَّ «تقديره

« المَرْن، الذي تُرَكَّتْ له فيه حرية الإرادة والاختيار. أما القوانين الكونية التي قَدَّرَها الله أي جعلها نافذة، فقد كانت تسير وَفْقَ » تقديرها « الصارم، الذي لا يَدَعُ لها حرية التبديل أو التحويل.

فما بالُ الإنسان الذي أصيب بعزيز عليه في هذا الحادث ؟ هل ينهار ويفقد شخصيته ويتحوَّل إلى إنسان سلبي ؟

كلا!

إن عليه أن يُقاضي المسؤول عن الكارثة.. ونتيجة ذلك قد لا تكون مضمونة في مجتمع ظلُّوم جَهُول.

ولكن عليه أن يتأمل تأملاً عميقاً في نتائج تقدير القوانين الكونية ، فيرى أنه ما كان يمكن لهذه الكارثة أن تقع في غياب الفحص الدوري لأن القوانين الكونية كما

هو مكتوب و منصوصٌ عليه في كتاب manual إصدارها وإعمالها، نافذةٌ لا يمكن تعديلها، وأن تقدير هذه القوانين ما كان يمكن الفرار منه، وبذلك يتقبل هذا الواقع ويحتمله على رغم ما ينطوي عليه من ألم المصاب، ويبقى إنساناً إيجابياً فعّالاً بكل معنى الكلمة.

وهذه الازدواجية في ردِّ سبب الكارثة نلّمحُها في الآيات التالية:

• ﴿ما أصابكم من مصيبةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30]؛ وهذه إشارة إلى «تقدير» الإنسان على أن يتّخذ قراره بإرادته، وبكل حرّية.

• ﴿ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ [الحديد: 22]؛ وهذه إشارة إلى

القانون الكوني الذي « كُتِبَ » أي صدر وفُرضَ وسرى مفعوله منذ بلايين السنين.

• ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله، ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه﴾ [التغابن: 11]؛ وهذه إشارة إلى أن الله عزَّ وجلَّ قد «أَذِنَ» لهذه القوانين بالنِّفَاز ابتداءً، فكَلَّمَا نَفَذَتْ في جزئية من جزئيات هذا الكون وفي أيِّ وقت، فإنما تَنَفَّذُ امْتِثَالاً لهذا «الإِذْن» القديم، دون أن تحتاج إلى «إِذْن» جديد بالنِّفَاز.

وموقفُ الإنسان من تقدير هذه القوانين الكونية (وهو ما يطلق عليه في الإسلام اسم القَدَر) هو الصبر، وهو يقتضي - في أفضل صُورَه - أن يذكِّر المرءَ نفسَه على الفور بأنه مِلْكٌ "لله" وليس مِلْكٌ نفسه، وأنه مهما طال به الأمد فسوف يرجع إلى الله حيث العدالة المطلقة والمحاكمة العادلة

فيردد على الفور: ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، مُسْتَذْكراً قول الله عز وجل:

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ،
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

*

هذا هو موقف المسلم من قوانين الله الكونية. فما هو موقفه من قوانين الله الشرعية [أي من أوامره ونواهيه]؟

إن الله سبحانه وتعالى لم يترك هذا الإنسان وحيداً فريداً أعزل في هذا العالم من عوالم الشهادة، وإنما زوّده بزاد مهم، دلّله فيه على ما هو خيرٌ له. وبذلك أنعم عليه نعمةً مزدوجة. فهو قبل كل شيء قد قدره أي مكّنه من حرية الإرادة والاختيار

والتصرف، ومكَّنه من تسخير القوى الطبيعية الموجودة في هذا الكون بما استطاع. ولكنه بالإضافة إلى ذلك هداه أي دَلَّه على الصراط [أي الطريق] المستقيم الذي يوصل إلى الفلاح. وقد ذكرنا مِنْ قَبْلُ قوله سبحانه في سورة الأعلى: ﴿الذي قَدَّرَ.. فهدى﴾ [الأعلى: 3]، ونذكر كذلك الوعد الذي قطعه الله سبحانه على ذاته الكريمة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: 12].

وهذه الهداية أي الدلالة على الطريق المستقيم تكون دلالة على مَرَّاحِل، إن صحَّ التعبير. فالله سبحانه يكشف للإنسان بداية هذا الطريق. فإذا قَرَّرَ الإنسان بإرادته واختياره أن يخطو الخطوة الأولى في هذا الطريق، أخذت تتكشف له شيئاً فشيئاً معالم الطريق، وتَوَّالت خطوات مسيرته في هذا الصراط المستقيم. فالخطوة

السابقة للأولى إذن تكون من فضل الله عز وجل: يكشف للإنسان بعض محاسن طريقه القويم. ولكن الخطوة الأولى التي تليها، لابد أن تكون من الإنسان نفسه. فالله سبحانه قد هدى الإنسان أي دَلَّهُ على طريق الفلاح، فإذا اهتدى الإنسان بهذه الهداية الأولى، زاده الله من هذه الهداية وآتاه سلاحاً آخر يتّقي به الانحراف عن هذا الصراط المستقيم وهو سلاح التقوى:

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: 17]؛

﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ [مريم:

76].

« إذا تقَرَّبَ العبدُ إلَيَّ شبراً تقَرَّبْتُ إليه ذراعاً، وإذا تقَرَّبَ إلَيَّ ذراعاً تقَرَّبْتُ منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيتُهُ هَرَوَلةً » [حديث

قدسي رواه البخاري عن أنس عن النبي ﷺ في ما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ.

*

هما إذن إرادتان في كتاب الله عزّ وجلّ: إرادة كونية، وإرادة دينية.

(1) فالإرادة الكونية هي إرادة الله المستلزمة لوقوع المراد، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [المائدة: 17]، وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ [الكهف: 82]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: 14]، وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ..﴾ [القصص: 27]

[5]، وقوله: ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾
[غافر: 31].

(2) أما الإرادة الدينية الشرعية فهي
محبةُ الله للمُراد ورضاه عنه، ومحبةُ
لفاعليه ورضاه عنهم، كما في قوله تعالى:
﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾
[البقرة: 185]، وقوله: ﴿ما يريد الله ليجعل
عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم﴾
[المائدة: 6]، وقوله: ﴿يريد الله ليبين لكم،
ويهديكم سنن الذين من قبلكم، ويتوب
عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن
يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون
الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله
أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفاً﴾
[النساء: 26-28].

وهما إذن موقفان يقفهما المرء أمام
قوانين الله الكونية والشرعية. فقوانينُ الله

وإرادته الشرعية، التي تتضمن الأمر
بالخير والنهي عن الشر، ينبغي أن يقف
المرء منها موقف الطاعة والامتثال.
وقوانينُ الله وإرادته الكونية، التي
تتضمنُ الأقدار، ينبغي للمرء أن يقف
منها موقف الصبر والتسليم. كما قال
الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله [في
فتوح الغيب]: « لا بد لكل مؤمن في سائر
أحواله من ثلاثة أشياء: أمرٌ يمتثلُه، ونهيٌ
يجتنبهه، وقدرٌ يرضى به ». وفي ذلك
مطابقةٌ لقول الله تعالى:

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90]؛

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: 120]؛

وقوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: 186]..

وقول النبي ﷺ: « الصَّبْرُ ضِيَاءٌ » [رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري].

ويتجلّى مما تقدّم، موقفُ المسلم من القوانين الشرعية والكونية بكل وضوح.

فموقفه من الأولى موقفُ الاستسلام أي الامتثال؛

وموقفه من الثانية موقفُ التسليم أي الصبر والرضى.

والاستسلامُ والتسليمُ هما دعامتا الإسلام، الذي هو دين الله الذي أرسل به جميع رسله، وأنزل به كل كتبه.

وموقفُ الاستسلام أي امتثال الأمر، وما يستتبعه من سلوك، يطلق عليه في

مصطلح الإسلام اسم العبادة. والعبادة تتضمن غاية الخضوع مع غاية الحب، ولا يستحقهما معاً إلا الله عز وجل. فالإنسان قد يحب حبيبه أو صديقه حباً شديداً ولكنه لا يذلُّ له، وهو قد يذلُّ لطاغية أو حاكم ولكنه لا يحبه غاية الحب. أما غاية الحب ممزوجة بغاية الخضوع فهي لله عز وجل وحده. فإذا وقف الإنسان مثل هذا الموقف – أي أقصى الحب مع أقصى الذل – من غير الله عز وجل، فإنه يكون قد اتخذ هذا الغير إلهاً له من دون الله، أو اتخذته شريكاً مع الله، وكلاهما يُنافي الإسلام الصحيح.

*

وبما أن الله سبحانه قد قدَّر الإنسان، أي مكَّنه من اتخاذ القرار، فإن أيَّ قرار يتخذه

يجب أن يكون مقترناً بالنية. فكل عمل يقوم به الإنسان وهو ينوي الامتثال لأمر الله عز وجل يُعدُّ عبادة، حتى ولو لم يكن هذا العمل من المأمورات الشرعية. ذلك لأن العبادة كما لا يخفى هي التعبير العملي عن موقف، وهذا الموقف هو الاستسلام لله الذي يبتغي به المرء وجه الله، أي لا يقصد فيه إلا الله وحده، وهذا هو معنى قوله سبحانه: ﴿الله الصَّمَد﴾ [الإخلاص: 2].

فالصَّمَد(*) هو المقصود والغاية. فكل عمل يأتيه المرء وغايته إرضاء الله عز وجل يُعدُّ عبادة لأنه اتخذ تعبيراً عن موقف، فحواه وموداه الحرص على رضى الله.

(*) الصمد: المقصود، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول
عن هذه السورة - سورة الإخلاص - في حديث رواه
البخاري عن أبي سعيد الخدري: « والذي نفسي بيده
إنها لتعدل ثلث القرآن ».

ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال
لسعد: « إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه
الله، إلا ازددت بها درجةً ورفعةً، حتى
اللقمة في في [فم] امرأتك ».

وقد ذكرنا من قبل قولَ النبي ﷺ: « في
بُضْع أحدكم صدقة [أي في اتصاله الجنسي
بامراته] قالوا: يا رسول الله ! أيأتي أحدنا
شهوته ويكون له فيها أجر ؟! قال: «
أرأيتم لو وضعها في الحرام أما كان عليه
وزر ؟ » قالوا: بلى يا رسول الله ! قال: «
فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها
أجر؛ فلم تَعْتَدُون بالحرام ولا تَعْتَدُون
بالحلال ؟! » [رواه البخاري عن أبي ذر].

يقول الإمام ابن تيمية [في رسالة العبودية]
تعقيباً على ذلك:

« وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح
يقصد أن يَعدِلَ عمّا حرّمه الله إلى ما
أباحه الله، ويقصد فعل المباح معتقداً أن
الله أباحه، والله يحبُّ أن يؤخذ برُخصه
كما يكره أن تؤتى معصيته.. ولهذا أحبّ
القَصْر (قصر الصلاة) والفطر في السفر.
فعُدُولُ المؤمن عن الرهبانية والتشديد
وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله، إلى ما
يحبه الله من الرخصة، هو من الحسنات
التي يثيبه الله عليها وإن فعل مباحاً، لما
اقترن به [أي بالفعل] من الاعتقاد والقصد
الذين كلاهما طاعة لله ورسوله، فإنما
الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى
..»

*

نعود الآن إلى عالم الغيب فنقول، إن الله سبحانه وتعالى وهو عالم الغيب، يُطْلَعُ بعض مَنْ يختارهم من خلقه على لمحات من عالم الغيب - وهو على ذلك إذا يشاء قدير - وهي لمحات غايثها هداية البشر وإسعادهم. وهؤلاء الذين يُطلعهم على بعض ما يشاء من عالم الغيب، يُطلق عليهم اسم الأنبياء أو الرُّسُل. يقول الله عز وجل:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا؛
إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26،
27].

ويكون هذا الإطلاع على بعض عالم الغيب، وسيلةً لتأييد هذا الرسول إذا جاء يدعو قومه إلى الخير. فإذا أخبرهم بأمر سوف يحدث دون أن يتوقعوه، أو دون أن يكون لديهم من البَيِّنَات أنه سيحدث، ثم

حَدَّثَ هَذَا الْأَمْرَ فِعْلاً، وَتَكَرَّرَ مِثْلَ ذَلِكَ،
كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى اتِّسَاعِ عِلْمِهِ، وَعَلَى
أَنَّهُ يَسْتَقِي مَعْرِفَتَهُ مِنْ مَصْدَرٍ أَعْلَى مِنْ
طَاقَاتِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

هذه واحدة.

وَأُخْرَى، أَنَّ قَوَانِينَ عَالَمِ الْغَيْبِ الْكُونِيَّةِ
قَدْ تَوَثَّرَ كَمَا قُلْنَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ. وَلِذَلِكَ
يَبْقَى الْإِنْسَانُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِذَلِكَ، مُؤَمَّلًا
بِمَعُونَةٍ تَأْتِيهِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، عَلَى
النَّهْوِضِ بِوَاجِبِهِ وَتَحْقِيقِ قَوَانِينِ اللَّهِ
الشَّرْعِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ. وَهُوَ بِهَذِهِ الْاِسْتِعَانَةِ
يَشْعُرُ بِأَنَّهُ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَيَعْتَمِدُ
(أَوْ يَتَّكِلُ أَوْ يَتَوَكَّلُ) عَلَى قُوَّةٍ عَظْمَى،
فِيَتَحَوَّلُ مِنْ إِنْسَانٍ ضَعِيفٍ إِلَى إِنْسَانٍ
قَوِيٍّ، وَهَذَا مَظْهَرٌ آخَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ
الْإِيجَابِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر
الجيلاني رحمه الله - في ما ذَكَرَ عنه - :
« بَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ إِذَا وَصَلُوا إِلَى
الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ أَمْسَكُوا، إِلَّا أَنَا فَإِنِّي
انْفَتَحْتُ لِي فِيهِ رَوْزَنَةٌ [نافذة]، فَنَازَعْتُ
أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ، وَالرَّجُلَ مَنْ
يَكُونُ مَنَازِعًا لِلْقَدَرِ لَا مَنْ يَكُونُ مُوَافِقًا
لِلْقَدَرِ! ».

نَقَلَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ
فِي رِسَالَةِ « الْعُبُودِيَّةِ » وَعَلَّقَ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ:

« وَالَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الَّذِي
أَمَرَ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكِنْ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ
غَلَطُوا، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَشْهَدُونَ مَا يُقَدَّرُ عَلَى
أَحَدِهِمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، أَوْ مَا يُقَدَّرُ
عَلَى النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مِنَ الْكُفْرِ،
وَيَشْهَدُونَ أَنَّ هَذَا جَارٍ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ
وَقَدَرِهِ، دَاخِلٌ فِي حُكْمِ رَبُوبِيَّتِهِ وَمُقْتَضَى

مشيئته، فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته
 والرضاء به ونحو ذلك ديناً وطريقاً
 وعبادةً، فيُضاهون المشركين الذين قالوا:
 ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا
 حرّمنا من شيء﴾ [الأنعام: 148]، وقالوا:
 ﴿أنطعم مَنْ لو يشاء الله أطعمه؟﴾ [يس:
 47]، وقالوا: ﴿لو شاء الرحمن ما
 عبَدناهم﴾ [الزخرف: 20]، ولو هُذُوا لعلموا
 أَنَّ القدرَ أُمِرْنَا أن نرضى به ونصبر
 على موجهه في المصائب التي تصيبنا
 كالفقر والمرض والخوف، قال تعالى: ﴿ما
 أصاب من مصيبة إلا باذن الله، ومنْ
 يؤمن بالله يَهْدِ قلبه﴾ [التغابن: 11]، قال
 بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة
 فيعلم أنَّها من عند الله فيرضى ويسلّم.
 وقال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في
 الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من

قبل أن نبرأها؛ إِنَّ ذلك على الله يسير.
لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما
آتاكم ﴿[الحديد: 22] ...﴾.

إلى أن يقول: « ... وأما المؤمنون بالله
ورسوله ... فهولاء يعلمون أَنَّ الله أمر
بطاعته وطاعة رسوله، ونهى عن
معصيته ومعصية رسوله، وأَنَّهُ لا يحب
الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنَّ على
الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره ...
فيجتهدون في إقامة دينه، مستعينين به،
رافعين مُزيلين بذلك ما قُدِّرَ من السيئات،
دافعين بذلك ما قد يُخاف من آثار ذلك،
كما يُزيل الإنسانُ الجوعَ الحاضر بالأكل،
ويدفع به الجوعَ المستقبل، وكذلك إذا آن
أوان البرد دفعه باللباس، وكذلك كل
مطلوب يُدفع به مكروهه، كما قالوا للنبي
ﷺ: يا رسول الله ! أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى

بها، ورُقِيَ نسترقى بها، وثَقَاةً نَتَّقِي بها، هل تردُّ من قَدَرِ الله شيئاً؟ فقال: «هي من قَدَرِ الله». وفي الحديث: «إِنَّ الدَّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ [أي يطرعان] بين السماء والأرض! » [رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد].

يقول رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف؛ وفي كلِّ خيرٍ! احرصْ على ما ينفعُك، واستعنْ بالله، ولا تعجز؛ وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان». [رواه مسلم عن أبي هريرة].

أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِحِرْصِ الْإِنْسَانِ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ؛ وَنَهَاهُ عَنِ الْعِجْزِ، وَهُوَ الْإِضَاعَةُ وَالتَّفْرِيطُ وَالتَّوَانِي، كَمَا

قال في الحديث الآخر: «الكَيِّسُ [العاقل الحازم] مَنْ دان نفسه [أي ضَبَطَهَا وتحكَّم بها] وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمانى» [رواه الترمذي عن شداد بن أوس، وقال: حديث حسن]. ثم لما أَمَرَهُ بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز، أَمَرَهُ إِذَا غَلَبَهُ أمرٌ أَنْ ينظر إلى القدر ويقول: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَلَ؛ ولا يتحسَّرَ ويتلهف ويحزن، ويقول: لو أَنِي فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، فإنْ لو تفتح عمل الشيطان، من حيث إنها تُبقي المَرْءَ حَبِيسَ حسرته، وضحية جزعه، وتُحوِّلُهُ إلى إنسان سَلْبِي منهار.

فالمصائبُ التي تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر، فإن هذا هو الذي ينفعهم. وأما لو مُهِمَّ لمن كان سبباً فيها فلا فائدة لهم في ذلك. وكذلك ما فاتهم من الأمور

التي تنفعهم، يُؤمرون في ذلك بالنظر إلى القَدَر؛ وأما التأسُّف والحزن فلا فائدة فيه. وأما ما كان بسبب أعمالهم، فليجتهدوا في التوبة من الماضي، والإصلاح في المستقبل، فإن هذا الأمر ينفعهم، وهو في مقدورهم بمعونة الله لهم.

والتوكُّل إنما يصحُّ مع القيام بما أمر الله به العبد، ليكون عابداً له مستعيناً به: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وإلا فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ، فَقَدْ يَكُونُ مَا أَضَاعَهُ مِنَ الْأَمْرِ أَوْلَىٰ مِمَّا قَامَ بِهِ مِنَ التَّوَكُّلِ، كَمَا أَنَّ مَنْ قَامَ بِأَمْرٍ وَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَلَمْ يَسْتَعِزْ بِهِ، قَدْ يَكُونُ مَا تَرَكَهُ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ أَوْلَىٰ بِهِ مِمَّا يَفْعَلُهُ مِنَ الْأَمْرِ. وَالتَّوَكُّلُ يَعْنِي الثِّقَةُ بِاللَّهِ، وَالثِّقَةُ بِوَعْدِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، بِأَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِمَا يَنْبَغِي لَهُمْ فِي تَحْصِيلِ مَا يَنْفَعُهُمْ، فَإِنْ

قوانين الله سبحانه تقتضي نجاحهم في مساعيهم وفلاحهم. وهذه الثقة كذلك ضرورية لتكوين الشخصية الإيجابية. ومن كان واثقاً بالله، أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره، أمكن أن يدع هواه ويطيع أمر مولاه، فيكون كيّساً يتحكم في نفسه وهواه، لا عاجزاً يتوانى ويتواكل ويتمنى الأماني.

وقد قال النبي ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح بيطاناً» [رواه الترمذي عن عمر، وقال: حديث حسن]، فالله سبحانه يرزق الطير لأنها تبحث عن رزقها طوال النهار، وتتعب في سبيل ذلك، ولذلك فإنها تغدو [أي: تذهب أول النهار] خماصاً [أي: ضامرة البطون من الجوع] وتروح [أي: ترجع آخر النهار] بيطاناً [أي:

ممتلئة البطون]. ولو بقيت في أوكارها دون
أن تبذل جهدها لَمَا رزقها الله عزّ وجل
بحجة أنها متوكّلة عليه.

*

موقف متوازن

وهكذا فإن الإسلام يُصَوِّرُ مفهوم القَدَر
بشكل هو أروع ما يمكن أن يصل إليه
التصوُّر.. فالمسلم لا يؤمن بأنه مجبر
على ما يأتيه من أفعال.. ذلك قول
المشركين: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا
آبأؤنا ولا حرّمنا من شيء﴾ [الأنعام: 148]؛
ولا بأنه مختار مطلق الاختيار من تلقاء
نفسه.. يفعل ما يشاء هو وحده، ويقوم بما
يريد.. فيفرح (أي يغترُّ) حين يأتي عملاً
خَيْراً، ويَصْدَم حين يُصاب بمصيبة
فادحة.. ولكن: الاعتدال!.. أنه مكلف:

أمره الله وعليه أن يطيع أمره.. وكَلَّفَه
وعليه أن يتَّبَعَ تكليفه.. وبَيَّنَّ له سُبُل
عبادته وعليه أن يعبدَه كما بيَّنَّ له.. ﴿ :
إياك نعبد﴾ !

وأنه بالإضافة إلى ذلك محتاجٌ إلى
معونة الله وإرشاده وهدايته.. مفتقرٌ إلى
إرادة الله لتحقيق ما يصبو إليه.. ودعاؤه
إياه من العبادة.. بل « الدعاء هو العبادة »
كما قال النبي عليه الصلاة والسلام (*): ﴿ :
إياك نستعين﴾ !

وبإيمان الإنسان بالقدر، تبقى حياته
خصبةً منتجة، ولا تعثره الصدمات عن
متابعة الطريق، ولا تُقعدُه المصائب عن
القيام بالواجب..

في الإيمان بالقدر حلٌّ لمشاكل
الماضي.. وارتكازٌ متين للمستقبل.. يجعلُ

قلبَ المؤمن في اطمئنان دائم لما جرى
من قِبَلِ الله عز وجل ﴿ما أصاب من

(*) رواه أبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير وقال:
حديث حسن صحيح.

مصيبه إلا بإذن الله.. ومن يؤمن بالله يَهْدِ
قلبه! ﴿التغابن: 11﴾.

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض
ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن
نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكي لا
تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا [تغثروا]
بما آتاكم﴾ [الحديد: 22 و23].

﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه
خيراً كثيراً﴾ [النساء: 19].

جملةٌ واحدةٌ تحل المشكلة الكبرى. وتُقيِّمُ
الإنسان مُقاماً واقعياً في الحياة. فالمؤمن
القوي، كما يقول شاعر الإسلام محمد

إقبال: « هو بنفسه قضاء الله الغالب وقَدَرُهُ
الذي لا يُرَدُّ ». وإيمانه بالقدر يحطم في
نفسه روح الخمود والكسل.. كما يحطم
روح الغرور واليأس.. ويجعله دائماً قوياً
لأنه يستعين بالله.. والله أكبر !.

« يا غلام ! إني أعلمك كلمات: احفظ الله
يحفظك.. احفظ الله تجده تجاهك..

إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت
فاستعن بالله.

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن
ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد
كتبه الله لك ! ولو اجتمعوا على أن
يضرُّوك بشيء، لم يضرُّوك إلا بشيء قد
كتبه الله عليك ! رُفِعَت الأَقلام.. وَجَفَّت
الصحف ! ». [رواه الترمذي عن ابن عباس وقال:
حديث حسن صحيح].

وبذلك يجعل الإسلام من المسلم إنساناً
إيجابياً:

• لأنه يضعه مباشرة أمام مسؤولياته،
ولا يسمح له بالتهرب لحظة واحدة من
هذه المسؤوليات، بكل ما في هذه الكلمة
من معنى.

• ولأنه يضعه دائماً في وضع كفاح:
كفاح للوصول إلى الرزق الحلال.. وكفاح
للشر في المجتمع.

• ولأنه يكره الضعف ويسْتَنْهَضُ
الضعفاء، ولا يسمح بالتخاذل والاستسلام.

فالإنسان في نظر الإسلام ليس روحاً
علوياً هبط من السماء.. لا! وليس حيواناً
راقياً، ولا حيواناً ناطقاً، ولا حيواناً مدنياً
بالطبع... ولكنه مخلوقٌ مكَلَّف! ²⁸

والإسلام واقعيٌّ حين لا يطلب من
الإنسان شيئاً في خارج حدود وسعه
وطاقته وإمكاناته:

﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة:
286].

﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ [الطلاق:
7].

ولكنَّ الإسلام واقعيٌّ كذلك، حين يجعله
في حدود هذه الطاقات والإمكانات
والوسع، مسؤولاً كاملاً المسؤولية:

﴿قَوِّرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92-93].

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 93].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44].

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

﴿كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ﴾.

ومزايا هذه المسؤولية الإسلامية أنها
أولاً تُقيم الإنسان مباشرة أمام مسؤولياته
بصورة فردية:

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنْ
سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: 39-40].

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾
[الإسراء: 13].

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:
21].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:
38].

وأنها ثانياً لا تسأله عن مسؤولية سواه،
ولا تحمله مسؤولية أحدٍ مخففة عن ذلك
الأحد:

﴿ولا تُسألون عما كانوا يعملون﴾ [البقرة:
134].

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الزمر:
7].

﴿قال: معاذَ الله أن نأخذ إلا من وجدنا
متاعنا عنده! إنا إذن لظالمون﴾ [يوسف:
79].

وأنها ثالثاً مسؤولية أمام الله، تجعل
الإنسان دائماً على حذر وعلى مراقبة
لأعماله، خشية أن يُخلّ بهذه المسؤولية
إخلاقاً يُحاسب عليه يوم القيامة.. يوم ﴿لا

تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴿يس: 54﴾: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِم
اللَّهُ دِينَهُمْ [حَسَابَهُمْ] الْحَقَّ﴾ [النور: 2].

وهذه النقطة الثالثة من أهم مزايا
المسؤولية في الإسلام. ذلك لأنها تخلق في
الإنسان نوعاً من السلوك يُطلق عليه في
المصطلح الإسلامي اسم **التقوى**، يبدأ
بالإحسان، وهو:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه
فإنه يراك» [متفق عليه عن عمر بن الخطاب].

ويجعل كثيراً من الاختبارات للمؤمن
لتحقيق هذه التقوى.. هذه المراقبة لله..
كالصيام الذي هو لله وهو يجزي به، لأنه
قد يصوم المرء أمام الناس تظاهراً وهو
مفطر في بيته، بينه وبين نفسه، إن لم يكن
من المتقين، ولذلك كَتَبَ الله الصيام:

﴿يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام
كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعالم
تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 182].

فإذا كانت الشرائع والنُظم الأخرى تفسح
للإنسان مجالاً للتهرب من مسؤوليته حين
لا يكون عليه رقيب، فإن الإسلام لا يفسح
له مثل هذا المجال، وهو مسؤولٌ في كل
لحظة:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ
الشَّمَالِ قَعِيدٌ.. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17 و18].

والذي يَفْقَهُ هذا النمط من التربية، لا
يستغرب بعدئذ أن يأتي بدويٌّ من بُدَاة
الصحراء، بأعظم لؤلؤة من كنوز كسرى،
وهو يستترها تحت ردائه المرقّع، لأمير

المؤمنين عمر يسلمه إياها.. فيسأله بعض
من حضر: ألم تجد غيرها؟ فيجيبه جواب
المسلم العارف بمسؤولياته: لولا الله ما
أتيت بها! ثم يسألونه من هو، فيأبى
الإجابة كي لا ينقص من ثوابه عند الله
عز وجل!

مجابهة الواقع

ولنظام المسؤولية في الإسلام مزية
رائعة لا يمكنك أن تجد مثلها في أي
نظام آخر.. ذلك أنه لا يسمح للمسلم أن
يتهرّب من هذه المسؤولية... فالإسلام كما
ذكرنا يخلق من المسلم شخصاً إيجابياً،
وها هنا مظهرٌ من أجلى مظاهر هذه
الإيجابية: لا يسمح الإسلام للمسلم أن
يهرب من واقعه، ولكنه يريد له أن يبقى
دائماً في صميم هذا الواقع!

وَلَئِنْ كَانَ الْفِرَارُ مِنَ الْمَوَاجِهَةِ أَمْرًا
يَسْتَنْكَرُهُ الْإِسْلَامُ فِي حَالَةِ الْحَرْبِ: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا
تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ.. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ
دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ
فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 15 و16]، فَإِنَّ الْفِرَارَ مِنْ
أَيَّةِ مَوَاجِهَةٍ فِي أَيِّ مَوْقِفٍ، لَهُوَ كَذَلِكَ أَمْرٌ
يَسْتَنْكَرُهُ الْإِسْلَامُ وَلَا يَجِيزُهُ بِأَيِّ شَكْلِ مَنْ
الْأَشْكَالُ!..

ولعل ذلك أحدُ أسبابِ تحريمِ الخمرِ
والمخدراتِ وكلِّ مسكرٍ، مما يلجأ إليه
كثير من الناس لنسيانِ واقعِ أليمٍ أو الفرارِ
منه. فالإسلام لا يسمح للمسلم أبداً أن
يَنْسَى أو يَتَنَاسَى واقعَهُ، لأن في ذلك
الخطوة الأولى من خطوات الضعف التي
يعقبها الانهيار... والإسلام يَعُدُّ ذلك إثماً

كبيراً، أو على الأقل شعبة من شُعب الإثم الكبير.

وقد رأينا كيف انخفض تعاطي المسكرات والمخدرات في فلسطين مع الانتفاضة المباركة، لأن الموقف الإيجابي الذي قرّر الإنسان الفلسطيني أن يقفه، بأن يُقارعَ طغيانَ الاحتلال بدّل أن يقف منه موقف المهزوم، هذا الموقف الإيجابي هو موقفٌ نفسي لا يتجزأ، فقد أقلع هذا الإنسان نفسه عن المسكرات والمخدرات التي كان يلجأ إليها فراراً من مشاكله بعد أن قرّر أن يجابه هذه المشاكل مجابهةً إيجابية شجاعة.

وقُلْ مثل ذلك في عملية المصالحة وإعادة البناء التي جاء بها الرئيس الروسي غورباشوف، والتي ما كان لها أن تنجح لولا أن أعلن الحرب في الوقت

نفسه على "الفودكا" التي كان يفرُّ إليها
المواطن السوفييتي من مشاكله بَدَل أن
يجابهها.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ !

وبعد، فقد خلق الله سبحانه وتعالى
الإنسانَ مَفْطُوراً على حب المعرفة.. منذ
أن عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا.. وأَرَادَ عَزَّ وَجَلَّ
أن يُيَسِّرَ لِلْإِنْسَانِ وَسْطاً يستطيع فيه أن
يستغلَّ حبَّ المعرفة هذا إلى أبعد الحدود..
فجعلَه في الدنيا مَكْفَافاً بالبحث عن
المعرفة، وخاطَبَ بذلك مشاعره وحواسه
كما خاطَبَ ضميره وعقله.. ودعاه إلى أن
يبحث ويفكر ويتأمل، ومنَّ عليه بذلك،
وعَدَّه أمراً يستحق الشكران:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النحل: 87].

﴿اقرأ وربك الأكرم.. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق: 3-5].

ونعى على الذين لا يستغلّون هذه الهبات التي هي الحواس والعقل، واعتبرهم كالبهائم بل أقل من ذلك، لأنهم وهبوا هذه الهبات ولكنهم لم يستعملوها:

﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها؛ أولئك كالأنعام بل هم أضلّ!﴾ [الأعراف: 179].

ومن هنا تتبع نقطة أخرى من نقاط الإيجابية الإسلامية، هي ضرورة استغلال هذه الحواس وهذا العقل، وعدم جواز

إِهْمَالَهُمَا، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ جَوَازِ اتِّبَاعِ
أَيِّ رَأْيٍ دُونَ عِلْمٍ بِهِ وَدُونَ تَحَقُّقٍ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. إِنَّ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

*

فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْشَأَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْأَرْضِ،
وَاسْتَعْمَرَهُ فِيهَا [أَي: كَلَّفَهُ بَاعِمَارَهَا] لِيَنْظُرَ
كَيْفَ يَعْمَلُ:

﴿أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 61].

وَالْقُرْآنُ يَجْعَلُ الْأَرْضَ مُسْتَقْرَأً وَمَتَاعاً
[أَي: مَكَانَ انْتِفَاعٍ] لِلْإِنْسَانِ: ﴿وَلَكُمْ فِي

الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿البقرة: 36﴾، وهو أمرٌ ينبغي أن يشكر المرء ربّه عليه: ﴿ولقد مكّناكم في الأرض، وجعلنا لكم فيها معاش، قليلاً ما تشكرون﴾ [الأعراف: 9].

ولأمرٍ ما، أعقب خَلْقَ البشر كفاحٍ مرير بين الناس. وفي مرحلة هذا الصراع والتزاحم، على الإنسان المسلم أن يثبت وجوده!

عليه أن يثبت وجوده بالنسبة لهذه الأرض التي استعمره الله فيها، فيستغلّ رزقها من حِلّه:

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تَطْغَوْا فيه فيحلّ عليكم غضبي﴾ [طه: 81].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾
[البقرة: 266].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168].

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [البقرة: 168].

حتى إن الله يجعل تحريم الحلال بمنزلة استحلال الحرام: ﴿لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ!﴾ [المائدة: 87]، بل أشدَّ شراً ، لأنه يَقْرُنُهُ بِالشَّرِّكَ: في القرآن: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

[النحل: 35]؛ وفي الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حُنَفَاءَ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم [أي حَرَفَتْهُمْ] عن دينهم، وحرَّمتُ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» [رواه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي].

فالإسلام لا يسمح للمسلم أن يهرب من الرزق، لأن في هذا شيئاً من السلبية غير قليل.. صحيح أنه لا يجعل الدنيا كلَّ شيء في الموضوع، ولا يسمح للمسلم أن يتكالب عليها ولا أن يقصدها لذاتها.. ولكن ليس في الإسلام إفراطٌ ولا تفريط:

﴿وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77].
﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 200].

كان رسول الله ﷺ جالساً ومعه أصحابه
 فمرَّ رجلٌ، سأل عنه النبي عليه السلام
 فقالوا: هو زاهد متعبدٌ فقال: «من يطعمه؟»
 «قالوا: كلُّنا نطعمه، قال: «من يكسوه؟»
 «قالوا: كلُّنا نكسوه، قال: «كلُّكم خير
 منه! لأنَّ يأخذ أحدكم حبله على غاربه
 فيحتطب فيأكل، خيرٌ له من أن يكون عالَةً
 على الناس.. اليد العليا خيرٌ من اليد
 السفلى».

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ بَعْضَ النَّاqِدِينَ يَرَوْنَ
 أَنَّ الْإِسْلَامَ مُنَاقِضٌ بِطَبِيعَتِهِ لِلْعَمَلِ وَالسَّعْيِ
 فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ
 أَنَّهُ التَّوَكُّلُ وَتَسْلِيمُ الْأَمْرِ لِلَّهِ، بِغَيْرِ حَاجَةٍ

إلى الحول والقوة، لأنه لا حول ولا قوة
إلا بالله.

وجهل هؤلاء بالفهم أكبر من جهلهم
باللغة.. لأن الإسلام إلى الله وحده وتحريم
الإسلام لغيره، يجعل المسلم يأبى أن يُسلم
للظلم أو يُسلم للتحكم من قبل أي من
الناس أو من قبل صروف الحياة، وينهاه
عن أن يستسلم للخيبة والقسمة الجائرة،
وأن يستسلم لكل قضاء لا يرضاه ويعلم
أن الله لا يرضاه!

وفي الحديث: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ [أي:
دفاعاً عن ماله] فهو شهيد، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ
دَمِهِ فهو شهيد، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهو
شهيد، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فهو شهيد» [رواه
أبو داود عن سعيد بن زيد، والترمذي وقال: حديث
حسن صحيح]. وفي الحديث الذي رواه مسلم عن

أبي هريرة: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذَ مالي؟ قال: «فلا تُعطِه مَالك!» قال: أرأيتَ إن قاتَلَنِي؟ قال: «قاتِلْهُ!» قال: أرأيتَ إن قَتَلَنِي؟ قال: «فأنتَ شهيد!» قال: أرأيتَ إن قتلته؟ قال: «هو في النار!».

إنَّ الإسلام قد قام منذ كان في الدنيا أنبياء جاؤوا بالإسلام، بعمل أول سَبَقِ الأعمال كلها، هو الثورة على الأصنام وتحطيم الطواغيت.. ومن هنا نستطيع أن نتبيَّن لماذا قاوم النمرود سيدنا إبراهيم ﷺ، ولماذا وقف فرعون في وجه موسى عليه السلام.

إنَّ النمرود لم يجادل سيدنا إبراهيم في أن الله هو الخالق لهذا الكون، ولكنه جادَلَه فيما تيقَّنه من أنه أتى يريد أن يحطم

طغيانه وجبروته على الناس.. فكان أن
ادّعى أنه إذا غضب على إنسان وقرر أن
يموت فسيموت، وإذا عفا عنه حيّ:

﴿ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه
أن آتاه الله الملك؛ إذ قال إبراهيم: ربي
الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت﴾
[البقرة: 258].

وإنَّ فرعون أحسَّ الخطر في موسى،
لأنه جاء يبعث أمته الخائفة لتتحرَّر من
عبوديتها له:

﴿إنَّ فرعون علّا في الأرض وجعل
أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم: يذبح
أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من
المفسدين﴾ [القصص: 4].

ولذلك قال له سيدنا موسى عليه
السلام: ﴿وتلك نعمةٌ تمُّنها عليَّ أن عبَدْتَ

[أَيِ اسْتَعْبَدْتَ] بني إسرائيل؟! ﴿﴾ [الشعراء: 22].

ولا أدلّ على مبلغ الذلّة والضّعة
والسلبيّة البالغة في قوم موسى الذين
عبدوا فرعون إذ ذاك من دون الله أو
أشركوه بالله، من ذلك الموقف الذي تلاً
نجاتهم من فرعون، إذ قال لهم موسى:

﴿يا قوم! ادخلوا الأرض المقدسة التي
كَتَبَ اللهُ لكم ولا تَرْتَدُّوا على أدباركم
فتنقلبوا خاسرين.. قالوا: يا موسى! إن
فيها قوماً جبّارين، وإنا لن ندخلها حتى
يخرجوا منها!﴾ [المائدة: 21-22]. ﴿إنا لن
ندخلها أبداً ما داموا فيها؛ فاذهب أنت
وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون!﴾ [المائدة: 24].

من أجل ذلك كتب الله عليهم التيه.. وما هو التيه؟ إنه تربية جيل جديد يؤمن بالله وحده ولا يستسلم لغيره.. في الصحراء التي تربّي المرء على الخشونة والأثقة والإيجابية البالغة.. وهكذا فبعد أن انصَرَمَتْ أربعون سنة، انقضى خلالها الجيل السلبي الخانع، ونشأ الجيل الإيجابي المسلم، استطاعوا أن يدخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لهم، ويتبوأوا فيها المركز الذي أراده الله.

إِنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللّهِ شَيْئاً مِّمَّا كَانَ حَقِيراً
اسْتَعْبَدَهُ ذَلِكَ الشَّيْءُ، وَاللّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَكُلُّهُ
إِلَيْهِ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ
[شريك] لِمَنْ أَشْرَكَ بِي: مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئاً
فَإِنَّ عَمَلَهُ قَلِيلٌ وَكَثِيرَهُ لَشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ

بي .. أنا عنه غني ! » [رواه الإمام أحمد عن
شدّاد بن أوس].

وإنَّ في إخلاص الإسلام لله، والانخلاع
والانعتاق من عبودية كل ما سواه من
أشخاص أو نفوس أو أهواء، لأغنى منبع
للإيجابية الخالصة..

إنَّ المسلم الذي يدوس بقدمه على الدنيا
وعلى ما فيها من طغاة وجبارين، ولا
يبالي بما فيها من مصاعب وأهوال
وشرور لأنه يعلم أن الله معه و(الله
أكبر).. لهُوَ المثلُّ الحقُّ للإيجابية الكاملة
!

إن الإسلام لله عز وجل وحده، لهُوَ
مِعْرَاجٌ يَرْقَى به المسلم إلى الله، من أسفل
سافلين إلى أعلى عليين: ﴿يا أيها الإنسان

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأَ قِيَهُ ﴿٦﴾
[الانشقاق: 6].

*

في سبيل الله والمستضعفين

من هنا يمكن أن تستجلي السرّ في أن
الله عز وجل يهاجم الضعف دائماً ولا
يجعله عذراً للضعيف أبداً:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ
رَبِّهِمْ يُرْجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ الْقَوْلِ..
يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا:
لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا: أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ
الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مَجْرَمِينَ﴾
[سبأ: 31-32].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي
أَنْفُسِهِمْ قَالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا
مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ.. قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ
أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُولَئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾
[النساء: 97].

ويريد دائماً أن يخلق من صميم هذا
الضعف قوةً هائلةً بسلح عظيم هو
الصبر، وإذ ذاك يخفف الله عز وجل عن
المؤمن:

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ – وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا – فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا
مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66].

﴿ونريد أن نمنَّ على الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُم

الوارثين، ونمكّن لهم في الأرض ﴿
[القصص: 5 و6].

ويزود القرآن المسلم بزادٍ للرجولة
الحقّة هو الصبرُ في البأساء والضراء:

﴿والصابرين في البأساء والضراء
وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك
هم المتقون﴾ [البقرة: 177].

*

ثم إن الإسلام لا يسمح للمسلم أن يكون
ساذجاً يُستغلُّ ُ من قِبَلِ أيِّ كان، بل
يريد منه أن يكون واعياً:

مات إبراهيم ابنُ رسول الله الحبيب،
وبينما كانوا يدفنونَه إذ كُسِفَت الشمس،
فضجَّ الناس وقالوا: كُسِفَت الشمس لموت
إبراهيم!

كان بإمكان النبي عليه السلام أن يغضَّ الطرف عن هذه الحادثة في مثل هذا الموقف.. ولكنه وهو رسول الإسلام.. دين الإيجابية في كل شيء.. في العقل والتفكير.. أبى عليهم أن يفكروا بهذه السذاجة.. فقرّر – وهو في موقف حزنه العميق هذا – بكل صراحة ووضوح:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ! لا تَنكَسِفَانِ لموت أحد ولا لحياته» [رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة].
ولا يسمح الإسلام للمسلم أن يشلَّ هذا العقل والتفكير، وأن يتابع أياً كان على العمياء:

﴿قالوا بل نتَّبِع ما ألفينا عليه آباءنا.. أُولُو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟﴾ [البقرة: 170].

« لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً: يَقُولُ أَنَا مَعَ النَّاسِ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسَ أَحْسَنْتَ، وَإِنْ أَسَاءُوا أَسَأْتُ.. وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسَ أَنْ تَحْسَنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَنْ تَجْتَنِبُوا إِسَاءَتَهُمْ » [رواه الترمذي عن حذيفة وابن مسعود].

ويضع الله سبحانه المسلم في وضع إيجابي لا نظير له، حين يجعله نائباً عنه في الدعوة إلى الخير وكفاح الشر:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].
وحين يُقيمه في وضع المكافح للشرّ الذي يمثّله الشيطان، وجهاً لوجه، مزوّداً بسلاح قوي منه سبحانه، مستمداً منه عز وجل العونَ والقدرةَ على هزيمته:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي
وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟﴾ [الكهف: 50].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا
مُبِينًا﴾ [الإسراء: 53].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6].

ويدعو المسلم إلى كفاحه، مبيناً له أن
كيد الشيطان ضعيف إذا اعتمد العبد
على ربه، وأنه لا يستطيع أن يتغلب
على المسلم إن اعتصم بالله، وأن الشيطان
لا يستطيع التغلب على المرء إن كان
إيجابياً، بل إن السلبية وحدها أمام
الشيطان هي التي تسمح له بالاستحواذ
على المرء:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾
[الحجر: 42].

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:

.76]

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ
دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي! فَلَا تُلْهُمُونِي
وَلَوْ مَوَا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: 22].

فمن أطاع الشيطان فقد أضاع نفسه
فظلمها ولم يظلمها الشيطان:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:
.23]

وإذا جاز الإنسان هذه المرحلة.. مرحلة
إعلان الحرب على الشر في حد ذاته، فإن
عليه أن ينتقل إلى حرب أخرى يعلنها
على قوى الشر في المجتمع..

وجاهدوا في الله حقَّ جهاده

وفي هذه المرحلة بالذات تتجلى الإيجابية الإسلامية بشكل واضح.. بسلوكٍ يسمَّى في المصطلح الإسلامي **الجهاد**. والجهاد على خلاف المعنى المتبادر لأذهان العامة، ليس معناه الحرب، ولا الحرب المقدسة، كما يُتَرَجَّمُ بعض الكتاب الغربيين.. ولكنَّ معناه بذل الجهد في حصول ما يحبه الله تعالى من خير، ودفع ما لا يحبه من شر. وهو خُطَّةٌ خَطَّها الأنبياء المسلمون منذ القِدَم، ومن أوائلهم سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده.. هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملَّةَ أبيكم إبراهيم، هو [أي الله عزَّ وجل] سمَّاكم المسلمين مِن قبل [في كتبه

السابقة] وفي هذا [القرآن]، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴿[الحج: 78].

﴿إن إبراهيم كان أمةً [قُدوةً وأُسوةً]، قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين؛ شاكراً لأنعمه، اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم؛ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [النحل: 120-122].. ﴿إذ قال له ربُّه أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين﴾ [البقرة: 131].

*

ولعلنا نفهم معنى الجهاد فهماً أفضل، إذا درسنا دلالة هذا المصطلح على مرّ التاريخ.

(1) ففي أوائل المرحلة المكية، لم يكن الجهاد أكثر من إفحام الخصوم: ﴿فلا تُطع الكافرين وجاهدوهم به﴾ [أي بالقرآن] جهاداً كبيراً ﴿[الفرقان: 52].

(2) أما في أواخر العهد المكي، فكانت لفظة الجهاد تعني ضبط النفس، وعدم الرد على العنف بالعنف: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ! مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 2-6]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؟﴾ [النساء: 77].

(3) أما بعد الهجرة إلى المدينة، فقد أذن الله تعالى بالقتال لرفع الظلم وتحقيق العدالة وردّ الحقوق إلى أصحابها: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنَا اللَّهُ! وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَبْعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ؛ إِنْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39-40].

غير أن الإسلام أوضح في الوقت نفسه القواعد والقوانين التي فَرَضَ الله تعالى الالتزام بها في الحرب وأهمها اثنتان:

القاعدة الأولى: ولا تعتدوا؛

• ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة:
194].

• ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾
[البقرة: 190].

• ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [أي سلبُ
للحرية] وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ. فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا
عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193].
القاعدة الثانية: الالتزام بِالْقِيَمِ الْخُلُقِيَّةِ
التي تُمَثِّلُهَا وصية النبي ﷺ والخلفاء
الراشدين لجيوش المسلمين عند انطلاقها
للحرب:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قِفُوا أَوْصِيَكُمْ بِعَشْرِ
فَاحْفَظُوهَا عَنِّي: لَا تَخُونُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا
تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا طِفْلاً

صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة،
ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا
شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً
ولا بغيراً إلا لمأكلةٍ، وسوف تمرّون بأقوامٍ
قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم
وما فرّغوا أنفسهم له ...».

كَلِمَةُ حَقٍّ

ومن أهمّ عناصر هذا الجهاد ما يسمّى
في مصطلح الإسلام: الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر:

«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان
جائر» [رواه النسائي عن طارق بن شهاب بإسناد
صحيح].

«سيدّ الشهداء حمزة بن عبد المطلب،
ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله
...».

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: 110].

﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [الحج: 141].

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [التوبة: 71].

ولو أن الناس في أيامنا هذه مَسَخُوا مفهوم المعروف مَسْخاً قبيحاً، وحصروه في مجموعة صغيرة من المظاهر لا تقدم ولا تؤخر. مع أن «المعروف» في حقيقة الأمر هو: «كلُّ ما تتعارف الطبائع السليمة على أن فيه خيراً ومصلحةً للفرد والمجتمع»، و«المنكر» هو:

«كُلُّ مَا تَسْتَكْرِهُ الطَّبَائِعُ السَّلِيمَةُ لِمَا فِيهِ
مِنْ شَرٍّ وَمَفْسَدَةٍ لِلْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ».
فَارِضَاعُ الْمَرْأَةِ طِفْلَهَا مِنْ ثَدْيِهَا: «
مَعْرُوفٌ»، وَنَحْنُ حِينَ نَدْعُو إِلَى ذَلِكَ
نَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ.. تَطْعِيمُ أَطْفَالِنَا
لِتَحْصِيْنِهِمْ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُعْغِيَةِ: «
مَعْرُوفٌ»، لِأَنَّهُ يَقِيهِمْ غَائِلَةً أَوْحَمَ
الْأَمْرَاضِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى تَعْمِيمِهِ أَمْرٌ
بِالْمَعْرُوفِ.. إِفْسَادُ الْبِيئَةِ بِأَيِّ صُورَةٍ مِنْ
الصُّوَرِ: «مَنْكَرٌ»، وَالنَّهْيُ عَنْ إِفْسَادِهَا نَهْيٌ
عَنِ الْمَنْكَرِ، وَالْأَمْرُ بِإِصْلَاحِهَا أَمْرٌ
بِالْمَعْرُوفِ.. التَّدْخِينُ: «مَنْكَرٌ» (*) لِمَا فِيهِ مِنْ
ضَرَرٍ بِالْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ وَلِذَلِكَ فَحِينَمَا
نَدْعُو إِلَى مُحَارَبَةِ التَّدْخِينِ فَنَحْنُ نَنْكَرُ
الْمَنْكَرَ، وَنَسْتَنْكَرُ الْمَنْكَرَ، وَنَعْمَلُ عَلَى
وَقْفِ هَذَا

(*) يُرَاجَع كتاب ((الحكم الشرعي في التدخين)) من سلسلة ((الهُدَى الصحي)) التي يصدرها المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط؛ كما تُرَاجَع المُصَلِّقة المشتملة على فتوى فضيلة مفتي الديار المصرية الأسبق الدكتور نصر فريد واصل بشأن التدخين وعنوانها ((التدخين حرامٌ شرعاً)) .

المنكر. تنظيمُ إشارات المرور لوقاية الناس من الحوادث: «معروف» ! إلقاء ورقة على الطريق: «منكر» ! و«إماطة الأذى عن الطريق صدقة» [رواه أبو داود عن أبي ذر]، ونهْيُ الإنسان عن أن يلقي القاذورات على الطريق أمرٌ بالمعروف ونهْيٌ عن المنكر..

• ومن أهم عناصر الجهاد أنه يقر المحبة في الله والبغض لله. وهو إذا كان يوجب على المسلم أن يدعو أقاربه الأدينين قبل غيرهم إلى الخير، فإنه يوجب عليه - إن لم يستجب أحدُهم - أن يكون إيجابياً

في مقاطعته حين يلزم الأمر، وإلا فلا
بأس من معاملته بالحسنى:

﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَاراً﴾ [التحريم: 6].

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء:
214].

﴿قد كانت لكم أسوةٌ حَسَنَةٌ في إبراهيم
والذين معه: إذ قالوا لقومهم إِنَّا بُرَّاءُ
منكم ومما تعبدون من دون الله.. كَفَرْنَا
بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ
أَبَدًا، حَتَّى تَوَدُّوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾
[الممتحنة: 4].

﴿ووصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا، وَإِنْ
جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تَطْعَمْهُمَا﴾ [العنكبوت: 8]...

﴿صاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ [لقمان: 15].

• ومن أهم مزايا هذا الجهاد من ناحية أولى، أن المرء مسؤول عنه بنفسه، وواجبه أن يجاهد في سبيل الله ولو بقي وحده، لأنه إنما عليه نفسه يحمل مسؤوليته، ولا يهمه أن يقعد الآخرون عن نصرته:

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ! لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ [المائدة: 105].

وهي سنة الرسول الأمين يوم وقف وحده ينادي في بطحاء مكة أن (لا إله إلا الله)، ويوم قال لعمه: «والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في

يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك
دونه ما تركته».

هذا من ناحية.. ومن ناحية ثانية فهو
مسؤول عن القيام بهذا الجهاد وإلا كان
مصيروه مصير العصاة:

﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة
البحر إذ يَعدُّون في السبت، إذ تأتيهم
حيثأنهم يوم سبتهم شرّاً ويوم لا يسبِّونَ لا
تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون. وإذ
قالت أُمَّةٌ منهم لِمَ تعظون قوماً اللهُ مُهلكهم
أو مُعَذِّبهم عذاباً شديداً قالوا: معذرةٌ إلى
ربكم ولعلمهم ينتهون. فلما نسوا ما ذُكِّروا به
أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا
الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا
يفسقون﴾ [الأعراف: 163-165]. فأنت
ترى أن الله عزّ وجلّ لم يُنَجِّ أولئك الذين

سكتوا ودَعَوْا إِلَى السَّكُوتِ عَلَى الْمُنْكَرِ،
وَإِنَّمَا حَشَرَهُمْ فِي زَمْرَةٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَأَخَذَهُمْ بِعَذَابٍ بَنِيَسٍ.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ
عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ! لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ!
تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا!
لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ: أَنْ سَخِطَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ! وَلَوْ كَانُوا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا
اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾
[المائدة: 78-81].

﴿لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ،
وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى
الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا،

أَوْ لِيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبٍ بَعْضَكُمْ عَلَى
بَعْضٍ، ثُمَّ لِيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» [رواه أبو
داوود عن ابن مسعود والطبراني عن أبي موسى،
ورجاله رجالُ الصحيح].

«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا
عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ
». [رواه أبو داوود والترمذي والنسائي عن أبي بكر
بأسانيد صحيحة].

*

4 الأمة الوسطى

يُؤَثَّرُ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قوله في خطبته يوم بُويع بالخلافة: «اليمينُ والشمالُ مَضَلَّةٌ، والوسطى الجادة».

وهذا القول المأثور عن أحد الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أَمَرْنَا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعضَّ على سنته وسنتهم بالنواجذ [أي: أن نستمسك بها بقوة]، يرسم للمسلمين طريق الصواب ومحجَّة الهدى، ويبيِّن أنَّ لا خيرَ لهم في يمين أو شمال، لأنَّ طريقهم الذي شقَّه لهم ربهم عزَّ وجلَّ

وَالْحَبَّةُ [أي: أوضحه ونَهَجَه] هو الطريق الأوسط، أما تلك الطرق الأخرى التي على كل منها شيطان يدعو إليه، فكلُّها من طُرُق الضلالة وسُبُل الزيغ عن الصراط المستقيم، الذي يدعو المسلم ربّه سبع عشرة مرة في اليوم على الأقل أن يهديه إليه، بعيداً عن أي غُلُوٍّ أو جفاء، كما قال سيدنا عليٌّ عليه السلام: «خيرُ الناس هذا النَّمَطُ الأوسط، يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي»، وكما قال الحسن البصري رحمه الله: «السُّنَّةُ والذي لا إلهَ غيره بين الغالي والجافي، فاحرصوا عليها رحمكم الله، فإنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كانوا أَقْلَ الناس في ما مضى، وهم أَقْلُ الناس في ما بقي: الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف في أترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم،

وصبروا على سُنَّتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ،
فكَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَكُونُوا».

وهذا هو ما فهمه الإنسان العربيُّ
المخلوقُ على الفطرة، كما قال الأعرابيُّ
للحَسَن: «عَلِمَنِي دِيناً وَسُوطاً: لَا ذَاهِباً
فُرُوطاً وَلَا سَاقِطاً سَقُوطاً» [أي ديناً متوسطاً
لا متقدماً بالغُلُو ولا متأخراً بالتقصير]، فقال له
الحسن: «أَحَسَنْتَ يَا أَعْرَابِي! خَيْرُ الْأُمُورِ
أَوْسَاطُهَا».

1. حُنْفَاءَ لِلَّهِ!

والتزامُ هذه الجادة الوسطى، والتحنُّفُ
[أي التباعد عن اليمين والשמال]، هو ما يُطلق
عليه الحنيفية في المصطلح الإسلامي؛
لأنَّ الحنيف في لسان العرب(*) هو
المستقيم الذي لا ينحرف يميناً ولا شمالاً.

وقد أطلق ربُّنا عزَّ وجلَّ صفة « الحنيف »
 « في وقتٍ معاً على الدين الذي يمثِّل هذه
 الجادَّة الوسطى: ﴿أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾
 [يونس: 105]، وعلى مُعْتَنِّق هذا الدين
 وحامله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [البقرة: 135،
 آل عمران: 95، النساء: 125، الأنعام: 161،
 النحل: 123]؛ ﴿قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً﴾ [النحل:
 120]؛ ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ [الحج: 31]. واشتقَّ
 سيِّدنا رسول الله ﷺ من صفة الحنيف
 اسماً

(*) قال الشاعر:

تَعَلَّمْ أَنْ سِيْهْدِيْكُمْ إِلَيْنَا طَرِيقُ لَا يَجُورُ بِكُمْ حَنِيفُ
 وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْمَائِلِ الرَّجُلُ: « أَحْنَفُ » تَفَاوُلًا بِالِاسْتِقَامَةِ،
 كَمَا قِيلَ لِلْمَلْدُوغِ « سَلِيمٌ ». [لسان العرب لابن منظور:
 مادة ح ن ف].

هو الحنيفيَّة للدلالة على هذا الدين فقال: «
 أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ» [رواه الإمام أحمد عن
 عائشة أم المؤمنين بإسناد حسن]، وقال: «إِنَّ اللَّهَ

بَعَثَنِي بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ: دِينَ إِبْرَاهِيمَ»
[رواه ابن عساكر عن علي].

وقد خلق الله سبحانه وتعالى عباده كلهم
حُنَفَاءَ، أي مَفْطُورِينَ عَلَى التَّوَسُّطِ وَالْبُعْدِ
عَنِ التَّطَرُّفِ؛ كما قال النبي ﷺ في
الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن عياض بن
حمار المجاشعي: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ
كُلِّهِمْ ..». وهذه الحنيفية هي بنص القرآن
الْمُعْجِزِ، نَفْسُ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ
النَّاسَ عَلَيْهَا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا،
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾
[الروم: 30]. وهذا شيء لا يكاد العقل
البشري يتصوَّره: هذا التداخل العجيب
بَيْنَ الدِّينِ وَبَيْنَ فِطْرَةِ النَّاسِ وَبَيْنَ خَلْقِ
اللَّهِ كُلِّهِ، وهو يذكِّرنا بِمُعْدِينَ آخَرِينَ مِنْ

أبعاد الوسطية(*)، هما: (2) اليُسْر ورفع
الْحَرَج؛ (3) التوازن الذي بثّه الله سبحانه
في الكون وأمرَ الإنسان بالتزامه.

وإنك لتَرى بَيَانَ ذلك في خاتمة سورة
الحج، التي تتداخل معانيها في نسيج
عجيب:

• ﴿هُوَ [أي الله عز وجل] اجْتَبَاكُمْ؛

• ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ:
مَلَّةً أُنْبِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ؛

• ﴿هُوَ [أي الله عز وجل] سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ قَبْلُ [في الكتب السابقة] وفي هذا [القرآن]؛

• ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ
وتكونوا شهداء على النَّاسِ!﴾ [الحج: 78].

(*) ((الْوَسْطِيَّة)) اسمٌ مشتقٌ من صفة ((الْوَسْط))، كما اشتق النبي ﷺ اسم ((الْحَنِيفِيَّة)) من صفة ((الْحَنِيف)).

فإنَّه سبحانه هو الذي اختار هذه الأمة، واصطفاهَا على الناس وشرَّفَهَا بِحَمَلِ رسالته، وجَعَلَهَا أُمَّةً وَسْطاً [البقرة: 143]، وجعل رسالتها رسالةً وَسْطِيَّةً، وكان من أعظم آيات هذه الْوَسْطِيَّة أَنْ لم يجعل عليها في الدين من حَرَجٍ، فوسَّع لها دينها تَوْسِعةً مِلَّةً أَبِيهَا إبراهيم الحنيف المسلم، صاحب المِلَّةِ الحنيفية السمحة.

والانحرافُ عن هذه الحنيفية الْوَسْطِيَّة السَّمْحَة، إفراطاً أو تفريطاً، غُلُوءاً أو جفاءً، رجسٌ من عمل الشيطان، كما بيّن ذلك شاهدُ هذه الأمة ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي: «إني خلقت عبادي حُنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وإنَّهم اتَّهَمُوا الشياطين فاجتالتهم [أي حرَفْتَهُمْ] عن دينهم،

وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ
يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا».

فقد مثَّلَ سيدنا رسول الله ﷺ للابتعاد
عن الحنيفية والاجتيال [أي الانحراف] عن
الدين بتحريم الحلال.. كما يفعل
المتنطعون في عصرنا.. بل قَرَنَ ذلك
بالشرك والعيادُ بالله، كما قَرَنَ الله بينهما في
آية سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا
مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]. وتلك مزلة كبرى
ومذرجة من مدارج الهلاك.

تحريم الحلال

وقضية تحريم الحلال هذه من أهم
قضايا الدين، لأن الله سبحانه قال لعباده:

﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: 29]، وما خَلَقَهُ لَهُمْ فَقَدْ أَحَلَّهُ وَأَبَاَحَهُ لَهُمْ.

«وَكُلُّ شَيْءٍ ذَكَرَهُ [الله] تَمَنُّناً عَلَيْنَا، كَانَ ذَلِكَ مُقْتَضِياً لِأَمْرَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: شُكْرُهُ عَلَى ذَلِكَ .. وَالثَّانِي: إِبَاحَتُهُ لَنَا، إِذْ لَا يَصِحُّ التَّمَنُّنُ عَلَيْنَا بِمَا نُهِنَا عَنْهُ» (*). وَتَحْرِيمُ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الَّذِي أَحَلَّهُ اللهُ وَأَبَاَحَهُ، وَلَوْ مَثَقَالَ ذَرَّةٍ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ صِلَاحِيَّاتِ الَّذِي أَحَلَّ وَأَبَاَحَ وَحْدَهُ. وَالَّذِي يَجْتَرِئُ عَلَى التَّحْرِيمِ بِغَيْرِ بُرْهَانٍ مِنْ اللهِ أَتَاهُ، إِنَّمَا يَجْتَرِئُ عَلَى مَقَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَحَاوِلُ أَنْ يُنَازِعَهُ سُلْطَانَهُ، وَذَلِكَ تَصَرُّفٌ، يُضَارِعُ الشِّرْكَ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَرَّمَ عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَامِ السَّابِقَةِ بَعْضَ الْحَلَالِ عَقُوبَةً لَهُمْ: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: 146]،

فإنه - عز وجل - لما أرسل النبي الخاتم ﷺ، وصفه بأنه ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [والخبيث كل ما فيه ضرر وشراً] وبأنه ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157]، وبذلك أعاد الله سبحانه - بمَنِّه وكرمه - مُعْظَمَ الأمور والأشياء

(*) العز ابن عبد السلام في ((قواعد الأحكام)): 164/1.
إلى دائرة الحلال والمباح، وأعاد بفضلَه تضيق دائرة الحرام، وحصرها في كل ما يعود بالضرر، ظاهراً كان ذلك الضرر أم غير ظاهر: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: 120]، والإثم كما هو معلوم: كل ما فيه ضرر للفرد أو المجتمع، وللنفس أو الغير، كما هو واضح من قوله تعالى عن الخمر والميسر: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة:

[219]، فجعل الإثم في مقابلة النفع ومعاكساً له، فهو الضَّرَرُ إِذْنٌ؛ وَوَضَعَ الضَّوَابِطَ الصَّارِمَةَ الَّتِي تَحُولُ دُونَ أَيِّ تَجَاوُزٍ أَوْ عُدْوَانٍ عَلَى سُلْطَةِ التَّحْرِيمِ، فَنَصَّ سَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 119]، فَالتَّحْرِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِنَصٍّ مَفْصَّلٍ صَرِيحٍ، وَلَا يَكُونُ أَبَدًا بِنَصٍّ مُجْمَلٍ أَوْ إِشَارَةٍ خَفِيَّةٍ أَوْ قِيَاسٍ مُرْتَجَلٍ، وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ ﴿كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 119].

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَدَّ النَّبِيُّ ﷺ «مَنْ أَكْبَرَ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» [رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص].
وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الْقُرْبَاتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعِبَادُ إِلَى رَبِّهِمْ أَنْ يَتَمَنَّوْا بِمَا رَخَّصَ لَهُمْ مِنْ رُخْصٍ، لِأَنَّ اللَّهَ «يُحِبُّ أَنْ

تَوْتَى رُخْصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تَوْتَى عَزَائِمُهُ»
 [رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس]، ولأن
 الله «يحب أن تَوْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ
 تَوْتَى مَعْصِيَتُهُ» [رواه أحمد وابن حبان عن ابن
 عمر]. وهذا ما فهمه علماء هذه الأمة من
 أصول دينهم حتى قال التابعي الجليل
 سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رحمه الله: «إِنَّمَا الْفَقْهُ:
 الرُّخْصَةُ مِنْ ثِقَةٍ، أَمَّا التَّشْدِيدُ فَيُحْسِنُهُ كُلُّ
 أَحَدٍ!» وقال الإمام الشوكاني رحمه الله
 في عبارة له رائعة: «لَا يُشْرَعُ التَّنَزُّهُ عَنْ
 فِعْلِ الشَّيْءِ الْحَلَالِ، فَلَيْسَ فِي تَرْكِ الْحَلَالِ
 وَرَعٌ» [إرشاد الفحول: ص 236].

شهداء على الناس!

ولنَعُدْ إِلَى خَاتَمَةِ سُورَةِ الْحَجِّ - فَاللَّهُ
 سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ

ذات الملة الوسطية السمة اسم
﴿المسلمين﴾: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ [أي: في كُتُبِه المتقدمة
على القرآن]، ﴿وَفِي هَذَا﴾ [أي: في القرآن
الكريم].. وكلُّ ذلك من أجل أن يكون
الرسول ﴿شَهِيداً﴾ عليهم ويكونوا
﴿شهداء﴾ على الناس! ﴿وكذلك جعلناكم
أمةً وَسَطاً لتكونوا شهداء على الناس
ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة:
143].

وتعبير الشهداء هذا - مثل كثير من
التعابير القرآنية - أكبر بكثير من أن
يُترجم عن معناه بكلام من كلام البشر،
ولكن المرء يحاول أن يتلمس بعض ما في
هذا التعبير من معانٍ جليّة. ولعلّ من خير
ما يعبر - في نظرنا - عن بعض ما في
لفظة الشهيد أو الشاهد من معانٍ، ما

يطلقون عليه في علوم العصر معيار
الجودة.

فالجودة - كما هو معلوم - أمرٌ مطلوب
في كل عمل من أعمال العصر، علمياً
كان ذلك العمل أم صناعياً أم تجارياً أم
غير ذلك. ومن قَبْلُ قال سيدنا رسول الله
ﷺ في الحديث المتفق عليه عن شدّاد بن أوس: «
إن الله كَتَبَ الإحسانَ [أي: الجودة والإتقان]
على كلِّ شيءٍ»، فالحَسَنُ هو الجيّد.

وحتى يعرف الناس الجودة المطلوبة
فيحقّقوها، كان لأبَدٍ لهم من نماذج حيّة
يضعونها نصبَ أعينهم، أو معايير حيّة
يعملون على الاقتداء بها والتأسي. ولقد
كان من رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم
أنبياءه ورُسُلَه، يمثّلون لأقوامهم تمثيلاً
عملياً هذه الأسوة أو القدوة التي ينبغي أن
يعمل الناس على التشبه بها، وأن يحاولوا

قَدَّرَ مُسْتَطَاعُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّوْا بِمَا تَحَلَّتْ بِهِ مِنْ خُلُقٍ، وَيَتَّصِفُوا بِمَا اتَّصَفَتْ بِهِ مِنْ دِينٍ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ [أَيَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ] شَهِيداً﴾ [النساء: 41].

وقد عبَّرَ اللهُ سبحانه عن ذلك بِالْفَافِ متعدِّدة، توكيداً لأهمية هذا المعيار الحيّ:

• منها الأُسوة الذي يُتَأَسَّى به: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]؛

• ومنها الأُمَّة الذي يُؤْتَمُّ به: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]؛

• ومنها القُدْوَةُ الذي يُقْتَدَى به: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ، فَبِهِدَاهِمَ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 9].

ثم لما أكمل ربُّنا - عز وجل - الدين وخَتَمَ الرسالات، أخرجَ للناس أُمَّةً بأكملها

تقتدي برسولٍ شاهد: ﴿يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً﴾ [الأحزاب: 45]، فتحوّل بذلك إلى قدوة للناس أجمعين. ومن أجل أن تتحقق لهذه الأمة صفة الشهادة، جعلها الله سبحانه أمة وسطاً وقال لها: ﴿جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: 143].

ذلك لأن الأمة التي يُطالبُ الناس بالاعتداء بها، ينبغي أن تكون أمةً معتدلة، تسلك في حياتها سلوكاً بشرياً سوياً يكون في مُكنة البشر أن يسلكوه، ميسوراً لا يستوعرُ على الناس فيطلب منهم المُحال أو ينفّرهم بالتعسير.

2. أُمَّةٌ أُرِيدَ بِهَا الْيُسْرُ !

على أن الشريعة السّمْحَة تَتَعَدَّى ذلك
لتؤكد على ضرورة التزام اليُسْر، لا
مجرّد الإمكان المادي للعمل. واقرأ إن
شئت قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا
يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] أو قوله
سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾
[النساء: 28] أو قوله: ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرُ
منه﴾ [المزمل: 20]؛ بل اقرأ إن شئت قوله
عزّ من قائل: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: 8]
وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ
بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 7]؛
لتعلم أن الله قد لَخَّصَ شريعته في كلمة
واحدة هي "اليُسْرَى". وهذا ما يُفْتَرَضُ
في الشريعة التي يمكن أن يتقبّلها جميع
الناس بقبول حسن، وتكون صالحة لكل
زمان ومكان. وهذا ما فهمه مُبَيَّنُّ هذه
الرسالة ومعلّمها صلوات الله وسلامه عليه

حين كان يقول: «إن هذا الدين يُسر، فأوغل فيه برفق» [رواه أحمد عن أنس]، ويقول: «إن هذا الدين يُسر، ولن يُشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه» [رواه ابن حبان والعسكري في الأمثال عن أبي هريرة]، ويقول: «إن الله رَضِيَ لهذه الأمة اليُسْرَ وكرهَ لها العُسْرَ» [رواه الطبراني في المعجم الكبير عن محجن بن الأدرع]، ويقول: «إنكم أمة أريدَ بها اليُسْرُ» [رواه ابن جرير عن بُريدة بإسناد صحيح]. وحين كان هذا الفهم يتجلَّى في سلوكه العملي، إذ «ما خيّر رسول الله ﷺ - وهو شاهد هذه الأمة - بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً» [متفق عليه، عن عائشة أم المؤمنين]. ومن أجل ذلك قال لأصحابه: «دَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَك مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بكَثْرَةِ سؤَالِهِمْ واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا

نهيتكم عن شيء فدَعُوهُ». [رواه مسلم].
ومن أجل ذلك علّم الشهداء على الناس
من بعده فقال لهم [في الحديث الذي رواه
البخاري في الأدب المفرد عن أبي محجن
الأسلمي]: «إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ» وقال
لهم [في الحديث المتفق عليه عن أنس]: «
يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفِرُوا».
وقال لهم: «بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا
مُعَسِّرِينَ» [رواه البخاري عن أبي هريرة].
وقال في معرض الزَّجْرِ والذم [في الحديث
المتفق عليه عن أبي مسعود الأنصاري]: «إِنْ
مَنْكُم مِّنْقَرِينَ».

وانظر في مقابل ذلك إلى لفظة
"الْحَرَج" وما توحى به من تضيق يأبى
الله سبحانه أن يعرّض الإنسان إليه: ﴿وَمَا
جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:
78]؛ ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ

حَرَجٌ ﴿المائدة: 7﴾؛ ﴿ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ﴾ [النور: 61]. وقد علّمنا المعلّم العظيم ﷺ كيف نفهم هذا المبدأ القرآني ونتوسّع فيه غاية التوسّع الذي يُرضي الله عز وجل. فقد روى البخاري ومسلم [عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما]، أن رسول الله ﷺ وَقَفَ في حجة الوداع بمِنًى فجعلوا يسألونه، فقال رجل: لم أشعُرُ فحلقْتُ قبل أن أذبح؛ قال: «اذبَحْ ولا حَرَجَ!». فجاءه آخر فقال: لم أشعر فنحرتُ قبل أن أرمي؛ قال: «إِزِمْ ولا حَرَجَ!». فما سُئِلَ يومئذٍ عن شيء قُدِّمَ أو أُخِّرَ إلا قال: **افعل ولا حَرَجَ!**

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول ذلك أو يفعل ذلك، يلفت أنظارنا إلى مقوّم من مقوّمات الخُلُق الكريم - وهو هذا

الْيُسْر - وَيُلْحُ عَلَيْهِ، فَقَدْ عَلِمَ ﷺ بِمَا عَلَّمَهُ
 رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَيْفَ يَمِيلُ النَّاسُ إِلَى
 التَّعْسِيرِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَوْ تَرِكَ الْأَمْرَ إِلَيْهِمْ،
 فَعَمَلٌ عَلَى رَفْعِ الْحَرَجِ، وَعَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي
 التَّيْسِيرِ، وَهَذَا مَلَمَحٌ رَائِعٌ مِنْ مَلَامِحِ
 كَوْنِهِ ﷺ ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]
 وَكَوْنِهِ ﷺ: «رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ» [رواه ابن عساکر
 عَنْ ابْنِ عَمْرٍ؛ وَهُوَ مَلَمَحٌ أَشَارَ إِلَيْهِ رَبُّنَا عَزَّ
 وَجَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ،
 لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [أي
 لَعَسَرْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ] ﴿[الحجرات: 7]». وَقَدْ سَأَلَ
 عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: إِنْ أَخْتِي
 نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ مَاشِيَةً، وَإِنِّهَا لَا تَطِيقُ ذَلِكَ،
 فَأَجَابَهُ: «إِنْ اللَّهُ لَغَنِيٌّ عَنْ مَشْيِ أَخْتِكَ،
 فَلْتَرْكَبْ، وَلْتَهْدِ بَدَنَةً [نَاقَةً أَوْ بَقْرَةً]» [رواه
 مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ].

وفي هذا يقول سلطان العلماء العز ابن عبد السلام [في قواعد الأحكام]: وقد علمنا من موارد الشرع ومصادره، أنَّ مطلوبَ الشرع إنما هو مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقة مصلحة، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب المريض باستعمال الدواء المر البشع، فإنه ليس غرضه إلا الشفاء. فهذا التشدد والتنطع والتكلف الذي نراه اليوم من كثير ممَّن ينتسبون إلى الإسلام، ليس من الله في شيء، لأنه يؤدي إلى العنت [أي المشقة والعسر]، ﴿ولو شاء الله لأَعَنَّتْكُمْ﴾ [البقرة: 220] ولكنه لم يَشَأْ ذلك رحمةً بعباده وتفضلاً، بل أمر نبيه ﷺ أن يقول: ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ [ص: 86]، وكان من حديثه صلوات الله عليه: "هَلَاكَ المتنطعون" [رواه مسلم عن ابن مسعود].

وواضح أن المراد باليسر ليس انتفاء المشقة - كما نبّه على ذلك الإمام الجليل محمد ابن ابراهيم الوزير في «العواصم والقواصم» - لأن المشقة أمرٌ نسبيٌّ يختلف من امرٍ لآخر، وهي «مُلَازمة لأكثر الأعمال الدنيوية والأخروية، وقد يشقُّ على الإنسان قيامه من مجلسه إلى بيته، وخروجه من بيته لقضاء حاجته ... وقد قال الله تعالى عن الصلاة: ﴿وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: 45]، وقال: ﴿وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله﴾ [البقرة: 143]؛ فنصَّ سبحانه على أن الشيء المعين يكون عسيراً على هذا، سهلاً على هذا، فلو كان عسيراً في نفسه لكان عسيراً عليهما، ولكنه يسيرٌ في نفسه، وإنما يتعسر بحَرَج الصدور،

والكسل، وقلة الدواعي، ويتسهّل بنقيض ذلك».

وقد قال الله سبحانه في الحديث عمّا فَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ إِنْفَاقٍ: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: 37]؛ أي: إِنْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُخْرِجُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَزِيدُ عَلَى الْحَدِّ الْمَعْقُولِ الَّذِي تَسْمَحُ بِهِ النَّفْسُ، لَتَرْتَبَ عَلَى ذَلِكَ عَدَمُ اسْتِجَابَتِكُمْ لِلأَمْرِ.

فالْيُسْرُ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ دِينَهُ، هُوَ مَا يُعْتَبَرُ يُسْرًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ الْوَسْطِ، وَالْعُسْرُ الَّذِي نَفَاهُ اللَّهُ عَنْ شَرِيعَتِهِ، هُوَ مَا يَعْسُرُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْوَسْطِ. وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ هَذِهِ الْوَسْطِيَّةَ هِيَ الْمَحْوَرُ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ حَيَاةُ الْمُسْلِمِ الْحَقِّ فِي شَتَّى مَنَاحِيهَا.

3. ووضع الميزان

ثم إن التَّوَسُّطَ يعني الاعتدال في كل شيء، وقد فُسِّرَ أَوْسَطُهُمْ في قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: 28] بأنه أَعْدَلُهُمْ [أي أكثرهم اعتدالاً وإتزاناً]. وهذا الاعتدال أو قُلُّ: التوازن، أَمْرٌ وَضَعَهُ اللهُ في طبيعة الكون بكل ما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد وبيئة، وأَعْلَمْنَا بذلك جل وَعَلَا بقوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ؛ أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7-9]. فبَيَّنَّ سبحانه أنه قد جعل هذا التوازن سِمَةً من سِمَاتِ الكون بمختلف منظوماته: ﴿وَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، ثم طلب من عباده أن يلتزموا مختارين طائعين بمثل هذا التوازن في حياتهم: ﴿أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾، وأن يحاذروا من أيِّ طغيانٍ

فيه: ﴿لَا تَطْغَوْا﴾، أو إخسار: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾، لأنهم سيدفعون ثمن هذا أو ذاك غالباً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23]!

*

فهذه ثلاثة من أبعاد هذه الوسطية وهُنَّ: **التَّحَنُّفُ** أي التباعد عن أقصى اليمين وأقصى الشمال وعن الغُلُوِّ والجفاء، **وَالْيُسْرُ** أو نَبَذُ الْحَرَجِ، والتوازن أو الاعتدال في كل شيء.

4. مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ..

أما البُعد الرابع من أبعاد هذه الوسطية فهو **الإخلاص**، ونعني به تلك الصفة البارزة من صفات هذا الإسلام العظيم، وهي أنه لا يكتفي بتحديد الغاية وحدها،

وإنما يعدو ذلك إلى تبيان الوسيلة وإيضاح السبيل.

وإذا كانت قوى الشر في الدنيا، من قبل مكيافيلي ومن بعده، تدعو إلى أن « الغاية تبرر الوسيلة » فتفسد بذلك أخلاق الناس وضمائرهم وسلوكهم، فإن الإسلام يقيم في وجه هذا المبدأ الخبيث سداً شامخاً، وينفي بكل سرعة وبكل صرامة، أيّ هاجس يراود النفس، يحاول أن يهبط بها – بهذا السلوك – إلى أسفل سافلين..

والإسلام بتحديد هذا للوسيلة، نظير تحديد الغاية يحافظ للمسلم على سلامة السلوك، في جانب محافظته على سلامة المبدأ. وبذلك ينتشل الإسلام الإنسان من أسفل سافلين: بالإيمان الذي يحدد سلامة

الغاية، وبالعَمَل الصالح الذي يضمن
سلامة السبيل:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.. ثم
رددناه أسفل سافلين.. إلا الذين آمنوا..
وعملوا الصالحات﴾ [التين: 4-6].

﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا،
فانسَخَ منها، فأتبعه الشيطان فكان من
الغالوتين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد
إلى الأرض واتَّبَعَ هواه.. فمثله كمثل
الكلب﴾ [الأعراف: 175، 176].

*

أما الغاية، فهي أول ما يهتم الإسلام
بتحديده، بكلمات قاطعات حاصرات:

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2].

﴿وإلى ربك فارغب﴾ [الانشراح: 7].

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجَنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: 56].

« اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت
وجهي إليك » [من حديث متفق عليه عن البراء بن
عازب].

﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 163].

فالله سبحانه وتعالى هو — وحده —
الغاية، وعلى المسلم أن يتَّجه إليه بقلبه
وجوارحه، وذلك ما يتضمنه معنى الإله
ومعنى العبادة في كلام العرب. يقال: أَلِهَ
إِلَيْهِ أَي اتَّجَهَ إِلَيْهِ لشدَّة شوقه إِلَيْهِ، فالإله
الذي يَأْلَهُ القلب بكمال الحب والتعظيم

والإجلال والإكرام والخوف والرجاء وما إلى ذلك، والعبادة تتضمن معنى التذلل: يقال طريق معبد إذا كان مذلاً قد وطئته الأقدام، كما تتضمن معنى الحب لأن آخر مراتب الحب هو التَّيَمُّ ويقال تَيَّم الله أي عبد الله.

فهناك من جانب عزّةٍ وأهليّةٍ للخضوع والمحبة والقصد، وهناك من جانب آخر خضوعٌ وتذللٌ وحبٌّ وقصد: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: 65].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

*

وأما الوسيلة، فإنها أيضاً واضحة صريحة، ولذلك يُطلق عليها الإسلام اسم

الوسيلة مُعَرَّفَةٌ بالألف واللام، دلالةً على أنها وسيلة معيّنة واحدة:

﴿اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ [المائدة:

38].

وكذلك يُطلق عليها اسم السبيل: سبيل الله، ويُطلق عليها اسم: الصراط المستقيم، ويُطلق عليها أسماء أخرى مُتَرَادِفَات، تدلُّ كلها على مَحَجَّةٍ بِيضَاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

والله عز وجل يبلغنا أنه قد بيّن لنا الطريق وأوضح لنا الشريعة [الوسيلة]:

﴿لِكَلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾

[المائدة: 51].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ

فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: 17].

وأن هذه السبيل هي السبيل القويمة
العادلة:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: 9].

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: 36، يس: 61، الزخرف: 61].

ويدعونا إلى السير فيها:

﴿إِنْ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا﴾ [المزمل: 19].

فالله سبحانه وتعالى، قد شق للمسلمين
سبيلاً عريضة يستطيعون أن يسيروا
ضمن حدودها بكل حرية وبكل اختيار،
بل لهم أن يسيروا في أقصى اليمين منها
أو في أقصى اليسار بلا حَرَج، ما داموا لم
يتعدّوا حدودَ سبيل الله، فإن فعلوا ذلك
أمكنهم أن يصلوا إلى الله، وإن انحرفوا

عنها أو اتَّبَعُوا غيرها من السُّبُل، فأَنَّى لهم
أن يكونوا من الواصلين؟!

هذه السبيل التي شقها الله للمسلمين
تسمى "سبيل الله" ونحن نرى في القرآن
كثيراً:

﴿يَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ - أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - جَاهِدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ - أَحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - لَمَّا
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ - ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - انْفَرُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ -﴾ وأمثال ذلك في مواضع
عديدة.

بل لنستمع إلى هذا الحديث الجميل من
أحاديث رسول الله ﷺ. فقد روى البزار
في « مسنده »، والطبراني في « الأوسط »،

وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي « الْحَلِيةِ »، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي « السُّنَنِ »
و « الشُّعْبِ » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه، إِذْ
طَلَعَ عَلَيْنَا شَابٌّ مِنَ النَّبَتِيَّةِ، فَلَمَّا رَمَيْنَاهُ
بِأَبْصَارِنَا قُلْنَا: لَوْ أَنَّ هَذَا الشَّابَّ جَعَلَ
شِبَابَهُ وَنَشَاطَهُ وَقُوَّتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ !
فَسَمِعَ مَقَالَتَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه، فَقَالَ: « وَمَا
سَبِيلُ اللَّهِ إِلَّا مَنْ قَدْ [أ]تَلَ؟! مَنْ سَعَى عَلَى
وَالِدَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى
عِيَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى نَفْسِهِ
لِيُعَفِّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ».

وَلِذَلِكَ عَرَّفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنه «
سَبِيلَ اللَّهِ » بِهَذَا التَّعْرِيفِ الْجَامِعِ: « أَلَا إِنَّ
سَبِيلَ اللَّهِ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ ! » [رواه الإمام
أحمد في مسنده].

وها هنا نقطة على جانب كبير من الأهمية، تتبع من أصل مهم، وهو أن المسلم في مسيرته هذه في سبيل الله، ينبغي له أن يبقى موجّهاً وجهه إلى الله، منصرفاً إليه بكليته وأن لا يحاول الالتفات في أثناء مسعاه قليلاً أو كثيراً.

ذلك أن مسيرته في سبيل الله ينبغي أن تكون خالصةً لله وحده، والإخلاص(*) أمرٌ أساسيٌّ كبيرُ الشأن، ينافيه كلّ المنافاة أن يلتفت الإنسان عنه قليلاً أو كثيراً.

وقد أخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة»، وابن السنّي، والدارمي، وابن أبي شيبة في «المصنّف»، وأحمد، من طرق كثيرة صحيحة عن عبد الرحمن ابن أبزى قال: كان ﷺ يعلمنا إذا

(*) شاع كثيراً استعمال لفظة « التوحيد » بدل « الإخلاص ».
« والتوحيد لفظة مُبْتَدَعَة، لم ترد أبداً في الكتاب ولا
السنة. بل إن سورة « قل هو الله أحد » تسمى سورة «
الإخلاص ». وخير الحديث كلام الله، وخير الهدى
هدى محمد ﷺ.

أصبح أحذنا أن يقول: « أصبحنا على
فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين
نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً
وما كان من المشركين ».

ونحن نتلو ذلك في مثل الآيات التالية
من كتاب الله:

• ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين. ألا لله
الدين الخالص﴾ [الزمر: 2-3].

• ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾
[الأعراف: 28].

• ﴿فادعوا الله مخلصين﴾ [المؤمن: 14].

• ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5].

• ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ [أي خالصاً] [النحل: 52].

وهي تدعونا إلى أن نتَّجه بقلوبنا – كل قلوبنا -إلى الله عز وجل، لا نَدَّع فيها مجالاً لغيره، فالله أغنى الأغنياء عن الشرك، وهو يقول [في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة]: « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ».

فكلُّ عمل صالح نقوم به ابتغاءَ مرضاة الله، لا نريد به مغنماً أو مكسباً في الحياة العاجلة؛ فهو في سبيل الله، أياً كان هذا العمل. وهؤلاء الذين يحتقرون المكاسب العاجلة طمعاً في رِضَى الله في الآخرة، يجزيهم الله أحسن جزاء ويتقبَّل منهم

أعمالهم، ويوفّيهم أجورهم، ويدخلهم الجنة
عرّفها لهم:

﴿تلك الدار الآخرة، نجعلها للذين لا
يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً،
والعاقبة للمتقين﴾ [القصص: 83].

وفي حديث رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة
تبين هذه الناحية:

• « فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ،
فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ » [متفق عليه عن
عمر بن الخطاب].

• سئل رسول الله ﷺ، عن الرجل يقاتل
شجاعةً ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً أي ذلك
في سبيل الله ؟ فقال ﷺ: « من قاتل لتكون
كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [متفق
عليه عن أبي موسى].

• قال رجل: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عَرَضاً من عَرَضِ الدنيا؟! فقال النبي ﷺ: « لا أَجَرَ لَهُ! » [رواه أبو داود عن أبي هريرة].

• قال عبد الله بن عمرو: يا رسول الله! أخبرني عن الجهاد والغزو فقال: « يا عبد الله ابن عمرو! إن قاتلت صابراً محتسباً؛ بَعَثَكَ اللهُ صابراً محتسباً؛ وإن قاتلت مُرَائياً مُكَاثِراً، بَعَثَكَ اللهُ مُرَائياً مُكَاثِراً؛ يا عبد الله بن عمرو! على أيِّ حال قاتلت أو قُتِلْتَ بَعَثَكَ اللهُ على تلك الحال » [رواه أبو داود].

• جاء رجل فقال: يا رسول الله! أَرَأَيْتَ رجلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ قال: « لا شيء له! » فأعادها ثلاثاً، كل ذلك يقول « لا شيء له! » ثم قال رسول

الله ﷺ: « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتُغِيَ به وجهه » [رواه أبو داوود والنسائي عن أبي أمامة] .

• « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجلٌ استشهد، فَأُتِيَ به فعَرَفَه نِعَمَه فَعَرَفَهَا، قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت ! قال: كذبت ! ولكنك قاتلت لأن يقال جري، فقد قيل ! ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقيَ في النار.. ورجلٌ تعلَّم القرآن وعَلَّمه وقرأ القرآن، فَأُتِيَ به فعَرَفَه نِعَمَه فَعَرَفَهَا، قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: تعلَّمت العلم وعَلَّمته وقرأت فيك القرآن ! قال: كذبت ! ولكنك تعلمت العلم لِيُقَالَ عالم وقرأت القرآن لِيُقَالَ هو قارئ، فقد قيل ! ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقيَ في النار.. ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال

كله، فعَرَفَه نِعَمَه فَعَرَفَها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحبُّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ منها لك! قال: كذبت! ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل! ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه ثم أُلْقِيَ في النار!!!» [رواه مسلم عن أبي هريرة].

وهكذا فالخيرُ نفسه، خيرٌ من حيث قال الله عنه إنه خيرٌ، كما قال الإمام الغزالي [في إحياء علوم الدين]: «والخيراتُ إنما يُعَرَفُ كونُها خيرات بالشرع»؛ وهو خيرٌ من حيث يُقصد به وجه الله ومرضاته، ولذلك لا يتقبله الله من الذين كفروا [أي غَطُّوا على ما فَطَرَهُم الله عليه من الإيمان] في الآخرة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً.. حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا!!﴾ [النور: 39]. ﴿وَقَدِمْنَا

إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباءً
منثوراً ﴿[الفرقان: 23].

صحيحٌ أن الله لا يظلم مثقالَ ذرّة، ولكنَّ
مَنْ لم يَبْتَغِ وجهَ الله في الخير، يوقِّيه الله
جزاءه في الدنيا، من سُمْعة حسنة أو
مكانة رفيعة أو ما إلى ذلك، وهذا هو غايةُ
مُبْتَغَاه، فيأتي يوم القيامة ولا شيءَ له،
لأنه لم يَبْتَغِ وجهَ الله عز وجل أصلاً.

ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ!

وليس يجوز للمسلم أن يترك سبيل الله
ويتبع سبيلاً أخرى؛ لأن هذه السبيل هي
سبيل الوصول إلى الله، وهي سبيل النجاة
في الدنيا والآخرة، فمن ضلَّ عنها وسلكَ
غيرها فقد هلك:

• ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 114].

• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 17].

• « خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خطاً وقال هذه سبيل الله، وخطَّ خطوطاً وقال هذه السُّبُلُ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153] [أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود بإسناد حسن].

ولذلك كان رسول الله ﷺ يحضُّ أشدَّ الحُضِّ على التمسُّك بسُنَّتِهِ:

• « فعليكم بسُنَّتِي وسُنَّةَ الخلفاء الراشدين المهديين عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة ». [رواه أبو داود والترمذي عن العرياض بن سارية]؛

• « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ ». [متفق عليه عن عائشة] (*)؛

(*) هذا الحديث يوضِّح المقصود من قوله ﷺ: «كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ» بعبارة « ما ليس منه »، أي: كُلُّ مُحْدَثَةٍ فِي الدِّينِ لَا أَصْلَ لَهَا فِيهِ فَهِيَ الْبِدْعَةُ الْمُنْهِي عَنْهَا، أَمَا مَا كَانَ لَهُ أَصْلٌ فِي الدِّينِ فَهُوَ بِدْعَةٌ وَاجِبَةٌ أَوْ بِدْعَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ أَوْ بِدْعَةٌ مُبَاحَةٌ، وَكُلُّهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [الحج: 77]. ولسلطان العلماء العزَّاب بن عبد السلام بحث نفيس في موضوع البدعة في كتابه العظيم « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » [204/2].

• « أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ جَاهِلِيَّةٍ،

وَمُطِلُّ دَمٍ أَمْرِي بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيقَ دَمَهُ «.

[رواه مسلم عن ابن عباس]؛

• « مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ ». [رواه مسلم عائشة]؛

• « فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ». [رواه مسلم عن أنس]؛

ذَلِكَ كُلُّهُ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ مَخَاطَبًا
نَبِيَّهُ ﷺ:

• ﴿وَإِنْكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: 73].

• ﴿وَإِنْكَ لَتَهْدِي [أَي تَدُلُّ] إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ.. صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى: 52-53].

ولذلك قال الزُّهْرِيُّ رحمه الله: «كَانَ مَنْ
مَضَى مِنْ سَلَفِنَا، يَقُولُونَ: الْإِعْتَصَامُ

بالسُّنة نِجاة.. وذلك أن السُّنة – كما قال
مالك رحمه الله – مثلُ سفينةِ نوح... مَنْ
ركبها نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عنها غَرِقَ».

5. فاستقيموا إِلَيْهِ..

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقوم الناس
بالقسط، وأن يكون الدين لله، وأن تُحَكَّمَ
في حياة الناس شريعةُ الإسلام:

• ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ [أي
سَلْبٌ لِلْحَرِيَةِ] وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾
[الأنفال: 38].

• ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:
33].

• ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

• ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: 75].
ولكنه يشترط للوصول إلى هذا الهدف
سلامة الطريق، وذلك أمرٌ يسمّيه
الاستقامة:

• ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾
[هود: 113].

• ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ
أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ
وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: 6].

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ: أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا
تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فُصِّلَتْ: 30].

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ
اسْتَقَامُوا، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 12].

• ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ، وَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ﴾ [الشورى: 15].

• « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِم » [رواه مسلم
عن سفيان بن عبد الله].

• « اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تَحْصُوا » [رواه أحمد
والدارمي وغيرهما عن ثوبان، وسنده صحيح].

• ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: 4].

• « أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا
طَيِّباً » [رواه مسلم عن أبي هريرة].

وها هنا يتجلى الفرق بين النصر
السياسي والنصر الأخلاقي!

الانتصارات السياسية لا وزن لها في
ميزان الإسلام!

والمكاسب السياسية سراب!

وإنما هو النصر الأخلاقي!

أن ينسجم الإنسان في سلوكه مع ما
يدعو إليه!

ولا يهّمه بعد ذلك رضي الناس أم
سخطوا، حصل على مكاسب دنيوية أم لم
يحصل!

وهكذا كان المسلمون الأوّلون...

لم يكن يهّمهم مجرد الفتح، إذا لم تكن
طريقة الفتح كما يُرضي الله!

ولم يكن يهتمهم ملء بيت المال، إذا لم
تُتَبَّعْ لَمَلِيهِ سُبُلٌ سَلِيمَةٌ !

ولم يكن يهتمهم أمرٌ من الأمور، إذا لم
يسلكوا له سنة قويمَة ويؤدوه حقه !

قال أهل سَمَرْقَنْدَ لعاملهم سليمان ابن
أبي السري: إن قتيبة غَدَرَ بنا وظلمنا
وأخذ بلادنا(*)، وقد أظهر الله العدلَ
والإنصاف، فأذن لنا فُلَيْفِدُ منا وفدٌ إلى
أمير المؤمنين يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا
حق أُعْطِينَاهُ، فإنَّ بنا إلى ذلك حاجة. فأذن
لهم. فوجَّهوا منهم قوماً إلى عمر بن عبد
العزیز رضي الله عنه. فلما علم عمر ظلامتهم، كتب
إلى سليمان يقول

(*) وذلك أنه بزعمهم لم يدعهم في البدء إلى الإسلام ثم
إلى الجزية ثم إلى الحرب.

له: إن أهل سمرقند قد شكوا إليّ ظلماً،
فأجلِسْ لهم قاضِيكَ فليُنظر في أمرهم؛
فإن قَضَى لهم، فأخرجْهم إلى معسكرهم
كما كانوا قبل أن ظَهَرَ عليهم قتيبة !
فأجلِسْ لهم سليمانُ ُ جَمِيعَ بن حاضر
القاضي، فقضى أن يخرج عَرَبُ سمرقند
إلى معسكرهم ! ويُناذبوهم على سواء،
فيكون صلحاً جديداً، أو ظفراً عنوة ! فقال
أهل السغد (سمرقند) بل نرضى بما كان ولا
نجدد حرباً.

ذلك في نظر السياسة إخفاقٌ كبير: أن
يتخلَّى الإنسان عن أرض مَلَكْها وحَكَمَها
بلا خسائر... وليس كذلك في نظر
الإسلام.

روى البلاذُري [في فتوح البلدان] أنه لما
جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ

المسلمين إقباله إليهم لوقعة اليرموك،
رَدُّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا
منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن
نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم.
فقال أهل حمص: لَوْلَايَتُكُمْ وَعَدْلُكُمْ أَحَبُّ
إِلَيْنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَشْمِ،
وَلْنَدْفَعَنَّ جُنْدَ هِرَقْلَ عَنِ الْمَدِينَةِ مَعَ
عَامِلِكُمْ...

وعن الهيثم بن عدي قال: كتب عدي بن
أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز رضوان
الله عليه: أما بعد فَإِنْ قَبِلِي نَاساً مِنَ الْعُمَّالِ
[أي الموظفين]، قَدْ اقْتَطَعُوا مِنْ مَالِ اللَّهِ مَا لَّا
عَظِيماً لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ
أَيْدِيهِمْ إِلَّا أَنْ يَمْسَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ..
فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي
ذَلِكَ فَلأَفْعَلْ... فكتب إليه عمر رحمة الله

عليه: « أما بعد، فالعَجَبُ كُلُّ العجب من استئذائك إياي في عذاب بشر! كَأني لك جُنَّة من عذاب الله !! وكأن رضائي عليك ينجيك من سخط الله !!! فانظر، فَمَنْ قامت عليه البَيِّنَةُ فحُذِّه بما قامت به عليه، ومن أقرَّ لك بشيء فحُذِّه بما أقرَّ به، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخَلِّ سبيله ! ».

وعن إسماعيل بن عياش قال: كتب بعض عمال عمر إليه أنه: قد أضررت ببيت المال، ونحوه.. قال: فقال عمر: « أعط ما فيه، فإذا لم يَبْقَ فيه شيء فاملأه زبلاً ! ».

ومثلها أن بعض عُمَّاله كتب إليه في أن إسقاط الجزية عمَّن يُسلم يسبب خسارة لبيت المال فكتب إليه: «إن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً»!!.

والله سبحانه وتعالى يقول:

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ! إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ
بَهُمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ
تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا قَوَّامِينَ
لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ.. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ [أي لا
يحملَنَّكم] شَتَانٌ [أي بغض] قوم على أن لا
تعدلوا.. اعدلوا هو أقرب للتقوى.
واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾
[المائدة: 8].

• ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ [أي لا يحملَنَّكم] شَتَانٌ قوم
أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا!

وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا
على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله
شديد العقاب ﴿المائدة: 2﴾.

*

قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى:
﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلْك: 2]،
قال: أخلصه وأصوبه! قالوا: يا أبا علي!
ما أخلصه وأصوبه؟ قال: العمل إذا كان
خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان
صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى
يكون خالصاً صواباً... والخالص أن
يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة
! [رواه أبو نُعَيْم في ((الحلية))].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «
اللهم اجعل عملي كلّهُ صالحاً، واجعله

لوجهك خالصاً، ولا تجعل فيه لأحد شيئاً
..

وقد قال الله عز وجل:

• ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل
عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾
[الكهف: 110].

• ﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن فله
أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم
يحزنون﴾ [البقرة: 112].

• ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله
وهو محسن﴾ [النساء: 125].

• ﴿إن الإنسان لفي خسر؛ إلا الذين
آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [العصر: 2-3].

فقوام الأمر كله: سلامة الغاية، وذلك
هو الإيمان والإخلاص وإسلام الوجه لله؛

وسلامة الوسيلة وذلك هو الإحسان
والصواب والعمل الصالح.

وليس يكْمَل للمسلم إيمانه وإسلامه، ما
لم يَبْتَغِ الغاية والوسيلة معاً، ويحرص
على سلامتهما معاً، ويستَقِم عليهما معاً.

6. قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ!

فهذه خمسةٌ من أبعاد «الوسطية» هنَّ:
التَحَنُّفُ، وَالْيُسْرُ، وَالتَّوَازُنُ [الاعتدال]،
وَالْإِخْلَاصُ، وَالْإِسْتِقَامَةُ. أما البُعد
السادس من أبعاد الوسطية فهو العدل.
وهو قيمة جوهرية في نظر الإسلام لأنه
الغاية الأساسية من إرسال الرُّسُل:

﴿لقد أرسلنا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا معهم
الكتابَ والميزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾
[الحديد: 25].

وقد أمر الله الناس به أمراً عاماً:

• ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: 90].

• ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29].

• ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:

8].

• ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ

الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

وأمر به نبيّه أمراً خاصاً:

• ﴿وَأْمَرْتُ لَأَعِدَلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: 15].

• ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 42].

وأثنى على فئة صالحة من الناس

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:

159، 181].

وذكر في كتابه الكريم ما يدل على أن
العدل ينبغي أن يتخلَّل كل شيء:

• في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾
[الأنعام: 152]؛

• في الحكم [أي: القضاء]: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]؛

• في الإصلاح: ﴿فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا
بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات: 9]؛

• في القوامة: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى
بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 127]؛

وحذَّر مِنْ كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُخِلَّ بِالْمَوْقِفِ
العادل:

• ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:
135]؛

• ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [أي: لا يحملنكم] شَنَاٰنُ [أي: بغض] قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8].

• ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 2].

• ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

والعدلُ في اللغة التي نزل بها القرآن يتضمن معنى المساواة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ [المائدة: 95]، أي ما يساوي ذلك صياماً؛ وقوله: ﴿وَلَا يُوْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48].

وقد وردت الإشارة إلى ذلك في الصحيفة (دستور المدينة) بما يدل على المعاملة بالمساواة والعدل لجميع المنتمين

إلى المجتمع الإسلامي، مسلمين كانوا أو
غير مسلمين:

«.. وأنه من تَبَعْنَا من يهود فإن له النصر
والإسوة

غير مظلومين ولا مُتَنَاصِر عليهم..»

و«الإسوة» هي المساواة: تقول العرب..
القوم إسوةً في هذا الأمر أي حالهم فيه
واحدة؛ وهو إسْوَتُكَ أي أنت مثله وهو
مثلك؛ ومنه قول عمر لأبي موسى رضي
الله عنهما: آس بين الناس في وجهك
ومجلسك وعدلك أي: سَوَّ بينهم [لسان العرب
لابن منظور: مادة أس و].

وقد حرّم الله الظلم على نفسه وجعله
بين الناس محرّماً:

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:

40]؛

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ [يونس:

44]؛

• ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]؛

• ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة: 70،

الروم: 9]؛

• ﴿وَمَا اللَّهُ يَرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل

عمران: 108]؛

• ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

• «يا عبادي! إني حرّمت الظلم على

نفسي وجعلته بينكم محرّماً. فلا تَظَالَمُوا».

[رواه مسلم عن أبي ذرّ].

حتى لقد اشتهرت بين الناس مقولة شيخ

الإسلام ابن تيمية: «.. وأمورُ الناس إنّما

تستقيم في الدنيا مع العدل الذي [قد يكون]

فيه الاشتراك في [بعض] أنواع الإثم،

أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلَمِ فِي الْحَقُوقِ وَإِنْ لَمْ يُشْتَرَكْ فِي إِثْمٍ .. « وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً .. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ [مَعَ] الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ، وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ ! » (*) .

7. الاعترافُ بِالْآخِرِ ..

فهذه ستة من أبعاد « الوسطية » :
التَّحَنُّفُ، وَالْيُسْرُ، وَالتَّوَازُنُ (الاعتدال)،
وَالْإِخْلَاصُ، وَالِاسْتِقَامَةُ، وَالْعَدْلُ.

أما البُعد السابع فهو الاعتراف بِالْآخِرِ.
وَالْآخِرُ هُوَ فِي الْأَصْلِ كُلُّ مَا سِوَى الذَّاتِ.
فحِينَما بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً،
كَانُوا جَمِيعاً يُمَثِّلُونَ الْآخِرَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.
فَاعْتَرَفَ بِهِمْ: لَا اعْتِرَافَ

(*) ابن تيمية في كتاب ((الاستقامة))، بتحقيق محمد رشاد رفيق سالم.

ازدراء واستعلاء، كما كانت توحى بذلك مُزْدَوِجَة « اليونان والبرابرة » أو « الرومان والبرابرة »، وإنما اعتراف تمايز وتكافؤ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6] .. « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » [كما جاء في الصحيفة، أو قل: دستور المدينة].

وانطلق تعامله معهم من مبدأ أصيل كان يدعو به ﷺ كلَّ يوم: « أنا شهيدٌ أن العبادَ كلَّهم إخوة » [رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود عن زيد بن أرقم]، لأنهم يشتركون جميعاً في أن لهم أباً واحداً، فَهُمْ كَمَا يسميهم القرآن « بنو آدم »، وهم يشتركون جميعاً كذلك في أن لهم رباً واحداً: « أيُّها الناس ! إِنَّ رَبَّكُمْ واحد وإنَّ أباكُمْ واحد »

[رواه الإمام أحمد في مسنده] وأنهم مهما اختلفوا
فإن ربوبية الله تجمع بينهم:

﴿الله ربُّنا وربُّكُمْ﴾ [الشورى: 15]؛

﴿الله يجمعُ بيننا﴾ [الشورى: 15].

وأنهم سَوَاسِيَةٌ في التَّمَتُّعِ بخيرات هذه
الرُّبُوبِيَّةِ، لا تفرقةَ بينهم ولا تمييزَ في أيِّ
أمر من الأمور التي تتعلق بِرُبُوبِيَّةِ الله
عز وجل، كالماء، والغذاء، والرزق،
والعطاء، والدواء، والشفاء، والإمداد
بسائر أسباب الحياة:

﴿كَلَّا نُمَدُّ: هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ
رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾
[الإسراء: 20]؛

وحينما ﴿قال إبراهيم: رَبِّ اجْعَلْ هذا
بلداً آمناً وارزُقْ أهله من الثمرات من آمن

منهم بالله واليوم الآخر ﴿..﴾ قال ربُّ العالمين له: وَمَنْ كَفَرَ! ﴿البقرة: 13﴾.

بالتي هي أحسن

وهذا الاعتراف بالآخر يَسْتَتَبِعُ - بطبيعة الحال - الالتزام بأدب الحوار كما نصَّ عليه القرآن:

- ﴿وقولوا قولاً سديداً﴾ [الأحزاب: 70]؛
- ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ [الإسراء: 53]؛
- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتّي هي أحسن﴾ [النحل: 125]؛
- ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتّي هي أحسن﴾ [العنكبوت: 46]؛

• ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24].

ولا يَخْفَى أن آية سورة النحل تلفت نظرنا إلى ناحية مهمة. فالدعوة إلى الله ينبغي أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الجدل فلا يكفي أن يكون جدالاً حسناً، وإنما هو جدال بالتي هي أحسن.

ثم إن هذا الاعتراف بالآخر يستتبع الارتفاع بمستوى الحوار إلى صعيد مشترك:

• ﴿تَعَالَوْا [ارتفعوا بمستوى التعامل] إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ [آل عمران: 64]؛

• ﴿وقولوا آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد﴾ [العنكبوت: 46]؛

• ﴿الله ربُّنا وربكم؛ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم؛ لا حُجَّةَ بيننا وبينكم﴾ [الشورى: 15].

بَلْ هُنَاكَ الْجَامِعُ الْأَكْبَرُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ:
﴿الله يجمع بيننا﴾ [الشورى: 15].

وتتفرع عن الاعتراف بالآخر.. هذه القيمة الرئيسية، قيمتان فرعيتان: (أ) الانفتاح على الآخر؛ (ب) الاعتراف بالاختلاف.

أ. الانفتاح على الآخر ..

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ النَّاسَ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِيتعارفوا [الحجرات: 13]. وما كان الله ليَجْعَلَ النَّاسَ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ وَهُوَ يريدُهم أَنْ يَنْصَهُرُوا فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ. وما

كان الناس ليتعارفوا ما لم يَفْتَحْ كُلُّ مِنْهُمْ
أبوابَ عقله وقلبه على مصاريعها لما عند
الآخر. ويلفت نظرنا أخونا الدكتور حسان
حتحوت إلى أن لفظة التعارف تتضمن
أيضاً مفهوم التفاعل مع الآخر بالمعروف.

والله سبحانه يبيِّن عبادَه ﴿الذين
يستمعون القول﴾ - هكذا بإطلاق «القول» -
﴿فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 18]. والنبي ﷺ
- في ما رُوِيَ عنه - يجعل «الكلمة
الحكمة ضالة المؤمن، أُنَّى وجدها فهو
أحقُّ الناس بها» (*). ولذلك قال أمير
المؤمنين علي عليه السلام في عبارة رائعة: «العلمُ
ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي
المشركين» [رواه ابن عبد البر في جامع بيان
العلم 1، 121].

(*) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «أَبْوَابِ الْعِلْمِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ: حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَذَكَرَ أَنَّ فِيهِ رَاوِيًا يُضْعَفُ الْحَدِيثُ مِنْ قَبْلِ حَفْظِهِ؛ وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ فِي «الزَّهْدِ».

وَلِذَلِكَ نَرَى أَنَّ هَذِهِ الْمَلَّةَ «الْوَسْطِيَّةَ» «الْحَنِيفِيَّةَ» لَا تَفْرُضُ أَيَّ حَظَرٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ عَلَى كَلَامِ الْآخَرِينَ، مَلْفُوظًا كَانَ أَمْ مَكْتُوبًا، وَلَا تُصَادِرُ أَيَّ رَأْيٍ وَلَوْ كَانَ كُفْرًا. فَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ يَقْصُّ عَلَيْنَا مَا قَالَهُ الْآخَرُونَ بِنَصِّهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الرعد: 7]؛ ﴿وَقَالُوا...﴾ [الأنعام: 8، الإسراء: 90]؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ [النحل: 35]؛ ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ [الأنعام: 148]؛ ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ...﴾ [الفرقان: 8]؛ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ...﴾ [البقرة: 26]؛ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الرعد: 7، 27] ... وَنَرَاهُ يَطَالِبُهُمْ بِبَسْطِ حُجَّتِهِمْ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: 24، النمل: 24]؛ ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟﴾

[الأنعام: 148]؛ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
بِهَذَا﴾ [يونس: 68].

وتعجبني في هذا المقام عبارة نفيسة
لسلطان العلماء العز ابن عبد السلام [في
كتابه: «الفتاوى الموصلية»، ص: 134] يقول
فيها: «وليس كلُّ ما فعلته الجاهلية منهياً
عن ملابسته، إلا إذا نهت الشريعة عنه،
ودلت القواعد على تركه». كما يقول [ص:
31]: «ويختصُّ النهي بما يفعلونه على
خلاف مقتضى شرعنا، أما ما فعلوه على
وفق النَّدْب أو الإيجاب أو الإباحة في
شرعنا، فلا يُترك لأجل تعاطيهم إياه، فإن
الشرع لا ينهى عن التشبُّه بمن يفعل ما
أذن الله تعالى فيه...» «ولو تُرك الحق
لأجل الباطل، لَتَرَكَ الناس كثيراً من
أديانهم!» [ص: 42]. ولا شك عندي في أن
ما قاله ينطبق على ما يسمّونه «جاهلية

القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين
« مثلما ينطبق على الجاهلية الأولى.

ثم إنّ هذه الأمة الوَسَط تتَّصفُ
بالخيرية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾
[آل عمران: 110]. وهذه الخيرية تقتضي أن
يكون انفتاحها على الآخر انفتاحاً إيجابياً
يَصُبُّ في مصلحة هذا الآخر: «كُنْتُمْ خَيْرَ
النَّاسِ لِلنَّاسِ» كما يقول أبو هريرة رضي الله عنه (*).
ويتجلّى ذلك أوّل ما يتجلّى في دعوة هذا
الآخر إلى الخير: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]؛ وهذه
الدعوة هي في الأصل إحدى المهمّات
الرئيسية الخمس التي بُعث بها رسول
الله صلّى الله عليه وآله وجاء ذكرها في سورة الأحزاب [46]
وهي كونه صلّى الله عليه وآله «داعياً إلى الله بإذنه»،
ثم أصبحت مهمة رئيسية من مهمّات كلّ
مَنْ اتَّبَعَهُ: ﴿قُلْ: هَذِهِ سَبِيلِي: أَدْعُو إِلَى اللَّهِ

على بصيرة أنا ومن اتبعن ﴿[يوسف: 108]﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴿[فصلت: 33]﴾.

فالمُنْذِرُونَ في تِيَّارِ هذه الحنيفيّة الوسطيّة كلّهم دُعاةٌ بالحكمة والموعظة الحسنة، لا يَسْأَمُونَ من الدعوة إلى الخير، ولا يَقْنَطُونَ من بُطء استجابة الآخرين لهم، ولا يجادلون إلّا بالتي هي

(*) وَرَدَ هذا الأثر في صحيح البخاري ((كتاب التفسير))، سورة آل عمران: باب كنتم خير أمة أخرجت للناس.

أحسن، ولا يَحْكُمُونَ على عقائد الناس ﴿فإن الله يحكمُ بينهم يوم القيامة﴾ [البقرة: 113]، ولا يَكْفُونَ عن تألّف القلوب الذي هو صَدَقَةٌ قولية إلى جانب كونه زكاةً عباديّة، إذ كما خَصَّصَ الله سهماً من أسهم الزكاة ليُصرف على ﴿المؤلّفة

قلوبهم﴾ [التوبة: 11]، قال النبي ﷺ: «كلُّ كلمة طيبة صدقة» [رواه البخاري في الأدب المفرد بإسناد حسن].

ب. ولا يزالون مختلفين !

أما القيمة الفرعية الثانية المتفرعة عن الاعتراف بالآخر فهي الاعتراف بالاختلاف. فالله عز وجل يبين أنه قد خلق الناس مختلفين، وأنهم سوف يظلُّون كذلك: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ [هود: 118]، وأنه ﴿لذلك﴾ - أي للاختلاف - ﴿خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 119]. وما كان الله ليأذنَ بقمع هذا الاختلاف وهو قد خَلَقَ الناسَ له. وقد حَكَمَ سبحانه بأنه ﴿لا إكراهَ في الدين﴾ [البقرة: 256]. وقال لنبيه ﷺ: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ [الغاشية: 24]؛ ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ [ق: 45]؛ ﴿ولو شاء ربُّك لآمنَ مَنْ

في الأرض كلُّهم جميعاً؛ أفأنت تُكره
الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ ﴿
[يونس: 99]؛ ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمةً
واحدة﴾ [المائدة: 48]؛ ﴿ولو شاء ربُّك لجعل
الناس أمةً واحدة﴾ [هود: 118].

فليس من الإسلام ما يحاوله اليوم بعض
من ينتسبون إليه، من محاولة قسْر الناس
على فكر واحد، سواء كان ذلك في نطاق
المسلمين أو خارج هذا النطاق؛ بل إنّ في
هذه المحاولة مخالفةً صريحةً لأمر الله،
والله عز وجل يقول: ﴿فليحذر الذين
يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو
يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: 63].

*

نحن لا نُعادي الثقافات الأخرى، وإنما
نناقشها ونجادلها ونحاورها، ولا يجوز لنا

ونحن نشكو من الاستشراق، أن نمارس
استشراقاً عكسياً، يفضي بنا إلى أن نخرج
على حضارة العصر، وننطلق منها إما
إلى "اللاحضارة"، وإما إلى حضارتنا
العربية الإسلامية القديمة التي مازالت –
في رأينا – ماثلةً في حضارة العصر بما
صَلَحَ أن يبقى منها في حضارة العصر.
وسوف يكون موقفاً مشرّفاً لنا، أن نرشد
هذه الحضارة العالمية بما ينقُصها من
روح وخلق ومُثل وقيم.

*

5 الخلق العظيم

سمعتُ مرةً شيخنا محمداً الغزالي ،
تغمّده الله برحمته، يقول: «إن الأخلاق أهم
من العبادات في الإسلام».

وقد استوقفتني هذه العبارة وأدهشتني،
لولا أنه سرعان ما استدل لذلك بالحديث
الصحيح: «آية المنافق ثلاث، وإن صام
وصلّى وزعم أنه مسلم، إذا حدّث كذّب،
وإذا وعدّ أخلف، وإذا أوّثمن خان» [رواه
مسلم]. وهو حديث نجدُ جذوره في كتاب
الله: ﴿فَاعْقَبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ
يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 77]، ولكن الجملة

الاعتراضية في الحديث: «وإن صام وصلى» تدل على أن عبادة المنافق لم تَشْفَعْ له في إخراجهِ من زمرة المنافقين، لما يَعيِب شخصيَّته من مَفسد الأخلاق وأخلاق السوء.

ثم رأيتُ الله عزَّ وجلَّ يتحدَّث عن ﴿الذي يكذب بالدين﴾ فَيَصِفُهُ بأنه الذي يَدْعُ اليتيم، ولا يحضُّ على طعام المسكين، بل يهدِّد بالويل أولئك المصلِّين الغافلين عن المغزى الحقيقي لصلاتهم، لأنَّهم ﴿يُراوون ويمنعون الماعون﴾ [الماعون: 1-5].

بل قد صحَّ عن رسول الله ﷺ قوله: «إن الرجل ليُدرِك - بحُسن خُلُقهِ - دَرَجاتِ قائم الليل صائم النهار». (*) وقوله: «إنَّ أكملَ المؤمنين إيماناً: أحسنُهم خُلُقاً، وإنَّ حُسنَ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ درجةَ الصوم والصلاة

«(**) والشطرُ الأول من هذا الحديث الأخير، يربط كمال الإيمان بحسن الخلق، وقد تكرر التركيز على ذلك في كثير من

(*) أخرجه أبو داود وابن حبان عن عائشة، والحاكم وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

(**) أخرجه البزار في «مسنده» عن أنس، بإسناد صحيح.

الأحاديث الصحاح، كقوله ﷺ: «أَكْمَلُ

المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً، وخياركم

خياركم لنسائهم» [رواه الترمذي عن أبي هريرة

وقال: «حديث حسن صحيح»]؛ ويشهد له حديث

عائشة [الذي رواه الترمذي وحسنه]: «إن من

أَكْمَلِ المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً،

وأطفهم بأهله»؛ وقوله ﷺ: «أَكْمَلُ

المؤمنين إيماناً: أحسنهم أخلاقاً،

الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون،

ولا خيرَ في مَنْ لا يألف ولا يؤلف»

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري بإسناد

حسن] وقوله ﷺ: «أفضل المؤمنين: أحسنهم خلقاً» [رواه البيهقي في «الزهد الكبير» عن ابن عمر بإسناد حسن]؛ وقوله: «أحبُّ عباد الله إلى الله: أحسنهم خلقاً» [رواه الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح]؛ وقوله: «أكثرُ ما يدخل الناس الجنة: تقوى الله وحسن الخلق» [أخرجه الترمذي عن أبي هريرة بإسناد حسن]؛ وقوله: «أنقلُ شيء في الميزان الخلق الحسن» [أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء بإسناد صحيح].

فلا عَجَبَ إِذْ إِذَا رَأَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ يُلَخِّصُ الغاية من بعثته المباركة إلى الناس كافة، بل إلى العالمين قاطبة، في عبارة واحدة: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»(*)؛ ولا عَجَبَ إِذَا أَتَنَى عَلَيْهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أوائل ما أنزل عليه من سُور: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]؛ ولا عَجَبَ إِذَا

لَخَّصَتْ أُمُّنا السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها، وهي من أعلم الخلق به، خُلِّقَ العَظيم هذا في عبارة واحدة أيضاً: «كان خُلِّقَ القرآن» [رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن عائشة]... وكفى بذلك عَظَمَةً!

*

وقد ذكرنا أن الله سبحانه قد لَخَّصَ مهامَّ نبيِّه صلوات الله عليه في غير ما آية في ثلاث مهامَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

(*) رواه البخاري في ((الأدب المفرد))، وابن سعد في ((الطبقات))، والحاكم، وأحمد، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) عن أبي هريرة مرفوعاً بإسناد حسن. وقال ابن عبد البر: ((وهو حديث صحيح متّصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره)).

رسولاً من أنفسهم: (1) يتلو عليهم آياته، و(2) يزيّجهم، و(3) يعلمهم (3-أ) الكتاب و(3-ب) الحكمة ﴿[آل عمران: 164].

وقلنا إن الله لو شاء لأنزل كُتُبَهُ على
الناس دونَ ما واسطة، لو كانت غايةً ما
في الأمر أن يصل مضمونها إلى الناس،
ولكنه سبحانه - وله الحمدُ والمِنَّةُ - شاء أن
يكون تبليغُها على رُسُل، لا يقتصر عملهم
على تلاوة آيات الله، ولكنهم فوق ذلك
يَعْلَمُونَ الناس الكتاب، وهو الصُّحُف
المنزَّلة بحرفيّتها من عنده، وَيَعْلَمُونَ
الناس الحكمة، وهي الوحي الذي يعبِّرُ
عنه الرُّسُلُ بعباراتهم هم، استكمالاً لتعليم
الكتاب وشرحاً لتعاليمه، وَيُزَكُّون الناس
أي يَعْلَمُونَهُم الخُلُقَ العظيم بأن يصير كلُّ
من هؤلاء الرُّسُل كتاباً يُعَاش، وآياتٍ
تتبعث فيها الحياة، وسلوكاً يُقْتَدَى به
ويُؤْتَسَى ويُؤْتَمَّ، وبذلك يكون الرُّسُل
شُهَدَاءَ على الناس.

دِيناً قِيَمًا !

فَلِمَ هذا التركيز على الأخلاق في
شريعة الإسلام، ولماذا كانت الأخلاق في
المقام الأول؟

لأن الله سبحانه يَعُدُّ هذا الدين منظومة
من القِيم، فيقول جل شأنه : ﴿قُلْ: إِنِّي
هداني ربي إلى صراطٍ مستقيم: ديناً
قِيماً﴾ [الأنعام: 161] فجعل القِيم بَدَلاً من
الدين نفسه، ولم يَقُلْ «دين القِيم» بل قال:
﴿ديناً قِيماً﴾ ليلفت أنظارنا - والله أعلم -
إلى أن الدين هو نفسه القِيم وهو نفسه
الأخلاق.

ولكنها الأخلاق الإيجابية التي يعتنقها
المرء بقرار حُرٍّ، ويتحمَّل مسؤوليَّتها
بالتزام كامل. ولعله لذلك كانت الحرية في
الإسلام أهم من الحياة نفسها. بُرْهان ذلك
قول الله عزَّ وجل في سورة البقرة: ﴿والفتنة

أشدُّ من القتل» [191]، «والفتنة أكبر من القتل» [217]. وذلك نصٌّ صريح على أن الفتنة التي هي سلب الحرية أشدُّ من القتل الذي هو سلب الحياة. والنتيجة المنطقية لكون «سلب الحرية» أشد من «سلب الحياة»، أن الحرية أهم من الحياة ذاتها. وليس ذلك بعجيب إذا تذكرنا أن إنسانية الإنسان تكمن في هذه الحرية. وأن الله جلَّ جلاله قد أسجدَ ملائكتَه لهذا المخلوق الحرِّ، الذي يستطيع بملء إرادته أن يؤمن أو يكفر، وأن يطيع أو يعصي، وأن يُحسن أو يسيء. وأنت تجد النصَّ على هذه الحرية مبثوثاً في القرآن المجيد، من مثل قوله تعالى في جانب الإيمان: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: 29] وقوله في جانب العمل: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [فصلت: 40]

﴿اعملوا على مكانتكم﴾ [هود: 121؛ الزمر: 39].

ولكن هذه الحرّية المطلقة لا بُدَّ أن تقابلها مسؤولية مطلقة، مادام الإنسان هو الذي يتخذ قراره بإرادته الحرّة. والمسؤولية قبل كل شيء استعدادٌ فطري.. هي تلك المقدرة على أن يُلزم المرء نفسه أولاً وقبل كل شيء، ثم هي القدرة على أن يَفِيَّ بعد ذلك بالتزامه بفضل جهوده الخاصة. وهذا الاستعداد الفطري مغروسٌ في الإنسان متجدِّدٌ حتى في حقيقته الوراثية، ولربما كشفت بحوث المَـجِين (الجينوم) البشري، في يوم من الأيام، عن مقرّر هذا الاستعداد في جيناته! نقول ذلك في محاولة لفهم قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

بربكم؟ قالوا بلى! شهدنا! ﴿الأعراف: 172﴾ وقوله سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ [الأحزاب: 72].

هذا ما كان من أمر المسؤولية من حيث المبدأ. حتى إذا ما انتقلنا إلى حيّز التطبيق، فسوف نرى جانباً جديداً من جوانب المسؤولية. لأن مجرد انتقال القرار المتّخذ إلى حيّز العمل، ينقل المسؤولية من المستقبل إلى الماضي، فيصبح المرء مسؤولاً، لا باعتباره قادراً على العمل، بل باعتباره قد قام بالعمل.. وأصبح من واجبه أن يقدّم تقريراً أو "كشف حساب" عمّا عمل. وبديهي أن يقدّم المرء هذا التقرير إلى الجهة التي يصدر عنها التكليف. والمرء يمكن أن

يخضع لتكليفٍ من لَدُنْهُ يُلْزَم به نفسه، أو
لتكليف يتلقاه من أناس آخرين كأن يتلقاه
من رئيس له أو حاكم، أو لتكليف يتلقاه
من الله عزَّ وجل. وسواء أكان المرء
مسؤولاً أمام نفسه [مسؤولية أخلاقية] أم أمام
إنسان آخر [مسؤولية اجتماعية] أم أمام الله
سبحانه [مسؤولية دينية]، فإن حكم المسؤولية
يصدر دائماً من قِبَل نفس السلطة التي
أصدرت أمر التكليف.

.. وكلُّكم مسؤول!

من هنا نجد ثلاثة أنواع من المسؤولية:
المسؤولية الأخلاقية، والمسؤولية
الاجتماعية، والمسؤولية الدينية. ولكننا
نستطيع أن نقول: إن كل مسؤولية - أيّاً
كانت - تصبح مسؤولية أخلاقية متى
ارتضيناها. فالمسؤولية التي يحمّلنا إياها

غيرُنا، تصبح بمجرد قبولنا لها مطلباً
 صادراً عن شخصنا. وإذن فليس من
 المستغرب أن يقدّم لنا القرآن المسؤولية
 الدينية ذاتها في صورة مسؤولية أخلاقية
 كما في قوله سبحانه: ﴿علم الله أنكم كنتم
 تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 187] في إشارة
 إلى تحايل بعض الناس في التهرب من
 التزام تحمّلوا مسؤوليته عندما أطاعوا أمر
 الله بالصيام. وفي كثير من الأحيان، لا
 يكتفي القرآن، وهو يستحث المؤمنين إلى
 الطاعة، بأن يذكرهم بالأمر الإلهي، بل
 يذكرهم في الوقت نفسه بالعهد الذي
 قطعوه على أنفسهم بأن يطيعوا هذا الأمر:
 ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ [الحديد: 8]، ﴿إذ قلتم:
 سمعنا وأطعنا﴾ [المائدة: 7].

وإن المرءَ ليعجب غايةَ العَجَب، عندما
 يرى كيف يُحيل الله عز وجل الإنسانَ

على محكمة الضمير يوم القيامة: ﴿وكلَّ
إنسانَ أَلَزَمناه طائِرَهُ في عُنُقِهِ، ونَخرجُ لَه
يومَ القِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنشوراً: اقرَأ كِتابَكَ
! كَفى بِنَفْسِكَ اليَومَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾
[الإسراء: 14-15]؛ ﴿وكلَّ شَيْءٍ أَحصيناهُ
كِتاباً﴾ [النبا: 29]؛ ﴿هَذا كِتابُنا يَنطِقُ عَلَيمُ
بالحَقِّ﴾ [الجاثية: 29]؛ ﴿وأما مَن أُوتِيَ كِتابَهُ
بشِمالِهِ فيقول: ياليتني لَم أُوتَ كِتابِيَّةَ﴾
[الحاقة: 25]؛ ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ ما أَحضَرْتُ﴾
[التكوير: 14]؛ ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ ما قَدَّمْتُ
وَأَخَّرْتُ﴾ [الانفطار: 5]؛ ﴿ووجدوا ما
عملوا حاضراً!﴾ [الكهف: 49].

ولابدَّ لنا في هذا المقام من أن نشير إلى
الطابع الشخصي للمسؤولية الأخلاقية
والدينية. ونحن نجد النصَّ على ذلك في
مثل قوله تعالى: ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَليها ما

اَكْتَسَبَتْ ﴿البقرة: 286﴾؛ وقوله: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ [النساء: 111]؛ ﴿كلُّ امرئٍ بما كَسَبَ رَهِينَ﴾ [الطور: 2]؛ ﴿كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]؛ ﴿ولا تكسب كلُّ نفسٍ إلا عليها﴾ [الأنعام: 164]؛ ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: 15]؛ ﴿لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ [لقمان: 33]؛ ﴿اليومَ تُجْزَى كل نفس بما كَسَبَتْ، لا ظُلْمَ اليومَ!﴾ [غافر: 17]؛ ﴿ولكلِّ درجاتٌ مما عملوا﴾ [الأحقاف: 19]؛ ﴿وأنَّ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنَّ سعيه سوف يُرى﴾ [النجم: 39-40]؛ ﴿تلك أمةٌ قد خَلَتْ، لها ما كَسَبَتْ ولكم ما كَسَبْتُمْ، ولا تُسألون عَمَّا كانوا يعملون﴾ [البقرة: 134].

فليس للخطيئة الأولى لأبي البشر
رواسبٌ في ذريته، فهو وحده الذي تحمّل
مسؤولية عمله، ﴿ثم اجتباه ربّه فتاب عليه
وهدى﴾ [طه: 122]. وإن القرآن ليُصوّر لنا
أخذ البريء بالمذنب، لا على أنه مُنافٍ
للشريعة فحسب، بل هو كذلك غير متوافق
مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية:
﴿قال: معاذَ الله أن نأخذ إلا من وجدنا
متاعنا عنده، إنّنا إنّ لظالمون!﴾ [يوسف:
79].

*

ولعلّ من نافلة القول أن نوكد أن
الإمكان الماديّ للعمل شرطٌ لا مَعْدَى عنه
في الإلزام الأخلاقي. وهو ما ورد في
مثل قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما
آتاها﴾ [الطلاق: 7] وقوله: ﴿لا تُكَلِّف نفساً
إلا وُسْعها﴾ [الأنعام: 52] وقوله: ﴿لا يُكَلِّف

الله نفساً إلا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. وانظر إلى آثار رحمة الله كيف استعمل لفظة "الْوُسْع" وما توحى به من توفير "السَّعة" للإنسان في ما كَلَّفَه الله به من تكاليف. وانظر في مقابل ذلك إلى لفظة "الْحَرَج" وما توحى به من تضيق يأبى الله سبحانه أن يعرِّض الإنسان إليه: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حَرَجٍ﴾ [الحج: 78].

وقد ذكرنا أن الشريعة السمحة تتعدى ذلك لتؤكد على ضرورة التزام اليُسْر لا مجرد الإمكان المادي للعمل. وهذا ما فهمه مُبَيَّنُّ هذه الرسالة ومعلِّمُها صلوات الله وسلامه عليه حين كان يقول: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا» [رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد عن ابن عباس]، ويقول: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَبِئاً وَلَا

متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً» [أخرجه مسلم عن جابر]. وحين كان هذا الفهم يتجلى في سلوكه العملي – بأبي هو وأمي – إذ «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً» [متفق عليه، عن عائشة أم المؤمنين].

«لَكَ مَا نَوَيْتَ» (*) !

وليس يجوز أن نجاوز هذا الموضع قبل أن نتعرض ولو ببضع كلمات إلى النية. والحديث المشهور الذي يتحدث عن النيات نجده في صدر الصحيحين: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل

(*) جزء من حديث رواه البخاري عن معن بن يزيد بن الأحنس.

امرى ما نوى». وهو يدلُّنا دلالة واضحة على أن العمل لا يمكن أن يكون

خيراً أو صالحاً في حدّ ذاته ما لم
تَصْحَبُهُ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ، وإلا « فهِجَرْتُهُ إِلَى مَا
هَاجَرَ إِلَيْهِ » كما ورد في الحديث [الذي رواه
البخاري ومسلم عن عمر]. ولعله لذلك كان من
دعاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «
اللهم اجعلْ عملي كُلَّهُ صالحاً، واجعله
لوجهك خالصاً، ولا تجعلْ فيه لأحد شيئاً
».((

« فَعُدُولُ الْمُؤْمِنِ عَنِ الرِّهَابَانِيَّةِ وَالتَّشْدِيدِ
وَتَعْذِيبِ النَّفْسِ الَّذِي لَا يَحِبُّهُ اللَّهُ، إِلَى مَا
يَحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الرُّخْصَةِ، هُوَ مِنَ الْحَسَنَاتِ
الَّتِي يُثِيبُهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَإِنْ فَعَلَ مَبَاحاً، لِمَا
اقْتَرَنَ بِهِ مِنَ الْإِعْتِقَادِ وَالْقَصْدِ اللَّذَيْنِ
كِلَاهُمَا طَاعَةٌ لِلَّهِ وَرِسُولِهِ، فَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ
بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى » (*) .

(*) شيخ الإسلام ابن تيمية: شرح كلمات الشيخ عبد القادر الجيلاني من ((فتوح الغيب)). تحقيق إياد إبراهيم، مكتبة المثنى، بغداد، 1987.

ولذلك فإننا نجد في كتاب الله كثيراً من مثل قوله تعالى: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيثاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: 265]، وقوله ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُوْتِيهِ أَجْراً

عظيماً﴾ [النساء: 114] وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَعُونَ﴾ [الروم: 39]. وهكذا فإن المنظور الأخلاقي للعمل يدلُّنا على أن صلاح العمل وحده لا يكفي ما لم تكن النية الدافعة إليه صالحة أيضاً.

ولكن العكس أيضاً صحيح. فالنية الحسنة لا تستطيع أن تجعل الشرّ خيراً. ولذلك نهى القرآن المجيد نهياً قاطعاً عن أي استشارة لمشاعر غير المسلمين، فقال:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].
 فلو أن مؤمناً غيوراً دفعته حرارة إيمانه
 إلى أن يعبر - دون تعقل - عن احتقاره
 للأصنام، سباً أو تقذيراً أو تحطيماً، دون
 أن يفكر في ردود الفعل المحتملة على
 ذلك، فلن يكون معذوراً بنزاهة قصده
 وخُلوص نيّته.

وفي مثل ذلك يقول الإمام الغزالي [في
 إحياء علوم الدين]: «بَلْ قَصْدُهُ الْخَيْرَ بِالْشَّرِّ
 عَلَى خِلَافِ مَقْتَضَى الشَّرْعِ شَرٌّ آخَرُ، فَإِنْ
 عَرَفَهُ فَهُوَ مُعَانِدٌ لِلشَّرْعِ، وَإِنْ جَهِلَهُ فَهُوَ
 عَاصٍ بِجَهْلِهِ، إِذْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَرِيضَةً عَلَى
 كُلِّ مُسْلِمٍ. وَالْخَيْرَاتُ إِنَّمَا يُعْرَفُ كَوْنُهَا
 خَيْرَاتٌ بِالشَّرْعِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ
 الْخَيْرُ شَرًّا؟! هِيَاهُت..» ثم يقول: «مَنْ
 قَصَدَ الْخَيْرَ بِمَعْصِيَةٍ عَنْ جَهْلٍ فَهُوَ غَيْرُ

معدور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم».

إن النبي ﷺ لم يقل: «إنما الأعمال بالنيّات» فحسب، وإنما قال أيضاً: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» [رواه مسلم عن عائشة]. وهذا أفضل برهان على أن المسلك الحسن لا ينحصر في حسن النية وحده، ولا في جودة العمل وحدها، بل في مزيج متوازن من النية والعمل.

وليس أقلّ من ذلك دلالة، ما أثبتته القرآن الحكيم من فرق بين المجاهدين وغير المجاهدين، وفي هؤلاء بين الضعفاء والأصحاء، بل بين المجاهدين قبل الفتح وبعده، ولو أنهم جميعاً قد أدرجوا تحت عنوان المؤمنين، وأنهم موعودون جميعاً بنعيم الآخرة. ولكنهم ليسوا جميعاً في درجة واحدة: ﴿لا يستوي منكم من أنفق

من قبل الفتح وقاتل ! أولئك أعظم درجة
من الذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا؛ وكلاً وعد
الله الحسنی ﴿[الحديد: 10]﴾، ﴿فضّل الله
المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين
درجة - وكلاً وعد الله الحُسْنَى - وفضّل
الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً:
درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمة﴾ [النساء: 95-
96].

ولماذا؟ ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا
نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله، ولا
يَطْؤُونَ موطئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ، ولا يَنَالُونَ
من عدو نَيْلاً إلا كُتِبَ لَهُم بِهِ عمل
صالح؛ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ..
ولا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً ولا
يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لَهُم، ليجزيهم الله
أحسنَ ما كانوا يعملون﴾ [التوبة: 120-
121].

إن النية الصالحة خير، والعمل الصالح خير، ولكن العمل الصالح القائم على النية الصالحة هو العمل الأخلاقي الكامل.

الخير.. والحق.. والجمال

وبعد فإن الناس قد أجمعوا أو كادوا على ثلاثة مُثُلٍ عليا، يعدُّونها غايةً َ ما تبْلُغه الأخلاق من سُمُوٍّ، ألا وهي الخير والحق والجمال. فما موقع هذه المُثُل من منظومة الأخلاق في الإسلام؟

أما الخير فلا يشك أحدٌ في مكانته العالية في نظر الإسلام، والله سبحانه وتعالى يأمر به أمراً عاماً بقوله: ﴿وافعلوا الخير﴾ [الحج: 77]، ويوحى إلى أنبيائه بفعله: ﴿وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾

[الأنبياء: 73]، بل ويدعو إلى التسابق في فعله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148]. ولكنه جلّ وعلا حين يفصل القول فيه يكاد يحصره في ثلاث خصال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: 114]، وهنّ جميعاً من سمات المجتمع الإسلامي المتحضر ومن ضمانات حفظه.

أما الصدقة فهي اسمٌ جميل يطلقه الإسلام للتعبير عمّا نقول له اليوم: السلوك الحضاري أو التصرف الحضاري. والسبب في ذلك أنها بدلالة اسمها مصداقُ انتماء المرء إلى المجتمع الإسلامي المتحضر، يدل على ذلك قول

النبي ﷺ: «والصدقةُ برهان» [رواه مسلم
عن أبي مالك الأشعري].

وهذه المصداقية إنما تتأتى بأنماط
متعددة من السلوك، كلٌ منها ينبئ صراحةً
عن شعور المسلم بالانتماء إلى مجتمع
المؤمنين، وكلٌ منها يمثل تصرفاً أخلاقياً
في غاية الرقي.

على كلِّ نفسٍ صدقة !

فالإسلام يطلب من كل مسلم ومسلمة أن
يثبتا يومياً: مرةً في اليوم على الأقل،
انتماءًهما إلى المجتمع الإسلامي،
بتصرف حضاري واحد على الأقل. ففي
ذلك التوجيه العام الذي أصدره معلم هذه
الأمّة ﷺ قال: «على كل نفسٍ، في كل يومٍ

طلعت فيه الشمس، صدقةً منه على نفسه»
[رواه الإمام أحمد عن أبي ذر بإسناد صحيح].

ولقد تبادَرَ إلى ذهن السامع قَصْرُ مفهوم
الصدقة على المظهر المالي لها، فسأله: «
من أين أتصدَّق وليس لنا أموال ؟»، فإذا
بالجواب التوضيحي الواسع يبين أن
للصدقة أبواباً عديدة:

«لأن من أبواب الصدقة:

• التكبير، وسبحان الله والحمد لله ولا
إله إلا الله وأستغفر الله؛

• وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛

• وتعزل الشوكة عن طريق الناس
والعظمة والحجر؛

• وتهدي الأعمى؛

• وتُسمع الأصمَّ والأبكم حتى يفقه؛

• وتدلُّ المستدلُّ على حاجة له قد علمت مكانها؛

• وتسعى بشدة ساقبك إلى اللفان المستغيث؛

• وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف..

كلُّ ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك ..».

ولكن النبي ﷺ في الوقت نفسه لم يدع موضوع الأموال فقال رداً على سؤال "أرأيت إن لم يجد؟" في رواية متفق عليها عن أبي موسى: "يعمل بيديه فينفع ويتصدق".

وفي حديث آخر أو رواية أخرى عن أبي ذر:

«• تبسّمك في وجه أخيك: صدقة؛

• وأمرُك بالمعروف ونهيُك عن المنكر: صدقة؛

• وإرشادُك الرجلَ في أرض الضلالة: صدقة؛

• وبَصْرُكَ [أي تبصيرُك] الرجلَ الرديءَ البصر: صدقة؛

• وإِماطُكَ [أي إزالَتُك] الحجرَ والشوكة والعظمَ عن الطريق: صدقة؛

• وإِفراغُكَ من دلوكَ في دلو أخيك: صدقة».

[رواه الترمذي – والسياق له – والبخاري في «الأدب المفرد» وابنُ حبان].

وفي حديث ثالث عن أبي ذر:

« سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟
قال: إِيْمَانٌ بِاللّٰهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ، قُلْتُ:

فأي الرقاب أفضل ؟ قال: أغلاها ثمناً
وأنفسها عند أهلها، قلت: فإن لم أفعل ؟
قال: تُعين صانعاً أو تصنع لأخرق، قلت:
فإن لم أعمل ؟ قال: تدعُ الناس من الشر
فإنها صدقة تصدقُ بها على نفسك » [متفق
عليه].

وفي حديث رابع [رواه البخاري في الأدب
المفرد بإسناد حسن]:

« • كلُّ كلمة طيبة: صدقة؛

• وعوُّ الرجل أخاه: صدقة؛

• والشربةُ من الماء تسقيها: صدقة؛

• وإمالة الأذى عن الطريق: صدقة

..»

وفي حديث خامس [رواه مسلم عن جابر]:

« لا يَغرَس مسلّمُ غرساً، ولا يَزرع
زرعاً فيأكل منه إنسانٌ ولا دابةٌ
ولا شيءٌ إلا كانت له صدقة! ».

وفي حديث سادس [متفق عليه عن أبي
هريرة]:

• « تعدل بين الاثنين [أي: تصلح بينهما
بالعدل]: صدقة؛

• وتُعين الرجل في دابّته، فتحمله عليها
أو ترفع له عليها متاعاً: صدقة؛

• والكلمة الطيبة: صدقة؛

• وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة:
صدقة؛

• وتُميط الأذى عن الطريق: صدقة ».

فانظرْ رَحْمَكَ اللهُ إلى هذه الأخلاق السامية، وتأملْ في هذه الأمور التي يعُدُّها الكثيرون من التَّوَافِه، وهي تَعْدِلُ الجبال في ميزان الله عز وجل، لأن الصدقة عبادة، فكل خصلة من هذه الخصال عبادة من العبادات.

وانظر كم يُضَيِّع كثيرٌ ممَّن ينتمون إلى الإسلام على أنفسهم من هذه العبادات المبرورة، إذ تراهم متجهِّمين عابسين يظنون أن ذلك من خُلُق الإسلام، وينقِّرون الناس من هذا الدين الجميل، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي مسعود الأنصاري: « إِنْ مِنْكُمْ مَنْقَرِينَ »، ولو أنهم علموا - كما يقول أخونا الدكتور حسان حتوت - أن الأسنان ليست عورةً يَحْرُمُ كشفُها، وأن كلَّ بَسْمَةٍ يتبسَّمونها في

وجه إخوانهم: عبادة، ينبغي أن يستكثر المرء منها ما استطاع، لوجدنا المجتمع الإسلامي طافحاً بالبشر حافلاً بالمودة.

بل إن العلاقة الجنسية بين المرء وزوجه، ترتفع أيضاً إلى مرتبة العبادة التي يؤجر عليها الزوجان، بكل ما في العبادة من نظافة وطهر وسُمُو، إذ يقول النبي ﷺ: « وفي بُضْع أحدكم - أي في مجامعة زوجته - صدقة ! » قالوا: « يا رسول الله ! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » ! [رواه مسلم عن أبي ذر].

وانتمروا بينكم بمَعروف !

أما المعروف فهو قطاع من قطاعات
الصدقة، لقوله ﷺ: «كُلُّ معروف صدقة»
[رواه البخاري عن جابر، ومسلم عن حذيفة].
ويبين المقصودَ من المعروف قولُ النبي
ﷺ:

« ائْتِ المعروف واجتنب المنكر! وانظر
ما يعجب أذنك أن يقول لك القوم إذا قمتَ
من عندهم، فَأَنْتِ ..، وانظر الذي تكرهه
أن يقول لك القوم إذا قمتَ من عندهم
فاجْتَنِبِيهِ » [رواه البخاري في « الأدب المفرد »
عن حرمة بن عبد الله]. وفي رواية [أخرجها
الدولابي في « الكنى » عن أبي المنتفق]: « ..
وانظر ما تحبُّ من الناس أن يأتوه إليك،
فافعله بهم؛ وما كرهتَ أن يأتوه إليك،
فذرهم منه ».

ومثله قوله ﷺ:

«البِرُّ: حُسْنُ الخلق؛ والإِثمُ: ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» [رواه مسلم عن النواس ابن سمعان].

وقوله ﷺ: «البِرُّ: ما اطمأنت إليه النفس واطمأنَّ إليه القلب؛ والإِثمُ: ما حاك في النفس وترددَ في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك» [حديث حسن رواه أحمد والدارمي في مُسْنَدَيْهِما عن وابصة بن معبد].

والمعروفُ على هذا مرادفٌ للبِرِّ، والمنكرُ مرادفٌ للإِثمِ، والإِثمُ: كلُّ ما فيه ضَرَرٌ، لقوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ: فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]. فجعل سبحانه الإِثمَ في مقابل النفع، فهو الضرر إذن.

وعلى هذا، فإن المعروف هو تعبيرٌ عن ضمير المجتمع الإسلامي الصالح، أي ما تَعَارَفَ المسلمون على أنه في مصلحة الفرد والمجتمع، والمنكر تعبيرٌ عما يَسْتَكْرِهُ ضمير المجتمع الإسلامي الصالح ويرفضه، لما فيه من مَفْسَدَةٍ للفرد والمجتمع. وإذا كان الأمر كذلك وَجَبَ التذكير به دائماً، توثيقاً لِلحمة التماسك بين أفرادهِ. وهذا التذكير هو ما يُعرف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. « لأن الأمر بالمعروف سعيٌّ في جَلْبِ مصالح المأمور به، والنهي عن المنكر سعيٌّ في دَرْءِ مَفسَدِ المنهي عنه، وهذا هو النَّصْحُ لكلِّ مسلم، وقد بايع صلى الله عليه وسلم على النَّصْحِ لكلِّ مسلم » (*). فمن أجل المحافظة على

(*) العز بن عبد السلام في «قواعد الأحكام»: 157/1.

صلاح المجتمع لا بُدَّ من اعتناء أفراد المجتمع بأنفسهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [أي: عليكم أن تعتنوا بها] بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن فعلوا ذلك لا يضرُّهم ضلالٌ مَنْ ضلَّ إذا اهتَدَوْا، فهم الكثرة الكاثرة القوَّامة على أمر الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105].

ومع أن ما ورد من الخطاب القرآني والنبوي بصيغة العموم أو بصيغة الذكور يدخل فيه الذكور والإناث جميعاً، إلا أن يأتي دليل على استثناء النساء منه، فإن الله سبحانه قد خصَّ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، لأهميته البالغة، بالنص على أنه صِفَةٌ طَبِيعِيَّةٌ مِنْ صِفَاتِ كُلِّ مَنْ

المؤمنين والمؤمنات، توكيداً لاشتراك
الجنسَيْن في القيام بهذا الواجب الذي
تتجلى فيه ولاية كلٍّ من المؤمنين
والمؤمنات للآخر، فقال عزّ من قائل:
﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءُ
بعض: يأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر..﴾ [التوبة: 71].

وقد ذكرنا أن الخلفاء الراشدين
المهديّين، بما فهموه من كتاب ربّهم عزّ
وجلّ، وسنة نبيّهم ﷺ، قد قاموا بإضفاء
الطابع المؤسّسي على الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر، فأنشأ أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب، الجهاز الرقابي الذي
صار يُعرف بنظام الحسبة؛ وعيّن على
رأسه سيدة فاضلة، كان عمر يقدّمها في
الرأي ويرعاها ويفضّلها [أسد الغابة
162/7 - 163 وطبقات ابن سعد: 196/8 والإصابة

[333/4]، وهي الشِّفَاءُ بنتُ عبد الله،
لثُشْرَفَ بنفسها - رضي الله عنها -
على سلوك الناس، وتحتاطُ لَاتِقَاءِ أيِّ نوع
من أنواع الفساد.

*

والمؤسف أن المسلمين في عصرنا
الحاضر، قد مَسَخُوا هذه الفريضةَ
العظيمةَ، فريضةَ الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر، وقزَّموها وشوَّهوها،
وقصَّروها على بعض شعائر الدين
ومظاهره، مع أنها في أصل الشرع تتدخلُ
في كل أمر يحقق مصالح الدين والدنيا.
ونحن في أمسِّ الحاجة إلى رؤيةٍ عصريةٍ
للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تزيد
بها صورة المجتمع الأخلاقي الصالح
الذي يدعو إليه الإسلام إشراقاً وبهاءً،

بالتوسُّع في مفهوم ما فيه مصلحة وما فيه
مفسدة.

مخالفة إشارة المرور في عصرنا هذا
تتدرج في المنكر، لأن النبي ﷺ يقول: «
على المرء المسلم السمع والطاعة في ما
أحبَّ وكرهه، إلا أن يؤمر بمعصية» [متفق
عليه عن ابن عمر]، وتنظيم المرور ليس
معصية، بل هو مصلحةٌ وخيرٌ و برٌّ،
فالالتزام بهذا التنظيم واجبٌ بنص
الحديث، ومخالفته منكر، ولَفَتْ نظر مَنْ
يخالفه أمرٌ بالمعروف ...

إلقاء ورقة على الطريق في غير المكان
المخصَّص لها: منكر، وتوجيه من يقترب
ذلك أمرٌ بالمعروف ... إفساد البيئة بأي
صورة من الصُّور: منكر، والنهي عن
إفسادها نهْيٌ عن المنكر، والأمرُ

بإصلاحها أمرٌ بالمعروف ... التدخين
الذي يعرّض صحة المدخن وصحة مَنْ
حوله إلى أخطر الأمراض: منكر، وإقناع
المدخنين بالإقلاع عنه نهْيٌ عن المنكر،
ونُصْحٌ غير المدخنين ولا سيّما اليافعين
والشباب والنساء بعدم الوقوع في براثن
التدخين: أمرٌ بالمعروف ... إرضاعُ
أطفالنا من الثدي: معروف، والتبشيرُ به
والدعوة إليه بين الأمهات: أمرٌ بالمعروف
... تطعيمُ أطفالنا لتحصينهم من
الأمراض المُعدية: معروف، لأنه يقيهم
غائلة أَوْخَم الأمراض، والدعوة إلى
تعميمه: أمرٌ بالمعروف ... وهي كما نرى
قائمة لا تنتهي من المعروفات والمنكرات،
وكُلُّها ذو شأن في ميزان الإسلام، ولذلك
قال النبي ﷺ: « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ

شيئاً، ولو أن تَلْقَى أخاك بوجه طليق «
[رواه مسلم عن أبي ذرّ].

وقد ذمَّ الله قوماً ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ
مَنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: 79]، وقال مُثْنِياً عَلَى
الذين يحاربون الفساد: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ
يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: 165].

وَضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلًا « الْقَائِمِ
فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ
اسْتَهْمُوا [أي: أَجَرُوا فُرْعَةً] عَلَى سَفِينَةٍ،
فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا،
وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ
مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ. فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا
فِي نَصِينَا حَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ
تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ
أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا »
[رواه البخاري عن النعمان بن بشير].

وأصلحوا ذات بينكم ..

أما الخصلة الثالثة من خصال الخير الرئيسية، وهي الإصلاح، فهي ضمانه التماسك الذي لا بُدَّ منه لتحقيق حديث النبي ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضُه بعضاً » وشبَّكَ ﷺ بين أصابعه [متفق عليه عن أبي موسى]. والتماسك هو ما يطلق عليه في المصطلح الإسلامي: ذات البين. قال القرطبي في تفسيره: « ذات البين أي الحال التي يقع بها الاجتماع » وقد أمرنا الله عزَّ وجلَّ بها في القرآن فقال: ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ [الأنفال: 1]. وقال النبي ﷺ: « ألا أنبئكم بدرجة أفضل من الصلاة والصيام والصدقة؟ » قالوا بلى! قال: «إصلاح ذات البين» ثم قال: « وفساد ذات البين هي

الحالقة .. لا أقول تحلق الشعر، ولكن
 تحلق الدين ! » [رواه البخاري في « الأدب المفرد
 » عن أبي الدرداء]. وفي حديث [رواه عبد بن
 حميد والبزار والطبراني عن ابن عمرو بإسناد
 حسن]: « أفضل الصدقة: إصلاح ذات البين
 ». وفي حديث آخر [أخرجه البخاري في «
 التاريخ » عن أبي هريرة بإسناد حسن]: « ما عمل
 ابنُ آدم شيئاً أفضل من الصلاة، وصلاح
 ذات البين، وخُلُق حسن ».

وبالحق نزل!

أما ثاني المثل العليا التي تتَوَاضع عليها
 الناس فهو الحق. والحق في نظر
 الإسلام: ما ينفع الناس. فإن الله عزّ
 وجلّ قال لنا في سورة الرعد [17]:
 ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ: فَأَمَّا
 الزَّبَدُ [مِثَالُ الْبَاطِلِ] فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا

ما ينفع الناس [خِنايَةً عن الحق] فيمكث في الأرض. فجعل سبحانه ما ينفع الناس في دُنْيَاهُمْ وأَخْرَاهُمْ، هو الحقّ الذي أرسل به رسوله وقال عنه: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ [النساء: 170]، وقال عنه: ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ [البقرة: 119]، وقال عنه: ﴿ذلك بأن الله نَزَّلَ الكتابَ بالحق﴾ [البقرة: 176]، وقال عنه: ﴿نَزَّلَ عليك الكتابَ بالحق﴾ [آل عمران: 3]، وقال عنه: ﴿أنزلنا إليك الكتابَ بالحق﴾ [النساء: 105]، المائدة: 48، الزمر: 2]، بل قال عنه في مقام التوكيد: ﴿وبالحق أنزلناه، وبالحق نَزَّلَ﴾ [الإسراء: 105]. والباء في قوله: ﴿بالحق﴾ تعني أن الكتاب قد نزل مصحوباً بالحق كما في قوله تعالى: ﴿فلما قضى موسى الأجل

وسار بأهله ﴿ [القصص: 29] أي: سار مصحوباً بأهله.

أما الباطل من الأعمال، فكلُّ ما ليس فيه منفعة. ومجرّد كَوْن الفعل باطلاً إنّما يقتضي عدم منفعته، ولا يقتضي تحريمه، إلا أن يتضمّن مفسدة [ابن تيمية: ((الاستقامة]).

ومن أجل ذلك قال العالم العامل المجاهدُ القدُّ عزُّ الدين ابنُ عبد السلام في كتابه النفيس ((قواعد الأحكام في مصالح الأنام)): ((الشَّرْعُ موضوعٌ لجَلْبِ مصالح العباد ودرءِ مفسدهم ..)) ثم وضَّح ذلك بقوله: ((والشرعية كلّها مصالح: إما تدرأ مفسد أو تجلب مصالح. فإذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، فتأمّل وصيّته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثُّك عليه،

أو شراً يَزْجُرُكَ عنه، أو جمعاً بين الحثِّ والزَّجر. وقد أَبَانَ في كتابه ما في بعض الأحكام من المفسد حثّاً على اجتناب المفسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثّاً على إتيان المصالح».

والحديث في ذلك يحتاج إلى بحث مستقل.

الله جميل

وأما ثالثُ المثل العليا فهو الجمال أو قُلْ: الحُسْنُ أو الإحسان، وهو الغاية العُظمى في مكارم الأخلاق، وتعريفه كما ورد في الحديث المشهور: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [متفق عليه عن عمر].

لَمَسَّةُ الْحُسْنِ أَوْ الْجَمَالِ هَذِهِ الَّتِي
تَنْطَوِي فِيهَا تَنْطَوِي عَلَى الْجَوْدَةِ وَالْإِتْقَانِ،
وَالْمُسْتَمَدَّةُ مِنْ جَمَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: « إِنْ
اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ » [رواه مسلم عن ابن
مسعود] يَنْبَغِي أَنْ نَلْمَسَهَا فِي كُلِّ عَمَلٍ يَقُومُ
بِهِ الْمُسْلِمُ، وَلَا سِيَّما حَيْثُ تَضْطَرُّبُ
الْأَنْفُسُ، وَتَتَفَلَّتُ الضَّوَابِطُ وَيَسْتَبْدُ الْهَوَى،
وَتَنْتَزَّاحُ دَوَافِعُ السَّوِّ عَلَى تَصَرُّفَاتِ
الْمَرْءِ.. وَاقْرَأْ إِنْ شِئْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَتَأَمَّلْ
كَيْفَ يَرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَحَلَّى كُلَّ
أَفْعَالِ الْمُسْلِمِ بِالْحُسْنِ وَالْجَمَالِ:

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5]؛

﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]؛

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:

49]؛

بل: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:
10]؛

﴿وقولوا للناس حسناً﴾ [البقرة: 83]؛

﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾
[المؤمنون: 96]؛

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]؛

﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل:
125]؛

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي
أحسن﴾ [العنكبوت: 46]؛

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي
أحسن﴾ [الإسراء: 53]؛

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾
[العنكبوت: 8]؛

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]؛

﴿وَإِذَا حُيِّثُمُ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ
مِنْهَا﴾ [النساء: 86]؛

﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:
178]؛

﴿وَالْأَمْرُ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾
[الأعراف: 144]؛

﴿فَبَشِّرِ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17-18]؛
﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا
حَسَنًا﴾ [الشورى: 23]؛

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:
90]؛

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 115].

أَحِبُّوا مَا أَحَبَّ اللَّهُ !

والنبي ﷺ حين يقول في حديثه: "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ"، يلفت أنظارنا في الوقت نفسه إلى رُكن ركين من أركان البنيان الأخلاقي للمسلم. واستمع إن شئت إلى هذا الحديث الجميل من أحاديث رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا مَا أَحَبَّ اللَّهُ ! أَحِبُّوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ ! وَلَا تَمَلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ، وَلَا تَقْسُ عَنْهُ قُلُوبَكُمْ !» [رواه ابن إسحاق بإسناد صحيح].

أَحِبُّوا مَا أَحَبَّ اللَّهُ ! إن هذه العبارة وحدها، ترسم للمسلم طريق البحث عن مكارم الأخلاق التي بُعث النبي ﷺ

ليَتَمِّمَهَا. وَاقْرَأْ إِنْ شِئْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿إِنْ
 اللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 193]، ﴿يَحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42]، ﴿يَحِبُّ
 الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146]، ﴿يَحِبُّ
 الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 31]، ﴿يَحِبُّ التَّوَّابِينَ
 وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، ﴿يَحِبُّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، ﴿يَحِبُّ الَّذِينَ
 يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَان
 مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4]...

وَاقْرَأْ فِي مَقَابِلِ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿وَاللَّهُ
 لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ﴾، ﴿لَا يَحِبُّ الْمَفْسِدِينَ﴾
 [البقرة: 205]، ﴿لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:
 190]، ﴿لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:
 57]، ﴿لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141]،
 ﴿لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58]، ﴿لَا يَحِبُّ
 الْمُسْتَكَبِرِينَ﴾ [النحل: 23]، ﴿لَا يَحِبُّ
 الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32]، ﴿لَا يَحِبُّ مَنْ

كان مختالاً فخوراً ﴿النساء: 31﴾، ﴿لا يحب كلَّ كفَّارٍ أثيم﴾ [البقرة: 276]، ﴿لا يحب من كان خَوَّاناً أثيماً﴾ [النساء: 107]، ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ [النساء: 148].

هذه الآيات وأمثالها كثير، ترسم لك الدستور الأخلاقي على أساس ما يحبُّ الله وما لا يحب، فتجعلك دائماً على ذُكر من الله، وتردُّك من فورك إلى سُرَّادق محبَّته إذا ابتعدت عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 200].

*

6 العلم

أرأيتَ لو كنتَ واحداً من أهل مكة يوم
أنزل القرآن، تُشاطرُ أهل هذه البلدة
أسمارَهم وأساطيرَهم وتقاليدهم، وأموالاً
اقتَرَفوها، وتجارةً يخشون كسادها،
ومساكنَ يرضونها، وثاراتٍ يثأرون لها،
وماثرَ يستمسكون بها، ورحلةَ الشتاء
والصيف،... ثم سمعتَ منادياً ينادي
للإيمان، فلا يتحدث عن شيء من ذلك
كله، ولا عن معاشك ولا عن أعرافك ولا
عن عبادتك ولا عن شعائرك.. وإنما يقول
لك في أوجز خطاب وأعجبه: ﴿اقرأ﴾ !

أفما كان يفجؤك هذا النداء ويستبدُّ بك
العجب؟

«اقرأ»! وأنت من أمة أمية لا تكتب ولا
تحسب؟

«اقرأ»... ثم يرتفع بك كَلَمْح بالبصر
من حضيض هذه الأرض التي أخذت
إليها، إلى سِدْرَةِ المنتهى: ﴿اقرأ باسم ربك
الذي خَلَق﴾ [العلق: 1].. هكذا.. لا ينبئك أن
لك رباً خالقاً، وإنما يخاطبك بما هو أمرٌ
مفروغ منه منذ زمن بعيد، يوم ﴿أخذ ربك
من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم
على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى،
شهدنا!﴾ [الأعراف: 172].

ولك أن تتوقع بعد ذلك أن تتحدث
العبرة التالية لهذه المقدمة الرائعة، عن
صلتك بربك الذي خَلَق، وعن كيفية تَبَتُّلِكَ
إليه وعبادتك إياه.. ولكن القرآن العَجَب

يفجؤك مرة أخرى بأن يقرع سمعك بحقيقة من حقائق علم الجنين: ﴿خَلَقَ الإنسان من عَلَقٍ﴾.. تهيئةً لنفسك وإعداداً لعقلك أن تعرف ماهية العلم، الذي يتحدث القرآن بعد قليل عن أنه العلم الذي علّمه إِيَّاكَ ﴿رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

ثم تعود بك الآيات إلى لحظة الخلق الأولى، وهي لحظةٌ مركوزةٌ في فطرتك منحوتةٌ في ذاكرة خلاياك.. لحظةٌ علّم الله آدم الأسماء كلها.. فتذكّرْك – إن كان الشيطان قد أنساك – أن الله هو الذي ﴿عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم﴾.

ثم تجولُ بك الآيات في مجالات شتى، فتذكرُ لك حقيقةً من حقائق علم النفس: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾.. ثم

تَلْفُتُكَ إِلَى أَنْ رُجِعَاكَ وَمَعَاذَكَ إِلَى رَبِّكَ
الَّذِي بَدَأَ خَلْقَكَ مِنْ عَلَقٍ..

وهكذا في نَسَقٍ عجيبٍ يربط الدنيا
بِالْآخِرَةِ، وَيُمَارِجُ بَيْنَ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْإِنْفَسِ
وَالْآفَاقِ، وَبَيْنَ آيَاتِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى،
تَتَوَاصَلُ آيَاتُ السُّورَةِ إِلَى نَهَايَتِهَا فِي
نَبْضَاتٍ مَرْسُومَةٍ، كُلُّ نَبْضَةٍ مِنْهَا تَهْزُ
وَتَرَأَى مِنْ أَوْتَارِ نَفْسِكَ الَّتِي جُبِلَتْ عَلَى
عِمَارَةِ الدُّنْيَا وَعِمَارَةِ الْآخِرَةِ، وَاسْتَعَدَّتْ
بِفَطْرَتِهَا لِلتَّبَحُّرِ فِي كُلِّ مَا عَلَّمَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ
مِنْ عُلُومِ الدُّنْيَا وَعُلُومِ الْآخِرَةِ.. وَ «كُلُّ
مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

وَلَا غَرَابَةَ فِي أَنْ يَتَّصَلَ الْقُرْآنُ بِالْعُلُومِ
جَمِيعاً، فَمَا الْعُلُومُ إِلَّا نَتَاجُ تَطَلُّبِ الْإِنْسَانِيَةِ

أسرارَ الفطرة. والقرآن ما هو إلا كتاب
الله فاطر الفطرة، بل الدين هو الفطرة
نفسها، كما جاء في تلك الآية العجيبة
التي لا ينقضي العجب من رَوْعَتها في
سورة الروم [30]:

﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي
فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا؛ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ! ذَلِكَ
الدِّينَ الْقَيِّمُ.. وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾.

فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ – كما يقول الأستاذ الجليل
محمد أحمد الغمراوي رحمه الله وأحسن إليه –
الآيَةُ الْكَرِيمَةُ لَا تَجْعَلُ الْإِسْلَامَ فَقْطَ دِينِ
الْفِطْرَةِ، وَلَكِنْ نَفْسَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ
النَّاسَ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَوْجَزُ تَعْبِيرٍ وَأَوْكَدُهُ
وَأَشْمَلُهُ، بِتَمَامِ انْطِبَاقِ الْإِسْلَامِ عَلَى سُنَنِ
اللَّهِ الَّتِي خَلَقَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانَ، سِوَاءَ تَعَلَّقَتْ

بالبدن أو النفس، وبالعقل أو القلب، في الفرد والأسرة والطائفة، أو في القبائل والأمم والشعوب [«الإسلام في عصر العلم» للدكتور الغمراوي: ص 22].

وثبات تلك السنن في الإنسان وغيره، واطِّرادها واتِّساقها في ما بينها ومع السنن الأخرى الجارية في الكون، دلّ عليه أبلغ دلالة قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30]، وهي عبارة أكّدت المعاني السابقة المستفادة من الكلمات قبلها، فزادت معنى الفطرة وضوحاً إذ فسّرتها بالخلق، وأضافت الخلق إلى الله سبحانه، فوكّدت كلّ معاني التشريف والتمام والكمال المنطوية في إضافة الفطرة إلى الله قبل قليل. وهذا التعميم في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ دالٌّ على اتِّساق الإسلام

وفطرة الإنسان مع الفطرة العامة في الكون، فما خَلَقَ الله إنما خَلَقَه على سُنَنٍ كاملة لا تبدلَ لها ولا تحويل: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر: 43]. والعلمُ الحديث يقوم وجوده على هذا القانون الإلهي، قانون ﴿لا تبدل لخلق الله﴾، إذ العلمُ وطريقته النظرية والعملية والتجريبية، متوقفة على اتِّساق الفطرة واتِّصاف سُنَنِها بالاطراد والثبات.

بل تعالَ نقرأ الآيات التي سبقت هذه الآية في سورة الروم: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ – وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ – وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ. يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.. وكذلك تُخْرِجُونَ!

• ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ: أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ!﴾

• ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ: أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ!﴾

• ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَسْنَتَكُمْ وَالْوَانَكُم؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ!﴾

• ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ: مَنَامُكُمْ - بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ!﴾

• ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ: يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ!﴾

• ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ: أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ
وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ
الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرَجُونَ﴾ [الروم: 17-
25].

تسْعُ آيَاتٍ كُلُّهَا كُونِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِظَوَاهِرِ
طَبِيعِيَّةٍ، لَا يَدْرُسُهَا وَلَا يَبْحِثُهَا وَيَكْشِفُ
عَنْ أَسْرَارِهَا إِلَّا الْعِلْمُ التَّجْرِبِيُّ الْحَدِيثُ..
جَمَعَ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِيهَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ،
وَمَزَجَهُمَا لِلْمُفَكِّرِينَ مَزْجاً يُدْهَشُ وَيُبْهَرُ،
وَصَارَ بِهِ الْعِلْمُ فِي الْإِسْلَامِ جُزْءاً لَا يَتَجَزَّأُ
مِنَ الدِّينِ، مِيزَةً لِلْإِسْلَامِ وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِ
الْأَدْيَانِ!

وإن شئتُ توكيداً لذلك لا مزيدَ له، فأعِدْ
قراءة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَسْنَتِكُمْ
وَأَلْوَانِكُمْ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾

لتعلم أن المراد بالعالمين هنا ليسوا العلماء
بالمعنى العام، ولكن العلماء الدارسين
للسماوات والأرض وأسرار خلقها،
ولأجناس الناس والشعوب وأسرار
اختلافهم.. وهؤلاء هم العلماء بالمعنى
العلمي الحديث.

*

نعود إلى أولئك نفر من قريش الذين
استمعوا إلى رسول الله ﷺ يخاطبهم بذلك
الخطاب العجيب: ﴿اقْرَأْ﴾.. كيف كان
ردُّهم على تلك السورة التي تجمع علمَ
الجنين إلى علم النفس، وتذكّر بالرَّبِّ الذي
خلق، والذي علّم، والذي إليه المرجع
والمآب، وتحتُّ على السجود الذي يحقّق
غاية الاقتراب؟..

كان ردُّهم: « أشهد أن لا إله إلا الله،
وأشهد أن محمداً رسول الله »! هكذا، بكل
بساطة أيقنوا أن هذا الكلام الذي لم يعهدوه
ولم يسمعوا بمثله، وهم كانوا سادة الكلام
وأبلغ البلغاء، لا يمكن أن يكون من عند
غير الله.. ﴿ولو كان من عند غير الله
لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82]..
وهم إنما وجدوه متسقاً كلَّ الانساق،
منسجماً كلَّ الانسجام، تتساق في آيات
الله في الأنفس مع آيات الله في التقوى..
ولم يفرِّقوا في ما علَّمه الله بالقلم بين علم
شرعي وعلم كوني.. بل لعلَّ مما جعلهم
يُلبَّون داعي الله من فورهم، هذا التمازجُ
والتصافُرُ بين كلمات الله المحدودة في
كتاب الله، وبين كلمات الله التي لا حدودَ
لها في الأنفس والآفاق: ﴿ولو أن ما في
الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمده من

بعده سبعة أبْحُر ما نَفَدَتْ كلمات الله ﴿
[لقمان: 27].

فانظروا: كيف؟

ثم تَوَاصَلت أي القرآن تتَرى على
مدى ثلاثة وعشرين عاماً، يُطالع الناس
فيها دائماً ما طالعهم في الآيات الأول، من
توكيد لَدُنِّي على هذا التناغم بين العلم
والإيمان، وتلفت أنظارهم إلى هذا الكون
بأفسح آفاقه وبأدق تفاصيله على حدِّ سواء
وتدعوهم إلى النظر العلمي الدقيق، إذ العلمُ
يهمه دائماً أن يجيب عن سؤالنا: «كيف؟» أو «
كم؟» أو «ما؟» أو «ماذا؟» وليس من شأن
العلم ولا ميدانه أن يجيب عن سؤالنا: «
لماذا؟»:

﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات
والأرض؟﴾ [الأعراف: 185].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ؟: كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا؟﴾ [ق: 6].

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ: كَيْفَ خُلِقَتْ؟

وَالِى السَّمَاءِ: كَيْفَ رُفِعَتْ؟

وَالِى الْجِبَالِ: كَيْفَ نُصِبَتْ؟

وَالِى الْأَرْضِ: كَيْفَ سُطِحَتْ؟﴾
[الغاشية: 17-20].

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ: كَيْفَ يَحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: 50].

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾
[الأنعام: 99].

﴿انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
[يونس: 101].

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا: كَيْفَ بَدَأَ
الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: 20].

﴿... أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ؟﴾

﴿... أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ؟﴾

﴿... أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ؟﴾ [الواقعة:
63، 68، 71].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً؟﴾ [الحج: 63].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ؟﴾ [الحج: 43].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي [أَي يَسُوق] سَحَاباً
ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ؟﴾ [النور: 63].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ؟﴾ [لقمان: 29].

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ؟﴾
[فاطر: 27].

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فسلّكه ينابيع في الأرض ؟﴾ [الزمر: 21].

﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في
السموات وما في الأرض ؟﴾ [لقمان: 20].

﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء ؟﴾
[النحل: 48].

﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها
من كل زوج كريم ؟﴾ [الشعراء: 7].

﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى
الأرض الجُرْز ؟﴾ [السجدة: 27].

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟﴾ [سبأ: 9].
﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ: هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟﴾
[الملك: 3].

*

سُبُّعُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ!

ما ينفعُ النَّاسَ ..

ولم يكن صحابةُ رسول الله ﷺ ولا
تابعوهم ولا مَنْ تبعهم بإحسان، يصنّفون
العلوم إلى علوم شرعية وعلوم كونية،
وإنما كانوا يقتدون بهدْيِ النبي ﷺ في
تقسيم العلم إلى علمٍ نافعٍ وعلمٍ لا ينفع. وقد
صحَّ عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه
كان يسأل الله علماً نافعاً، وأنه كان
يستعيز بالله من علمٍ لا ينفع. وقد

ضرب القرآن الكريم مثلاً للعلم الذي لا
ينفع، في قصة هاروت وماروت:
﴿ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم، ولقد
علموا لَمَنْ اشتراه ما لَهُ في الآخرة من
خلاق؛ ولَبِئْسَ ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا
يعلمون﴾ [البقرة: 102].

فكلُّ علم ينفع الناس هو علمٌ إسلامي،
وهو علمٌ مشروع، وهو علمٌ حق. فالحقُّ
غايةُ العلم.. والله قد أنزل الكتاب بالحق
كما خلق السماوات والأرض بالحق.
والحقُّ - كما ذكرنا -: ما ينفع الناس، فقد
قال ربُّنا عزَّ وجلَّ في سورة الرعد [17]:
﴿كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل: فأما
الزَّبدُ [كنايةٌ عن الباطل] فيذهب جُفَاءً، وأما
ما ينفع الناس [كنايةٌ عن الحق] فيمكث في
الأرض﴾.

وقد جعل النبي ﷺ طَلَبَ هذا العلم النافع
فريضةً على كلِّ مسلم [رواه ابن ماجه عن
أنس]، ذكراً كان أم أنثى، ولو أن منه ما
هو فرضٌ عين ومنه ما هو فرضٌ كفاية.
وانظر إلى قوله صلوات الله عليه »
طلب العلم«، لتعرف لماذا أجهد المسلمون
أنفسهم في تَطَلُّبه، ولماذا بحثوا عنه في
كل مكان ولم يجدوا حَرَجاً في أخذه من
أيِّ وعاء حَرَج، ولماذا اتَّجهت أمة
الإسلام بعد عصر الراشدين، الذي فَتَحَ
على الإسلام قلوبَ الناس، تنفتح على
العالم من حولها تتلمَّس كلَّ علم ينفع
الناس.

ولكن الذي يلفت النظر ويثير الدهشة،
أن هذه الأمة بعد أن قضت فترة الحضانة
العلمية في أيام الراشدين إن صح التعبير،

قد انفتحت على العالم وهي في مرحلة
نُضجٍ ثقافيٍّ وعلميٍّ ظاهرين. وعن قصدٍ
ما أقولُ «ثقافيٍّ» و«علميٍّ» مميّزاً – كما
ينبغي أن يكون – بين الثقافة وبين العلم،
إذ الثقافة مقصورةٌ على أمة بعينها، والعلم
مُشاعٌ بين خلق الله جميعاً، يشتركون فيه
مهما اختلفت المِللُ والعقائد.

والثقافة بالنسبة إلى الفرد تعني أصولاً
ثابتة، تنغرس في نفس الإنسان منذ مولده
ونشأته الأولى، حتى يُشارف حدَّ الإدراك
البين، جماعُها كلُّ ما يتلقَّاه عن أبويه
وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه، حتى
يصبح قادراً على أن يستقلَّ بنفسه. فإذا
استقلَّ، استبدَّ عقله بتقليب النظر، وإعمال
الفكر، وممارسة التنقيب والبحث،
ومعالجة التعبير عن الرأي. وللُّغة دورها

الأكبر في ترسيخ الأصول التي تنغرس،
وإيصال المعارف الأولى التي تُعين على
التواصل.

هذا ما كان من أمر ثقافة الفرد. أما
ثقافة الأمة فهي حصيلة ثقافات أبنائها،
المتقنين بقدر مشترك، وهي مرآة جامعة
- في حيّزها المحدود - كلّ ما تشعّت
وتشتّت وتباعد من ثقافة كلّ فرد من
أبنائها، على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم
ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم في الحياة.
وجوهر هذه المرآة هو اللغة. وللدين في
ثقافة الفرد وثقافة الأمة شأن كبير ودور
رئيسي، كتابياً كان الدين أم وثنياً أم غير
ذلك. حتى لقد قال « إليوت T.S. Eliot »
بحقّ: « إن ثقافة الشعب ودين الشعب
مظهران مختلفان لشيء واحد، لأن الثقافة
في جوهرها تجسيدٌ لدين الشعب ».

والثقافاتُ المتباينة تتحاورُ وتتناظرُ
وتتناقش، ولكنها لا تتداخل تداخلاً يُفضي
إلى الامتزاج البتّة، ولا يأخذ بعضها عن
بعض شيئاً إلا بعد عرضه على أسلوبها
في التفكير والنظر والاستدلال، فإن
استجابَ لأسلوبها قَبَسَتْهُ وَعَدَّلَتْهُ وَخَلَّصَتْهُ
من الشوائب، وإن استعصى نَبَذَتْهُ
وَاطَّرَحَتْهُ اطِّراحاً.

والناظرُ في ثقافة أمة أخرى غير أمته،
إنما ينظر فيها لأحد أمرين: إمّا ليكسبَ
منها شيئاً لأُمته وثقافته، وإما ليُناظرَ
ويُناقش. وهو في كلا الأمرين واقعٌ في
مَازِقٍ ضَيِّقٍ: مَازِقِ اللغة ومَازِقِ الثقافة.
لا يستطيعُ أن يأخذ إلا بمقدار ما فهم من
لغة غريبة أصلاً عن لغته، ولا يستطيع
أن يناقش إلا على قدر ما يتصوّر أنه

اسْتَبَّانَهُ وَأَدْرَكَهُ مِنْ ثَقَافَةٍ غَرِيبَةٍ عَنْ ثَقَافَتِهِ
[عن «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» للأستاذ محمود
محمد شاكر رحمه الله، بتصرّف].

وَأَعُودُ إِلَى أَمْتِنَا الَّتِي ذَكَرْتُ أَنَّهَا
انْفَتَحَتْ عَلَى الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِهَا، وَهِيَ فِي
مَرَحَلَةٍ نَضَجَ «ثَقَافِي» وَ«عِلْمِي»
ظَاهِرِينَ.

أَمَّا الثَّقَافَةُ فَقَدْ أَنْضَجَهَا الْإِسْلَامُ، بَعْدَ أَنْ
قَطَعَ كُلَّ صِلَةٍ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِمَعَامَلَاتِ
الْجَاهِلِيَّةِ وَثَارَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَآثِرِ الْجَاهِلِيَّةِ،
وَأَحَلَّ مَحَلَّ ذَلِكَ ثَقَافَةً: قَوَائِمُهَا كِتَابٌ، يَأْمُرُ
أَوَّلَ مَا يَأْمُرُ بِالْقِرَاءَةِ، وَيُقَسِّمُ أَوَّلَ مَا يُقَسِّمُ
بِالْقَلَمِ وَالْكِتَابَةِ، وَيَدْعُو فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ
إِلَى التَّفَكُّيرِ وَالتَّنْقِيبِ وَالبَحْثِ فِي الْكُونِ
وَالْكَائِنَاتِ، وَيُفَاضِلُ بَيْنَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، وَبَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

والذين لم يُؤْتَوْه.. ومُؤَدِّي هذا الكتاب
رسولٌ يفضِّل مجلس العلم على مجلس
الذكر، ويقسِّم الناس إلى عالم ومتعلِّم
وهَمَج لا خير فيه، ويوازن بين مدادِ
العلماء ودماء الشهداء، ويجعلُ الحكمةَ
ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أولى بها.

وأما العلم فقد كان منه بادئ ذي بدءٍ
علومٌ مبتكرةٌ تُنظِّم ضوابط اللغة التي هي
قوام الثقافة.. وتلك علوم اللغة والنحو
والعروض؛ وكان منه علومٌ تحدِّد التعامل
على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع..
وذلك علمُ الفقه؛ وكان منه علومٌ تضبط
فهم مصادر الفكر والتشريع والسلوك،
وتكفل سلامة النصوص النازمة لجميع
شؤون الحياة.. وتلك علوم التفسير
والحديث.. وكلُّ أولئك علومٌ عربيةٌ

إسلاميةً بحثة، أبدعتها عقولُ أبناء هذه
الأمة على غير مثال سبق.

وهذا هو النضج العلمي والثقافي الذي
نتحدث عنه. فهذه العلوم الخاصة التي
ابتكرتها هذه الأمة، وابتدعت أصولها
ومناهجها، وأرست لها أركان النهج
الفكري المستقيم، ونواظم أعمال العقل
إعمالاً ليس له حدود.. أقول: هذه العلوم
الخاصة الأصلية أعدت هذه الأمة
لاستقبال العلوم التي لم يكن لها بها عهد.
وتلك الثقافة التي كانت تُهيمُن على
الضمائر والمواقف، جعلت الأمة تتفتح
على الثقافات الأخرى بلا حرج ولا عُد،
ولكنها جعلتها كذلك تقف منها موقف
العالم المتبصر، وموقف الناقد المستنير.
فلم تأخذ من الحضارة اليونانية مثلاً

شيئاً من أدب اليونان ولا شعرهم ولا
فَنِّهم ولا دراماهم ولا ميثولوجيَّتهم، ولكنها
اغترَفَتْ من هذه الحضارة ما استطاعت
من علوم الطب والطبيعة، وتخيَّرت
وانتقت ما شاءت من الحكمة والفلسفة.

*

وقد كان عجباً من العجب، لم يَشْهَدْهُ
التاريخ من قبل أو بعد، أنَّ أمةً فاتحةً،
تُملي شروط الصلح على المغلوبين،
فتطلبُ إليهم أن يُقدِّموا لها كتب العلم
والفلسفة غرامةً حربيَّةً.. هذا ما فعله
العرب في صلحهم مع الروم، وهذا وحده
دليلٌ قاطعٌ، على أنهم كانوا على استعداد
لقبول هذه العلوم، وأنهم كانوا على قدرٍ
من التقدُّم الفكريِّ يسمحُ لهم باستيعاب هذه
العلوم، بلْ غرَبَلَتْها وانتخالها، بلْ تثوير

أعماقها والخروج منها بمبتكرات لم
تخطر على البال.

وَلَكَّ أَنْ تُلَاحِظَ أَنَّ الْحَرَكَةَ الْعِلْمِيَّةَ فِي
الْإِسْلَامِ سَبَقَتْ الدِّرَاسَاتِ الْفَلَسْفِيَّةَ. وَيَوْمَ أَنْ
اسْتَقَرَّ الْعَرَبُ فِي بِلَادِ فَارَسَ وَمِصْرَ،
لَفَتَتْ أَنْظَارَهُمْ حَرَكَاتٌ عِلْمِيَّةٌ فِي
جُنْدَيْسَابُورَ وَحَرَّانَ وَالْإِسْكَندَرِيَّةَ. فَحَاولُوا
أَنْ يُفِيدُوا مِنْهَا، وَشَغَلُوا أَوَّلًا بِمَا تَقْتَضِيهِ
ظُرُوفُ الْحَيَاةِ. وَإِنَّكَ لَتَرَى خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ
الْأُمَوِيَّ يُعْنَى فِي عَهْدِ مُبَكَّرٍ بِالْكَيمِيَاءِ
وَالطَّبِّ وَالْفَلَكَ، وَيَأْمُرُ بَعْضَ
الْمُتَخَصِّصِينَ بِمِصْرَ بِتَرْجُمَةِ رِسَائِلِ فِيهَا
عَنِ الْيُونَانِيَّةِ أَوْ الْقِبْطِيَّةِ. ثُمَّ تَرَى أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَأْمُرُ «
ابْنَ مَاسْرُجُويَه» بِتَرْجُمَةِ كِتَابِ «أَهْرُنَ
الْقَسِّ» فِي الطَّبِّ. وَيَوْمَ أَنْ اتَّجَهَ الْمَنْصُورُ
نَحْوَ مَدْرَسَةِ جُنْدَيْسَابُورَ الَّتِي أَسَّسَهَا

كسرى أنوشِروان، إنما كان يبحث عن أطباء لا عن فلاسفة، وقد اهتدى إلى بني بَخْتِيشُوع الذين كان لهم شأنٌ في نشأة الدراسات الطبية العربية، وإسهامٌ في حركة الترجمة الكبرى. كما قام في أيامه عبدُ الله ابنُ المقفَّع، بنقل كتبٍ في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها من اليونانية، كما نقل يحيى ابنُ البَطْرِيقِ كتباً كثيرة لبُقراط وجالِينوس، أمره المنصور بنقلها.

المنهجُ العلمي

وللمرء أن يتساءل: لماذا وصل المسلمون إلى هذا النضج العلمي الباهر في مثل هذه الحقبة الوجيهة؟ والجوابُ في القرآن المجيد نفسه، الذي علَّم الناس أصولَ المنهج العلمي تعليماً.. لم يَضَعُها في فصل مستقل عنوانه «المنهج العلمي»،

وإنما بثَّها في تضاعيف آي القرآن الحكيم
وثناياها، بحيث تَشْرَبُها الذين يتلونه حقَّ
تلاوته، وهَيِّمَنْتُ على تفكيرهم من حيث
لا يشعرون.

• فالعلمُ لا يقولُ عن شيء إنه حق، إلا
إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع. وقد
أخذ المسلمون هذا المبدأ من مثل قوله
تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان
هوداً أو نصارى - تلك أمانيتهم! قل: هاتوا
برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: 111].
وقوله: ﴿سيقول الذين أشركوا: لو شاء
الله ما أشركنا ولا آبائنا، ولا حرّمنا من
شيء! كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى
ذاقوا بأسنا. قل: هل عندكم من علم
فَتُخْرِجُوهُ لنا؟ إن تتَّبِعُونَ إلا الظن وإن
أنتم إلا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148].

• والعلمُ يُحاذرُ كلَّ المحاذرة أن يُنزلَ
الظن منزلة اليقين، أو أن يُنزلَ الخَرصَ
والتخمين منزلة الترجيح، وذلك مأخوذ
من مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ؛ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
الْأَنْفُسُ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾
[النجم: 23]. وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا
حَيَاتُنَا الدُّنْيَا: نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا
الدَّهْرُ! وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا
يُظَنُّونَ﴾ [الجاثية: 24]. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ
أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا؛ إِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنِي مِنَ
الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: 36].

• والعلمُ يمنع التقليد من غير وقوف
على الدليل واقتناع به، ولا يهمله أن يكون
فلان أو فلان من كبار العلماء قد قال به

إن لم يبرهن عليه. وهو مبدأ مأخوذ من
 مثل قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا
 مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
 آبَاءَنَا ! أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً
 وَلَا يَهْتَدُونَ ؟﴾ [البقرة: 170] وقوله:
 ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا
 يَهْتَدُونَ ؟﴾ [المائدة: 104] وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا
 أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ
 مُتَرَفِّفُوهَا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا
 عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ! قَالَ: أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ
 بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟﴾ [الزخرف:
 23-24].

• والعلمُ ينطلق في تطبيقه قوانينَ
 التفكير المنطقي من أصلين اثنين: أحدهما
 أنه لا تناقض مطلقاً بين الحقائق؛ والثاني:
 أصلُ اطراد الفطرة واستقلالها، فما ثبت
 أنه حق في وقتٍ ما سيكون دائماً حقاً، إذ

الحقُّ مستقلٌّ عن الزمان والمكان. وهذان الأصلان هما أصلان قرآنيان، تجد الأول في قوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ﴾ [الملك: 3]، وتجد الثاني في قوله سبحانه: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب: 63] وقوله: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر: 42] وقوله: ﴿لا تبدلَ لخلق الله﴾ [الروم: 30].

• والعلمُ يعتمد طريقَ المشاهدة الصحيحة سبيلاً للبحث عن الحقيقة. والقرآن الحكيم هو الذي يوجّه كثيراً إلى استعمال الحواس مع العقل، وقد تَلَوْنَا قبل قليل عديداً من الآيات التي تحت على النظر والبحث عن كيفية حصول ظواهر الطبيعة، ونستذكر إليها قوله سبحانه: ﴿والله أخرجكم من بطون

أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم
السمع والأبصار والأفئدة لعلمكم
تشكرون ﴿[النحل: 78] وقوله جلّ وعلا:
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ! إِنَّ السَّمْعَ
وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]. وفي هذه الآية
وحدها ثلاثة أصول، هي جماع أصول
النظر العلمي: أولها: أن لا يتبع الإنسان
إلا الحق المعلوم يقيناً، وثانيها: أن طريق
الوصول إلى الحق هو المشاهدة الصحيحة
والتفكير الصحيح، وثالثها: أن على
الإنسان أن يستمسك بما يصل إليه من
الحق عن طريق المشاهدة والتفكير، لأنه
عن ذلك مسؤول! [في سنن الله الكونية للدكتور
محمد أحمد الغمراوي: ص 5-10 بتصرف].

*

هكذا إذن، ومنذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول، بادرَ المسلمون إلى طلب العلم قياماً بالفريضة، ورجاءً بأن تضع الملائكة أجنتها لهم رضى بما يصنعون، وبذلك أخذ العلم في العالم كله ينطبع بطابع علماء الحضارة الإسلامية ويصطبغ بصبغتهم. وإذا كان جورج سارتون « G. Sarton » في كتابه المشهور « تاريخ العلم » يقسم العلم إلى عصور يمتد كل منها نصف قرن، ويسمي كل عصر منها باسم شخصية علمية فَرَضَتْ وجودها عليه، فإن حقبة القرون الثلاثة ونصف القرن التي تمتد من عام سبعمئة وخمسين إلى عام ألف ومئة للميلاد، تمثل حقبة لا تحمل أي اسم غير إسلامي، وهي على التوالي عصور جابر بن حيان، فالخوارزمي، فالرازي، فالمسعودي، فأبي

الوفا، فالبيروني، فعمر الخيام، وجميعهم من العرب والتُّرك والأفغان والفُرس المسلمين، ومنهم علماء الكيمياء والجبر والطب والجغرافية والرياضيات والطبيعيات والفلك وغيرها. ولم يظهر في كتاب سارتون أيُّ اسم غير إسلامي في مجال العلوم إلا بعد سَنَةِ ألف ومئة حيث ذكر أوَّل اسمين غربيَّين هما: جيرار ورودجر بيكون، ولكن ظلَّ انتسابُ العصور شركةً بين أسماء العلماء الغربيين والمسلمين على مدى قرنين ونصف من الزمان بعدئذ، حيث ظهرت أسماء ابن رشد، ونصير الدين الطوسي، وابن النِّفيس.

وليس من غرض هذا الفصل أن نتحدث عمَّا قدَّمه رُوَّاد العلم من علماء الحضارة الإسلامية للعالم، فالبحث في ذلك يتشعَّب

ويطول. فَمَنْ ذا الذي يستطيع أن ينكر أثر ابن سينا، وابن الهيثم، والخازن، وقطب الدين الشيرازي، وتلميذه كمال الدين في الفيزياء ؟ أو فضلَ محمد بن موسى الخوارزمي، وأبي كامل، وقسطا بن لوقا، وسان بن أبي الفتح والقلصادي، وبهاء الدين العاملي، وغياث الدين جمشيد الكاشي، وابن الهيثم، وثابت بن قرة، والقوهي والخيام، في الرياضيات؛ أو فضل ابن الهيثم، ونصير الدين الطوسي، والبیروني، وثابت بن قرة، وبني موسى، والبوزجاني، وابن يونس، في الهندسة؛ أو فضل البوزجاني، والطوسي، والبیروني، والخازن، وجابر بن الأفلح، والتبريزي، في علم المثلثات؛ أو فضل ثابت بن قرة، والبلخي، وحنين بن إسحاق، والبتّاني، وسهل ابن بشار،

وقسطا البعلبكي، والكندي، والبوزجاني،
وابن يونس، والصاغانى، والقوهى،
والبيرونى، والخازن، والطوسى، وجمشيد
الكاشى، والفرغانى، والفزارى،
والبطروجى، وابن رستم القوهى، فى علم
الفلك، أو فضل آل بختيشوع، ويوحنا بن
ماسويه، وحنين بن إسحاق، وثابت بن
قرّة، وابنه سنان بن ثابت، وعلي بن ربّ،
والقُمري، والرازى، وعلي بن العباس،
وابن سينا، وابن زهر، والزهرأوى، وابن
رشد، وابن النفيس، فى الطب؛ أو فضل
ابن البيطار، والدينورى، وداود
الأنطاكى، فى النبات والعقاقير؛ أو فضل
ابن ماجد، وابن خرداذبة، وابن رسته،
والمسعودى، والخوارزمى، والبلخى،
وبنى شاكِر، فى الجغرافيه؛ وغيرهم
كثير.

ما الذي جَرَى ؟

« ما الذي جرى لعلم المسلمين » ؟ أو

قل: What is wrong with Muslim Science ?

كما يقول فرانسيس غايلز Francis Ghiles

في مقاله القِيم الذي نشره في مجلة

Nature قبل أعوام... « ما الذي أُنْضَبَ

رَفَدَهُمُ الهائل للحضارة الإنسانية في ميدان

العلم، ولاسيما الطب والرياضيات... يومَ

كان حُكَّامهم في أَوْج حضارتهم في بغداد

والأندلس يحيطون أنفسهم بالعلماء

والأدباء... ويومَ وقَّروا جواً من الحرية

سَمَحَ للمسلمين والمسيحيّين واليهود أن

يعملوا جنباً إلى جنب في إغناء هذه

الحضارة؟.. لم يَبْقَ من ذلك كلّهُ اليوم إلا

ذكريات!..»

لَعَلَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَوْضِّحَ مَا حَصَلَ فِي
نَصَّيْنِ اثْنَيْنِ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا زَهَاءُ أَرْبَعَةِ
قُرُونٍ.

النص الأول لأبي بكر محمد بن
الحسن الكَرَجِي فِي كِتَابِهِ « إِنْبَاطُ الْمِيَاهِ
الْخَفِيَّةِ » وَهُوَ بِلِسَانِ عَصْرِنَا « اسْتِخْرَاجُ
الْمِيَاهِ الْجَوْفِيَّةِ » يَقُولُ فِيهِ:

« لَمَّا دَخَلْتُ الْعِرَاقَ، وَرَأَيْتُ أَهْلَهَا مِنْ
الصِّغَارِ وَالْكَبَارِ يَحِبُّونَ الْعِلْمَ وَيَعْظُمُونَ
قَدْرَهُ وَيَكْرِّمُونَ أَهْلَهُ، صَنَّفْتُ فِي كُلِّ مَدَّةٍ
تَصْنِيفًا فِي الْحِسَابِ وَالْهَنْدَسَةِ.. إلخ.. ».

وَالنَّصُّ الثَّانِي لِابْنِ خَلْدُونٍ فِي مُقَدِّمَتِهِ
يَقُولُ فِيهِ: « كَذَلِكَ بَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ هَذِهِ
الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّةَ لِبِلَادِ الْإِفْرَنْجَةِ وَسَوَاحِلِ
بَحْرِ الرُّومِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْعُدُوةِ الشَّمَالِيَّةِ

كانت نافقة الأسواق، وأن رسومها
متجددة، ومجالس تعليمها متكثّرة والله
أعلم بما هنالك.. بيد أن مسائل الطبيعيات
لم تكن موضع اهتمام لنا في شؤون ديننا،
ولذلك كان علينا أن نتركها جانباً».

ما إخالني بحاجة إلى تعليق !

جالوتُ الحضارة

هذه الأمة التي نحن منها، هي خلقٌ
جديد، بدأ يتولّد مع انهيار مُلك العباسيين
بالمشرق والموحّدين بالمغرب، وتلك
أواخرُ القرن السابع الهجري، الثالث عشر
الميلادي. ولقد واصل هذا الخلقُ تولّده،
بل قُلْ: امّساخُهُ، سبعة قرون عجافاً، حتى
بلغ طورَ الإنسان المسلم في مطالع القرن
العشرين.. وهو إنسانٌ قابِعٌ، قانعٌ بما

يتناثرُ عليه من فُتات الآخرين.. إنسانٌ لم يُهزَم أمام الآخرين بقدر ما هُزم أمام نفسه.. ولقد زاد من وقع هذه الهزيمة وساهم في ترسيخ عقابيلها، أنه حين أفاق من صدمتها بعد سُبات عميق، وَجَدَ نفسه في مواجهة حضارة جبارة، تتضاحم وتتعاظم بسرعةٍ لا يكاد يلحق بها الخيال، وظنَّ أنَّ لا طاقة له بهذا "الجالوت" وجنوده، ففزع من الغنيمة بالإياب، وأخلَدَ إلى الأرض، وأصبح قُصارى ما يطمحُ إليه أن يعيش طُفليلاً على هذا المخلوق الجبَّار الذي أصابه بالانبهار.

هكذا أصبح الإنسان المسلم في آخرَ قرونه الوسطى السبعة العجاف.. فقد زمام المبادرة.. أصبح فيروساً حضارياً ينخرُ

في جسم الحضارة ولا يستطيع أن ينهض
بنفسه.

أصبحت غاية أمله اليوم أن ينقل
التكنولوجيا.. أي أن ينقل ما ابتكره غيره،
أما أن يحوز العلم نفسه الذي أبدع هذه
التكنولوجيا، فهذا أمر لا يخطر له على
بال!

أصبح قُصارى منشوده أن يُجيد لغة
عِمالق الحضارة، حتى يستطيع أن ينقل
من فُتات هذه الحضارة أقصى ما تسمح به
طاقة الرَّمَام saprophyte، أما أن يجعل لغته
لغة حضارة، بحيث يُبدع كما أبدع
الآخرون، فهذا أبعد الأشياء عن منطق
نفسية المهزوم.

بل أصبحت أيّ خلية من خلاياه تحاول
أن تفعل شيئاً يوحى بإمكان أن يعيش
مستقلاً عن ثويّه الذي يتطلّع عليه، محطّ
استهجان واستنكار.. كيف تجرؤ على أن
تُخلّ بُرقاده الذي اطمأنّ به، أو أن تفسد
عليه لذة سُباته العميق !

وحتى لو أُتيح لهذه الخلايا صاحبة أن
تنجّو من استهجانه واستنكاره، فإن
العملاق الذي يعولها لا يلبث أن يبطش
بها بطشة تدعُ الحليم حيران.. حدثت هذه
الصحوات مراراً هنا وهناك في أثناء
حِقة الامساخ، ولكن "الجالوت"
الحضاري عاجلها بضربات قاسيات
قاضيات..

وقد كان من أبرز هذه الصّحّوات قبل
قرنين، تلك الصحوّة التي حمل لواءها

البغدادى صاحب « الخزانة »، والزبيدي صاحب « تاج العروس »، والجبرتي الكبير صاحب المخترعات الميكانيكية والصنائع الحضارية التي تعلمها منه طلاب الإفرنج، « وذهبوا إلى بلادهم - كما يقول الجبرتي الابن المؤرخ - ونشروا بها العلم من ذلك الوقت، وأخرجوه من القوة إلى الفعل، [أي حوّلوه من العلم إلى التكنولوجيا]، واستخرجوا به الصنائع البديعة».

هذه الصحوّة أحسنّ بها - يبدو - ذلك الطاغوت الماجن نابليون، فأجلبَ عليها بخيله ورَجَله، وغزاها بأساطيله وجحافلها، واستطاع أن يقضيَ عليها بكلّ شراسة. فكان يأمر عند مطلع كل شمس بقتل خمسة أو ستة من التلامذة النابهين لهؤلاء العلماء الأعلام، ثم طلب من خليفته الهالك

كليبير - في ما كتب إليه - أن يجمع
خمسئة أو ستمئة من المماليك أو العرب
[أي الأعراب] ومشايخ البلدان، ويسفّرهم إلى
فرنسا، ليُحجزوا فيها عاماً أو عامين،
يشاهدون فيهما عظمة الأمة الفرنسية
ويعتادون على لغتها وتقاليدها، فإذا عادوا
إلى مصر كان له منهم حزبٌ يضم إليهم
غيرهم. ولما غادر الفرنسيون مصر
صاغرين، حملوا معهم - كما يقول أمين
سامي باشا في « تقويم النيل » - « الأوراق
والكتب؛ ليس التي تخصهم فقط بل كل ما
يروونه نافعا!! ». ثم يقولون لنا: إن نابليون
هو الذي فتح أعين هذه الأمة على
حضارة الغرب، وهو الذي أدخل المطبعة
إلى بلادنا، مع أننا نجد اليوم بين أيدينا
كتاباً مما طبع في « محروسة حلب
المحمية »، من بلاد الشام، سنة ست

وسبعمئة وألف مسيحية، أي قبل أن يخلق
نابليون هذا بثلاث وستين سنة!

هكذا فرَّغ هؤلاء أمتنا الممسَّخة من
مجدِّديها الحقيقيين، وجردوها من الأوراق
والكتب وكل ما يروونه نافعاً، ثم أخذوا
أناساً من بني جلدتنا، فلَقَّنوهم ثقافتهم هم،
وأعادوهم إلينا بما يُراد من القضاء على
ما تبقى، إن كان قد بقي لنا شيء.

*

وبعد،

فكيف نستعيد مكانتنا من جديد؟

كيف نستطيع أن نكون بحق أهلاً لهذا
التشريف الذي شَرَّفنا الله به إذ اصطفانا
من بين عباده فأوْرَثنا الكتاب.. ﴿كتاباً فيه
ذكركم﴾؟ [سورة الأنبياء: 10].

كيف ننهض بمسؤولية هذه الوراثة
التي شرفنا بحملها سيّد الخلق، يومَ أعلّمنّا
أن العلماء ورثة الأنبياء، ويومَ جعلَ طلبَ
العلم فريضة على كل مسلم؟ [رواه ابن ماجه
عن أنس].

الجوابُ بسيطٌ بقدر ما هو معقد،
ويلخصه القول المأثور: « لن يصلح آخر
هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ».

فأول ما ينبغي أن نفعله هو أن نعودَ إلى
هذا القرآن فنقرأه كأنما أنزل علينا،
ونعيش كل آية فيه، ونعودَ إلى الذكر الذي
أنزله الله على رسوله ليبين للناس ما نُزِّلَ
إليهم، فنستبين ما يحتاج إلى بيان.

وسوف نجد أننا سنشعر بقيمة آيات
الكتاب العزيز.. كلّ آياته، وننفي عن
أفكارنا كلّ فكر متخلف يحاول أن يعزل

الدين عن الحياة، أو يزدري التفكر في آيات الله في الأنفس والآفاق، أو يُضيع وقت المسلمين وجهدهم وتفكيرهم، في جدلٍ عقيم أو حوارٍ سقيم، في أمرٍ فرغ منه فقهاء المسلمين منذ قرون.

إن ربَّنَا جلَّ شأنه قد أمرنا بأن نستجيب لله وللرسول إذا دعانا لما يُحيينا. وسوف يُحيينا الوحيُّ القرآني المثلُّ والوحيُّ النَّبويُّ غير المثلُّ، وسوف يُحيينا التفكر في آيات الله المتلوة وآيات الله المرئية، وسوف يحيينا التفكر في خلق الله لا التفكير في ذات الله، كما سوف يُحيينا التسخير الذي جعل الله بفضله كل ما في الكون صديقاً لنا، طيعاً لنا، مفطوراً على تمكيننا من الانتفاع به عندما نعرف كيف نفعل ذلك.

ولن يغفرَ الله لنا تفریطنا في شيء من ذلك.

فقد بيّن لنا سبحانه ما قَبِلنا طواعيةً بحمله يومَ شَهِدنا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!

لقد قال ربُّنا لنا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]، فأين تلك القوةُ العِلْميةُ والتكنولوجيةُ التي أَعَدَدْنَاهَا؟

وقد حذّرنا بقوله: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لو تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ [النساء: 102]، فكيف نغفل عن سلاح العلم والتقانة الذي هو أَمْضَى أسلحتنا في هذا العصر؟

وقد أُنذَرنا بقوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ!﴾ [محمد: 38]، فهل نحن مستعدون لهذا المصير؟

*

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا،
وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ !﴾ [آل عمران: 8].

*